

محمد علي الصابوني

إيجاز البيان في سؤالات القرآن



الطبعة الثانية

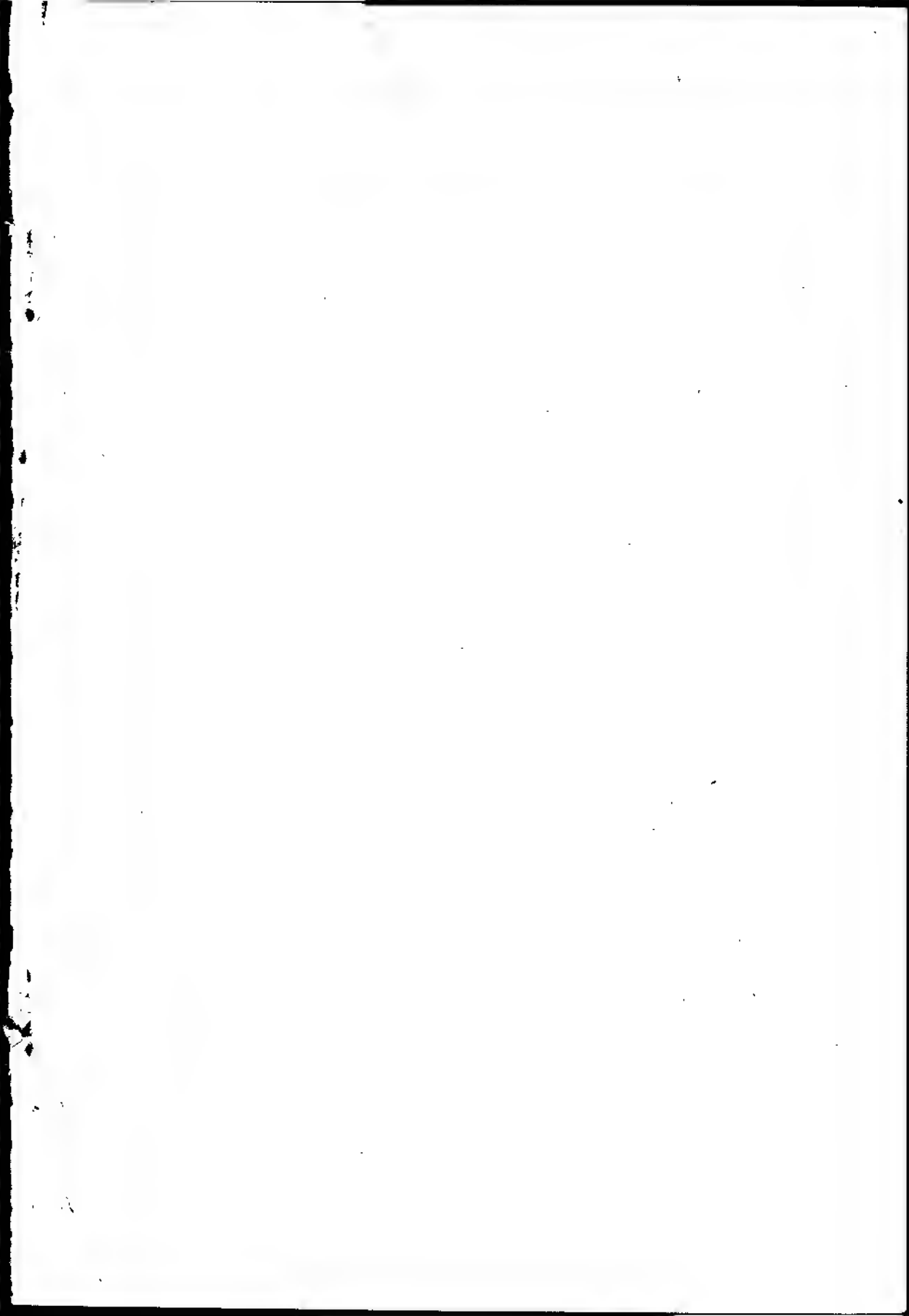
١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م

فهرس

رقم الصفحة	اسم السورة	رقم الصفحة	اسم السورة
٣	المقدمة	٨٣	سورة طه
٥	سورة الفاتحة	٨٧	سورة الانبياء
٨	سورة البقرة	٩٢	سورة الحج
١٢	سورة آل عمران	٩٧	سورة المؤمنون
١٦	سورة النساء	١٠١	سورة النور
٢٠	سورة المائدة	١٠٥	سورة الفرقان
٢٤	سورة الأنعام	١٠٩	سورة الشعراء
٢٨	سورة الأعراف	١١٣	سورة النمل
٣٢	سورة الأنفال	١١٧	سورة القصص
٣٦	سورة التوبة	١٢١	سورة العنكبوت
٤٠	سورة يونس	١٢٥	سورة الشورى
٤٣	سورة هود	١٢٩	سورة لقمان
٤٧	سورة يوسف	١٣٣	سورة السجدة
٥٣	سورة الرعد	١٣٦	سورة الأحزاب
٥٧	سورة إبراهيم	١٤٠	سورة سكا
٦١	سورة الحجر	١٤٤	سورة فاطر
٦٥	سورة النحل	١٤٨	سورة قس
٧٠	سورة الإسراء	١٥٢	سورة الصافات
٧٤	سورة الكهف	١٥٦	سورة ص
٧٩	سورة مريم		

رَقْم الْصَّفْحَةِ	إِسْمُ السُّورَةِ	رَقْم الْصَّفْحَةِ	إِسْمُ السُّورَةِ
١٦٠	<u>سُورَةُ الزُّمَرِ</u>	٢٣٧	<u>سُورَةُ الْمَجَادَلَةِ</u>
١٦٤	<u>سُورَةُ الْمُؤْمِنِينَ</u>	٢٣٩	<u>سُورَةُ الْحَشْرِ</u>
١٦٨	<u>سُورَةُ فَصَّلَتْ</u>	٢٤١	<u>سُورَةُ الْمُتَحَنِّنَةِ</u>
١٧٢	<u>سُورَةُ الشُّورَى</u>	٢٤٣	<u>سُورَةُ الصَّفِّ</u>
١٧٦	<u>سُورَةُ الزُّخْرُفِ</u>	٢٤٥	<u>سُورَةُ الْجُمُعَةِ</u>
١٨١	<u>سُورَةُ الدُّخَانِ</u>	٢٤٦	<u>سُورَةُ الْمُنَافِقُونَ</u>
١٨٥	<u>سُورَةُ الْجَاثِيَةِ</u>	٢٤٨	<u>سُورَةُ التَّغَابُنِ</u>
١٨٩	<u>سُورَةُ الْأَحْقَافِ</u>	٢٤٩	<u>سُورَةُ الطَّلَاقِ</u>
١٩٤	<u>سُورَةُ مُحَمَّدٍ</u>	٢٥١	<u>سُورَةُ التَّحْرِيمِ</u>
١٩٨	<u>سُورَةُ الْفَتْحِ</u>	٢٥٣	<u>سُورَةُ الْمُلْكِ</u>
٢٠٤	<u>سُورَةُ الْحُجُرَاتِ</u>	٢٥٥	<u>سُورَةُ الْقَامِ</u>
٢٠٨	<u>سُورَةُ قَدْ</u>	٢٥٧	<u>سُورَةُ الْحَاقَّةِ</u>
٢١١	<u>سُورَةُ الذَّارِعَاتِ</u>	٢٥٩	<u>سُورَةُ الْمَعَارِجِ</u>
٢١٥	<u>سُورَةُ الطُّورِ</u>	٢٦١	<u>سُورَةُ نُوحٍ</u>
٢١٨	<u>سُورَةُ النَّجْمِ</u>	٢٦٣	<u>سُورَةُ الْاٰحِرَةِ</u>
٢٢١	<u>سُورَةُ الْقَمَرِ</u>	٢٦٥	<u>سُورَةُ الْمُزَّمِّلِ</u>
٢٢٥	<u>سُورَةُ الرَّحْمَنِ</u>	٢٦٧	<u>سُورَةُ الْمُدَّثِّرِ</u>
٢٢٩	<u>سُورَةُ الْوَاقِعَةِ</u>	٢٦٩	<u>سُورَةُ الْقِيَامَةِ</u>
٢٣٣	<u>سُورَةُ الْحَدِيدِ</u>	٢٧١	<u>سُورَةُ الْاِنْسَانِ</u>

رَقْم الصفحة	إِسْمُ السُّورَةِ	رَقْم الصفحة	إِسْمُ السُّورَةِ
٢٧٣	<u>سُورَةُ الْمُرْسَلَاتِ</u>	٣٠٤	<u>سُورَةُ الْعَلَقِ</u>
٢٧٥	<u>سُورَةُ النَّكَاءِ</u>	٣٠٦	<u>سُورَةُ الْقَدَرِ</u>
٢٧٧	<u>سُورَةُ النَّازِعَاتِ</u>	٣٠٧	<u>سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ</u>
٢٧٩	<u>سُورَةُ عَبَسَ</u>	٣٠٨	<u>سُورَةُ الزُّلْزَلَةِ</u>
٢٨١	<u>سُورَةُ التَّكْوِينِ</u>	٣٠٩	<u>سُورَةُ الْعَادَاتِ</u>
٢٨٣	<u>سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ</u>	٣١٠	<u>سُورَةُ الْقَارِعَةِ</u>
٢٨٥	<u>سُورَةُ الْمُطَفِّفِينَ</u>	٣١١	<u>سُورَةُ التَّكَاثُرِ</u>
٢٨٧	<u>سُورَةُ الْاِنْشِقَاقِ</u>	٣١٢	<u>سُورَةُ الْقَصْرِ</u>
٢٨٩	<u>سُورَةُ الْبُرُوجِ</u>	٣١٣	<u>سُورَةُ الْهُمَزَةِ</u>
٢٩١	<u>سُورَةُ الطَّارِقِ</u>	٣١٤	<u>سُورَةُ الْفِيلِ</u>
٢٩٣	<u>سُورَةُ الْاَعْلَى</u>	٣١٥	<u>سُورَةُ قُرَيْشٍ</u>
٢٩٥	<u>سُورَةُ الْفَاشِيَةِ</u>	٣١٦	<u>سُورَةُ الْمَاعُونِ</u>
٢٩٦	<u>سُورَةُ الْفَجْرِ</u>	٣١٧	<u>سُورَةُ الْكَوْثَرِ</u>
٢٩٧	<u>سُورَةُ الْبَكَّةِ</u>	٣١٨	<u>سُورَةُ الْكَافِرُونَ</u>
٢٩٨	<u>سُورَةُ الشَّمْسِ</u>	٣١٩	<u>سُورَةُ النَّصْرِ</u>
٢٩٩	<u>سُورَةُ اللَّيْلِ</u>	٣٢٠	<u>سُورَةُ الْمَسَدِ</u>
٣٠١	<u>سُورَةُ الضُّحَى</u>	٣٢١	<u>سُورَةُ الْاِخْلَاصِ</u>
٣٠٢	<u>سُورَةُ الشَّرْحِ</u>	٣٢٢	<u>سُورَةُ الْفَلَقِ</u>
٣٠٣	<u>سُورَةُ النَّاسِ</u>	٣٢٣	<u>سُورَةُ النَّاسِ</u>



مقدمة

الحمد لله الذي أفاض النور على قلوب أهل العرفان وجعل أشراف هذه الأمة حملة القرآن ، والصلاة والسلام على أشرف الأولين والآخرين سيد ولد عدنان ، نبينا محمد الذي أنار الله تعالى ببعثته الأكوان ، وعلى آله وأصحابه والتابعين لهم بإحسان ، وسلم تسليماً كثيراً . وبعد : فهذه سلسلة علمية متتابعة في دراسة سور القرآن ، تكشف الأضواء عن أهدافها ، ومقاصدها ، وتبين الغرض الأساسي من طريقة تناولها للمواضيع والأحداث ، سواء كان ذلك في العبادات ، أو المعاملات ، أو التشريع ، أو الأخلاق ، أو في القصص والأخبار أو غير ذلك مما هو من الأهداف الأصلية التي تتناولها السور الكريمة ، وقد رأيت أن أخرجها في كتاب جامع ، يجمع دراسة وافية لسور القرآن الكريم ويلقي الضوء عليها ، تكميلاً للفائدة وتعميماً للنفع . والله أسأل أن يجعل أعمالنا خالصة لوجهه الكريم ، وأن يسلكنا في زمرة عباده الصالحين ، ويجعلنا من خدمة كتابه المبين ، ويمنّ علينا بالقبول ، إنه وليّ ذلك والقادر عليه .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وأصحابه
وسلم تسليماً كثيراً ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب
العالمين .

مكة المكرمة - غرة ربيع الأول

١٣٩٨ هـ

محمد علي الصابوني

الاستاذ بكلية الشريعة والدراسات الاسلامية

جامعة الملك عبد العزيز

مكتبه

الأستاذ / إبراهيم على مندوبي

القرآن

الرقم



سورة الفاتحة أول سور القرآن الكريم ، في الترتيب لا في النزول ، وهي مكية وآياتها سبع بالإجماع لقوله تعالى ﴿ ولقد آتيناك سبعاً من المثاني والقرآن العظيم ﴾ وسُميت « الفاتحة » لافتتاح الكتاب العزيز بها ، وهي على قصرها ووَجَّازتها - قد حوت معاني القرآن العظيم ، واشتملت على مقاصده الأساسية بالإجمال ، فهي تتناول أصول الدين وفروعه .. تتناول العقيدة ، والعبادة ، والتشريع ، والاعتقاد باليوم الآخر ، والإيمان بصفات الله الحُسنى ، وإفراده جلّ وعلا بالعبادة ، والاستعانة والدعاء ، والتوجه إليه بطلب الهداية إلى الدين الحق ، والصراط المستقيم ، والتضرع إليه بالتوفيق والتثبيت على الإيمان ، ونهج سبيل الصالحين ، وتجنب طريق المغضوب عليهم أو الضالين ، وفيها الإخبار عن أحوال الأمم السابقين ، والاطلاع على معارج السعداء الأبرار ، ومنازل الأشقياء الفجار ، وفيها التعبّد بأمر الله سبحانه ونهيه ، إلى غير ما هنالك من مقاصد سامية ، وأهداف جليّة ، فهي كالأم بالنسبة لبقية السور ، ولهذا تسمّى « أم الكتاب » لأنها جمعت مقاصد القرآن العظيم .

روى أنَّ « أبي بن كعب » قرأ على النبي ﷺ أم القرآن فقال رسول الله ﷺ : « والذي نفسي بيده ، ما أنزل في التوراة ، ولا في الإنجيل ، ولا في الزبور ، ولا في الفرقان مثلاً ، هي السبع المثاني ،

والقرآن العظيم الذي أوتيته « أخرجہ أحمد . يقول شہید الإسلام ،
المرحوم الشيخ حسن البنا :

« لا شك أنَّ من تدبَّر الفاتحةَ الكريمةَ ، رأى من غزارةِ المعاني
وجماله ، وروعةِ التناسبِ وجلاله ، ما يأخذُ بلبِّه ، ويضيءُ جوانبَ
قلبه ، فهو يتبدىءُ ذاكرةً تالياً ، متيمناً باسمِ الله الموصوفِ بالرحمةِ ،
الذي تظهر آثار رحمته متجددةً في كل شيء .. فإذا استشعر هذا المعنى ،
ووقر في نفسه ، انطلق لسانه بحمدِ هذا الإله « الرحمن الرحيم » وذكَّره
الحمدُ بعظيمِ نعمه ، وكريمِ فضله ، وجميلِ آلائه الباديةِ في تربيته
للعوالم جميعاً ، فأجال بصيرته في هذا المحيط الذي لا ساحلَ له ، ثم
تذكَّر من جديدٍ أن هذه النعمَ الجزيلةَ ، والتربيةَ الجليلةَ ، ليست عن
رغبةٍ ولا رهبةٍ ، ولكنها عن تفضُّلٍ ورحمةٍ ، فنطق لسانه مرةً ثانية
بـ « الرحمن الرحيم » .. ومن كمال هذا الإله العظيم أن يقرن الرحمنَ
بـ « العدل » وتذكَّر بالحساب بعد الفضل ، فهو مع رحمته السابعةِ
المتجددةِ ، سيدين عباده ، ويحاسب خلقه يوم الدين « يوم لا تملك
نفسٌ لنفسٍ شيئاً والأمرُ يومئذٍ لله » فربيته لخلقهِ قائمةٌ على الترغيبِ
بالرحمةِ ، والترهيبِ بالعدالةِ والحسابِ « مالكِ يوم الدين » وإذا
كان الأمر كذلك فقد أصبح العبد مكلفاً بتحري الخير ، والبحثِ
عن وسائل النجاة ، وهو في هذا أشدُّ ما يكون حاجةً إلى من يهديه
سواء السبيل ، ويرشده إلى الصراط المستقيم ، وليس أولى به في ذلك
من خالقه ومولاه ، فليجأ إليه ، وليعتمد عليه ، وليخاطبه بقوله
« إياك نعبد وإياك نستعين » وليسأله الهداية من فضله إلى الصراطِ
المستقيم .. صراطِ الذين أنعم عليهم بمعرفةِ الحقِّ واتباعه ، غير المغضوبِ
عليهم بالسلبِ بعد العطاء ، والنكوصِ بعد الاهتداء ، وغير الضالِّين
التائهين ، الذين يضلون عن الحق ، أو يريدون الوصول إليه فلا يوفقون

للعثور عليه ، آمين .. ولا شك أنَّ « آمين » براءةً مقطوع في غاية الجمال
 والحسن ، وأيُّ شيءٍ أولى بهذه البراعة من قاتحة الكتاب ، والتوجه
 إلى الله بالدعاء ؟ . فهل رأيت تناسقاً أدقَّ ، أو ارتباطاً أوثق مما تراه
 بين معاني هذه الآياتِ الكريمات ؟ وتذكَّرْ وأنتَ تهيمُ في أودية هذا
 الجمال ما يرويه رسولُ الله ﷺ عن ربه في الحديث القدسي « قَسَمْتُ
 الصلاةَ بيني وبين عبدي نصفين ولعبي ما سأل ، فإذا قال العبدُ « الحمد لله
 رب العالمين » قال الله حمدني عبدي ، فإذا قال العبدُ « الرحمن الرحيم »
 قال الله تعالى أثنى عليَّ عبدي ، فإذا قال العبدُ « مالك يوم الدين » قال
 الله تعالى : مجَّدني عبدي ، فإذا قال العبدُ « إياك نعبدُ وإياك نستعين »
 قال الله تعالى : هذا بيني وبين عبدي ، ولعبي ما سأل ، فإذا قال
 العبدُ « اهدنا الصراطَ المستقيم . صراطُ الذين أنعمتَ عليهم غير المغضوب
 عليهم ولا الضالين » قال الله تعالى : « هذا لعبي ولعبي ما سأل » .
 رواه مسلم . وأدْمُ - أخي المسلم - تلاوة كتاب الله ، وتدبره بإمعان ،
 واجتهدْ أن تقرأ في الصلاة وغيرها على مكثٍ وتمهلٍ ، وخشوعٍ
 وتذللٍ ، وأن تقف على رؤوس الآياتِ ، وتعطي التلاوةَ حقها من
 التجويد من غير تكلفٍ ولا تطريبٍ ، أو اشتغالٍ بالألفاظ عن المعاني ،
 فإن ذلك يعين على الفهم ، ويثير ما غاضَ من شآبيب الدمع ، وما نفع
 القلبَ شيءٌ أفضل من تلاوة في تدبر وخشوع .
 وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(٢) سُورَةُ الْبَقَرَةِ مَكِّيَّةٌ
وَأَسْمَاؤُهَا الْبَقَرَةُ وَالثَّانُونَ وَالثَّانِيَانِ

سورة البقرة هي السورة الثانية من القرآن الكريم في الترتيب لا في الترتول ، وهي مدنية وآياتها مائتان وست وثمانون آية ، وفيها آخر آية نزلت على الإطلاق وهي قوله تعالى ﴿ وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴾ فقد كانت هذه الآية آخر ما نزل من القرآن الكريم ، وبرزوها كَمَلِ الوحي ، وختم الدين ، وأتم الله النعمة على المؤمنين . سميت هذه السورة بـ « سورة البقرة » لما فيها من ذكر تلك القصة الغريبة ، والمعجزة العجيبة التي ظهرت في زمن نبي الله « موسى الكليم » عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والتسليم ، وكانت معجزة فائقة تدل على قدرة الله جل وعلا في الإحياء بعد الإماتة . وخلاصة القصة - كما ذكرها المفسرون - أن بني إسرائيل وجدوا قتيلاً ولم يعرفوا قاتله ، فعرضوا الأمر على موسى عليه السلام فأوحى الله إليه أن يأمرهم بذبح بقرة ، وأن يأخذوا جزءاً منها فيضربوا به الميت فيحيا بإذن الله ، ويخبرهم عن القاتل ، وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة وهي قوله تعالى ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوًا ؟ قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ .. إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى ﴿ وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادَّرَأْتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ مَخْرَجٌ مَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ فَقُلْنَا اضْرِبُوهُ بَعْضُهَا كَذَلِكَ يُحْيِي اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴾ ففعلوا فأحيا الله الميت وأخبرهم عن قاتله وهم يرون ، وكانت

معجزة باهرة لموسى عليه السلام ولهذا سميت بها السورة . اشتملت سورة البقرة - التي هي أطول سور القرآن - على معظم الأحكام التشريعية ، في العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، والسلم والحرب ، وأمور الزواج والطلاق ، وغيرها من الأحكام التشريعية .. وتحدثت الآيات في البدء عن صفات المؤمنين ، والكافرين ، والمتافقين ، ثم عن بدء الخليقة وخلق الإنسان الأول « آدم » عليه السلام ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إني جاعلٌ في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ، ونحن نُسَبِّحُ بحمْدِكَ ونُقَدِّسُ لَكَ ؟ قال إني أعلم ما لا تعلمون ﴾ وبخلق آدم كرم الله النوع الإنساني ، فأمر الملائكة بالسجود له ، فسجدوا إلا إبليس أبى واستكبر وكان من الكافرين ، وبذلك كان آدمُ جديراً بالخلافة في الأرض ، يعمرها وينمّيها ويكون بعمله مظهراً لرحمة الله بعباده .. وقد تناولت السورة الكريمة الحديث بالإسهاب عن أهل الكتاب ، وبالأخص عن « اليهود » لأنهم كانوا مجاورين للمسلمين في المدينة المنورة ، وقد تناول الحديث عنهم ما يزيد على ثلث السورة بدءاً من قوله تعالى ﴿ يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون ﴾ . ثم تتابعت الآيات تنبّه المؤمنين إلى خبث اليهود ومكرهم ، وما تنطوي عليه نفوسهم الشريرة من لؤم ، وغدر ، وخيانة ، ونقض للعهود والمواثيق ، فع كثرة النعم التي أنعم الله بها عليهم ، قتلوا الأنبياء ، وكفرو بآيات الله ، وكذبوا على الله فزعموا أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن النار لن تمسّهم إلا أياماً معدودة ، إلى غير ما هنالك من قبائح وجرائم ، مما يشير إلى عظيم خطرهم ، وكبير ضررهم . وأما سائر السورة الكريمة فقد تناول جانب التشريع ، لأن المسلمين كانوا في بداية تكوين « الدولة الإسلامية » وهم بحاجة إلى المنهج

الرباني ، والتشريع السماوي ، الذي يسرون عليه في حياتهم ، ولذا فإنَّ جماعَ السورة يتناول « الجانب التشريعي » وقد تناولت السورة الأحكام الآتية « أحكام القصاص ، الوصية ، الصيام ، الجهاد ، الحج والعمرة ، تحريم الخمر والميسر ، تحريم نكاح المشركات ، وتناولت شئون الأسرة بالتفصيل كأحكام الطلاق ، والرضاع ، والعدة ، وحذرت من إتيان النساء في حالة المحيض إلى غير ما هنالك من أحكام تشريعية خاصة بالأسرة ، اقرأ قوله تعالى « الطلاقُ مرتان فإمساكُ بمعروف أو تسريحٌ بإحسان » .. بالنسبة لأحكام الطلاق ، وقوله تعالى ﴿ والوالداتُ يرضعن أولادهنَّ حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة .. ﴾ بالنسبة لأحكام الرضاع ، وقوله تعالى ﴿ والذين يتوفون منكم ويذرون أزواجاً يتربصن بأنفسهن أربعة أشهر وعشراً .. ﴾ بالنسبة لعدة الوفاة ، وقوله تعالى ﴿ والمطلقاتُ يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء ﴾ بالنسبة لعدة المطلقة ، وقوله تعالى ﴿ وإن طلقتموهن من قبل أن تمسوهن وقد فرضتم لهنَّ فريضةً فنصفُ ما فرضتم ﴾ بالنسبة لأحكام المهر .. وهكذا توسَّعت السورة في بيان أحكام الأسرة ، على الوجه العادل الذي يضمن الأمن والاستقرار ، والحياة السعيدة الرغيدة للمسلمين ، الذين نزل عليهم هذا الكتاب السماوي ليكون نظاماً لهم في حياتهم ، ودستوراً يسرون عليه ويستضيئون بضياءه ، ولا عجب أن تحتل الأسرة هذا الجانب الهام من عناية القرآن الكريم ، باعتبار أنها النواة الأولى والحجر الأساسي لبناء المجتمع ، فبصلاح الأسرة يصلح المجتمع ، وبفساد الأسرة يفسد المجتمع ، ولذا جاءت العناية التامة بها . وقد تناولت السورة الكريمة كذلك بعض القصص القرآني ، مثل قصة الملأ الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الموت فأماتهم الله ثم أحياهم ، وفي القصة رمزٌ إلى أن الحذر لا يؤخر القدر ، وأن الأجل مكتوبٌ من الأزل ، وهذه

القصة كالحث والتحريض للمؤمنين ليجاهدوا في سبيل الله ، فإن
الجهاد شعار هذا الدين ، فرأس الأمر الإسلام ، وذروته الجهاد في
سبيل الله ، والقصة الثانية لبني إسرائيل حين طلبوا من نبيهم أن يأذن
لهم بالقتال « فلما كُتب عليهم القتال تولّوا إلا قليلاً منهم والله عليم
بالظالمين » وهي تهدف إلى نفس الغرض السابق . وقد تناولت السورة
كذلك أحكام الربا وجريمته الشنيعة ، التي تهدد كيان المجتمع ،
وتقوّض بنيانه ، ثم تعرضت لأحكام الدّين ، فأمرت بكتابته وتوثيقه ،
ووجوب أداء الأمانة ، وتحريم كتمان الشهادة ، ثم ختمت السورة
بتوجيه المؤمنين للإجابة والتوبة ، والتضرع إلى الله برفع الأغلال والآصار ،
والانتصار على الكفار « أنت مولانا فانصرنا على القوم الكافرين . »

(٣) سُورَةُ آلِ عِمْرَانَ مَدَنِيَّةٌ
وَأَرْكَانُهَا ثَلَاثَةٌ

هذه السورة الكريمة تسمى سورة « آل عمران » وهي من السور المدنيّة الطويلة ، وسميت بـ « آل عمران » لورود ذكر تلك السلسلة الطاهرة ، والأسرة الفاضلة من آل عمران ، الذين عاشوا في بيت النبوة ، وحجّر الفضيلة والدين ، وكانوا مثلاً أعلى للإنسانية في عبادتهم واستقامتهم وتمسكهم بأهداب الدين ، فعمران والدُ مريم البتول ، ومن ذريته جاء « عيسى ابن مريم » آخر أنبياء بني إسرائيل ، وقد كانت ولادة السيد المسيح عليه الصلاة والسلام مظهراً من مظاهر القدرة الإلهية ، حيث خلقه الله من أمٍ بدون أب ، وحملت به مريم البتول بنفخة نفخها في صدرها جبريل الأمين ، وكانت إرادة الله بتكوين هذا الجنين . وقد اشتملت السورة الكريمة - سورة آل عمران - على ركنين هامين من أركان الدين ، هما :

أولاً : ركن العقيدة الإسلامية ، والدلائل والبراهين على وحدانية رب العالمين .

ثانياً : ركن التشريع الإسلامي وبخاصة فيما يتعلق بالمغازي والجهاد في سبيل الله . أما الأول « ركن العقيدة » فقد جاءت الآيات الكريمة تتحدث في بدء السورة عن وجود الله جلّ وعلا ، وإثبات الوحدانية ، والنبوة ، وإثبات صدق القرآن ، والرد على الشبهات التي يثيرها أهل الكتاب حول القرآن والإسلام وأمر محمد عليه الصلاة والسلام ، استمع

إلى قوله تعالى ﴿الَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ ، نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ ، مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ، وَأَنْزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ مِنْ قَبْلُ هَدًى لِلنَّاسِ وَأَنْزَلَ الْفُرْقَانَ ، إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ۝﴾ .

وإذا كانت سورة البقرة قد تناولت الحديث عن الزمرة الأولى من أهل الكتاب وهم « اليهود » فإن سورة آل عمران قد تناولت الزمرة الثانية من أهل الكتاب وهم « النصارى » الذين جادلوا النبي ﷺ في شأن المسيح ، وزعموا ألوهيته ، وكذبوا القرآن ، وجحدوا برسالة محمد عليه الصلاة والسلام . يروي المفسرون أن صدر السورة الكريمة نزل في وفد « نصارى نجران » وكانوا ستين راكباً ، فيهم ثلاثة من أكابرهم وأشرفهم « عبد المسيح ، والأيهم ، وأبو حارثة بن علقمة » فقدموا على النبي ﷺ فتكلم منهم أولئك الثلاثة فقالوا تارة عيسى هو « الله » لأنه كان يحيي الموتى ، وتارة قالوا هو « ابن الله » لأنه ليس له أب فلا بد أن يكون ابناً لله ، وتارة قالوا إنه « ثالث ثلاثة » لقوله تعالى في الإنجيل « قلنا ، وفعلنا » ولو كان واحداً لقال « فعلتُ وقلتُ » وأخذوا يجادلون رسول الله ﷺ فقال لهم الرسول ﷺ : ألسم تعلمون أن ربنا حي لا يموت ، وأن عيسى يموت !! قالوا : بلى ، قال : ألسم تعلمون أن ربنا قائمٌ على كل شيء يكلؤه ، ويحفظه ، ويرزقه ، فهل يملك عيسى شيئاً من ذلك ؟ قالوا : لا ، قال : ألسم تعلمون أن الله لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ، فهل يعلم عيسى شيئاً من ذلك إلا ما علمه الله ؟ قالوا : بلى ، قال : ألسم تعلمون أن ربنا لا يأكل الطعام ، ولا يشرب الشراب ، ولا يحدثُ الحدث ، وأن عيسى كان يطعم ، ويشرب ، ويحدث ؟ قالوا : بلى ، فقال ﷺ : فكيف يكونُ كما زعمتم ؟ فسكتوا وأبوا إلا الجحود فأنزل الله من أول

السورة الكريمة إلى ما يزيد على ثمانين آية ، وأنزل الله في هذه السورة الردَّ الحاسم ، بالحجج الساطعة ، والبراهين القاطعة ، على مزاعم النصارى وعقائدهم الزائفة ، إستمع إلى قوله تعالى ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ . فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ، فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ ، وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ ، وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ، ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴾ وهكذا نزلت الآيات في محاجة أهل الكتاب ، وتناول الحديث عن النصارى ما يقرب من نصف السورة الكريمة .

أما الركن الثاني وهو ركن التشريع فقد تحدثت السورة عن فريضة الحج ، وأحكام الجهاد ، وأمور الربا ، وحكم مانع الزكاة ، وقد جاء الحديث بالإسهاب عن الغزوات كغزوة بدر ، وغزوة أحد ، والدروس التي تلقاها المسلمون من تلك الغزوات ، فقد انتصروا في بدر ، وهُزموا في أحد لفترة بسبب عصيانهم لأمر الرسول ﷺ وسمعوا بعد الهزيمة - من الكفار والمنافقين - كثيراً من كلمات الشتمات والتخذيل ، فأرشدهم الباري جل وعلا إلى الحكمة من ذلك ، وهي أنه تعالى يريد تطهير صفوف المؤمنين من أرباب القلوب الفاسدة ، ليميز بين الخبيث والطيب ، ويفرق بين البر والفاجر ، وفي ذلك يقول تعالى ﴿ مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّى يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ﴾ وفي هذه الغزوات دروسٌ وعبر ، فالله تعالى يتلي عباده بالمحن والشدائد ليعلم الصادق من المنافق كما قال تعالى ﴿ وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّحِيٍّ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ . وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعُنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ .. ﴾ كما تحدثت الآيات بالتفصيل

عن النفاق والمنافقين ، وموقفهم من تشييط همم المؤمنين ، وحذرت
من كيدهم وخبثهم ، ثم بعد الفراغ من تلك الدروس والعبر ، لفتت
الأنظارَ الى التدبير في ملكوت السموات والأرض ، وما فيهما من
إتقان وإبداع ، وعجائب وأسرار ، تدل على وجود الخالق الحكيم
﴿ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي
الْأَلْبَابِ ﴾ وقد ختمت السورة الكريمة بذكر الجهاد والمجاهدين ، في
تلك الوصية الفدّية الجامعة ، التي بها يتحقق الخير ، ويعظم النصر ، ويتم
الفلاح والنجاح « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا
اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » .

(٤) سُورَةُ النِّسَاءِ مَكِّيَّةٌ
وَأَمَّا السُّورَةُ فَسَبْعُونَ وَمِائَةً

سورة النساء إحدى السور المدنية الطويلة ، وهي أطول سورة مدنية بعد سورة البقرة ، وسميت بسورة النساء لكثرة ما ورد فيها من الأحكام التي تتعلق بهن ، بدرجة لم توجد في غيرها من السور ، ولذا أطلق عليها «سورة النساء الكبرى» في مقابلة سورة النساء الصغرى التي عُرفت في القرآن بسورة الطلاق .

وسورة النساء مملوءة بالأحكام التشريعية ، التي تنظم الشؤون الداخلية والخارجية للمسلمين ، وهي تُعني بجانب التشريع كما هو الحال في السور المدنية .. وقد تحدثت السورة في أمور تشريعية هامة تتعلق بالمرأة ، والبيت ، والأسرة ، والمجتمع ، والدولة ، وأمور الجهاد ، وأحكام الصلاة في حالي السلم والحرب ، وشئون النفاق والمنافقين ، ولكن معظم الأحكام التي وردت في هذه السورة كانت تبحث عن موضوع النساء ولذلك سميت «سورة النساء» . افتتح الله جلّ وعلا هذه السورة بثناء الناس كافة ، وأمرهم جميعاً بتقوى الله ، وذكّرهم في البدء بنعمة الخلق والإيجاد من نفس واحدة ، فهم جميعاً أولاد آدم ، وآدم من تراب ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا ، وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ..﴾ ثم تحدثت الآيات عن «حقوق النساء» وبخاصة اليتيمات في حجب الأولياء والأوصياء ، فقررت حقوقهن في الميراث ، والكسب ، والزواج ، واستنفذتهن

من عَسَفَ الجاهلية ، وتقاليدها الظالمة الجائرة ، حيث لم يكن للنساء شيءٌ من الإرث أصلاً ، بحجة أن المرأة لا تحمل سيفاً ، ولا تركب فرساً ، ولا تقاتل عدواً ، وكانت تُكره على الزواج بغير من تشاء وتريد ، ويزوجونها ويأكلون مهرها ، وكان الرجل يضايق زوجته حتى تبذل له المهر الذي دفعه لها ، وفي هذا وذاك إجحافٌ أيما إجحاف وفي ذلك يقول القرآن الكريم ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فان كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً) وهكذا تعرضت هذه السورة لموضوع المرأة فصانت كرامتها وحفظت كيانها ودعت الى العطف عليها وهي صغيرة .

وإلى الإحسان إليها ومعاشرتها بالمعروف وهي زوجة ، وإلى احترامها وتوقيرها وهي أم ، كما دعت إلى إعطائها حقوقها التي فرضها الله لها كاملة دون غبنٍ أو ظلمٍ أو إجحاف ، وتعرضت بالتفصيل لأحكام الميراث ، فقسمته على الوجه الدقيق العادل ، وبالشكل الذي يكفل العدالة ، ويحقق المساواة ، ثم تحدثت الآيات عن المحرمات من النساء بالنسب ، والرضاع ، والمصاهرة ، وتناولت تنظيم العلاقات الزوجية ، وبينت أنها ليست علاقة جسد ، وإنما هي علاقة إنسانية ، وأن المهر ليس أجراً ولا ثمناً ، وإنما هو عطاءٌ يوثق المحبة ، ويدبمُ العُشرة ، ويربط القلوب ، ثم تناولت حقَّ الزوج على زوجته ، وحق الزوجة على زوجها ، وأرشدت إلى الخطوات التي ينبغي أن يسلكها الرجل لإصلاح الحياة الزوجية ، عندما يبدأ الشقاق والخلاف بين الزوجين ، ويظهر النشوز والانحراف ، وبيّنت معنى «قِوامة الرجل» وأنها ليست قِوامة استعباد وتسخير ، وإنما هي قِوامة نصيح وتأديب ، كالتى تكون بين الوالد وولده ، والراعي ورعيته ﴿ الرجال قِوَامُونَ

على النساء بما فضّل الله بعضَهُم على بعضٍ وبما أنفقوا من أموالهم ،
فالصالحات قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله ﴿ ثم انتقلت الآيات
من دائرة الأسرة إلى « دائرة المجتمع » فأمرت بالإحسان في كل شيء ،
وبيّنت أن أساس الإحسان التكافل والتراحم ، والتناصح والتسامح ،
والأمانة والعدل ، حتى يكون المجتمع راسخ البنيان ، قوي الأركان
﴿ إن الله يأمرُكم أن تؤدّوا الأماناتِ إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناسِ
أن تحكموا بالعدل ﴾ ومن الإصلاح الداخلي انتقلت الآيات إلى
الإصلاح الخارجي ، بما يتوقف عليه استقرار الأمة وهدوؤها ،
فأمرت بالاستعداد الدائم لمكافحة العدو الطارىء ، وأمرت بأخذ
الحذر من الأعداء في الداخل والخارج ﴿ يا أيّها الذين آمنوا خذوا
حِذْرَكُمْ فانفروا ثباتٍ أو انفروا جميعاً ﴾ ثم وضعت بعض قواعد
المعاملات الدّولية بين المسلمين والدول الأخرى المحايدة أو المعادية ،
واستتبع الأمر بالجهاد حملةً ضخمةً على المنافقين ، فهم نابتةُ السوء ،
وجرثومةُ الشر التي ينبغي الحذر منها ، وقد تحدثت الآيات عن مكائدهم
وخطرهم ﴿ فما لكم في المنافقين فئتين والله أركسَهُم بما كسبوا أتريدون
أن تهتدوا من أضلّ الله ، ومن يضللّ الله فلن تجدله سبيلاً ﴾ وتتابع
الآيات تشرح وتوضح خطر هذا الصنف من الناس ، المذبذبين بين المؤمنين
والكافرين ﴿ الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم
نكن معكم ، وإن كان للكافرين نصيبٌ قالوا ألم نستحوذْ عليكم
ونمنعكم من المؤمنين ، فالله يحكمُ بينكم يوم القيامةِ ولن يجعلَ الله
للكافرين على المؤمنين سبيلاً ﴾ ثم انتقلت الآيات إلى التحذير من ضلالات
أهل الكتاب وموقفهم من رسل الله الكرام ، وعلى الوجه الأخص
اليهود .. ثم ختمت السورة الكريمة ببيان ضلال النصارى بشأن المسيح
عيسى ابن مريم ، حيث غالوا فيه وفي شأن أمه حتى عبدها من دون

الله ، واخترعوا فكرة « التثليث » فأصبحوا كالثنيين المشركين ،
وقد دعيتهم الآيات إلى الرجوع إلى العقيدة السمحة الصافية « عقيدة
التوحيد » ﴿ يا أهل الكتاب لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا
الحق ، إنما المسيح عيسى ابن مريم رسولُ الله وكلمته ألقاها إلى مريم
وروحٌ منه فآمنوا بالله ورسوله ولا تقولوا ثلاثة ، انتهوا خيراً لكم إنما
الله إلهٌ واحد سبحانه أن يكون له ولد ، له ما في السموات وما في
الأرض وكفى بالله وكيلاً ﴾ .

(٥) سُورَةُ الْمَائِدَةِ الْمَدِينَةِ
وَأَيُّهَا عَشْرُونَ وَفَاتِنَا

سورة المائدة من السور المدنية التي تناولت جانب التشريع بتفصيل وإسهاب ، كسائر السور المدنية كالبقرة والنساء والأنفال ، إلى جانب بعض أمور العقيدة وقصص أهل الكتاب ، قال أبو ميسرة : المائدة من آخر ما نزل من القرآن ، ليس فيها منسوخ ، وفيها ثمان عشرة فريضة ، سميت بهذا الاسم « المائدة » لورود تلك الآية الباهرة التي كانت إحدى معجزات السيد المسيح عيسى ابن مريم صلوات الله عليه ، فقد طلب منه « الحواريون » وهم تلامذته الأخيار ، أن يريهم آية عظيمة ، تكون له معجزة باهرة ، تدل الناس على صدق نبوته ، وتكون لهم فرحة وعيداً ، وطلبوا منه مائدة من السماء ، يأكل منها من حضرها من البشر ﴿ إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ ، قَالَ اتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ، قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتُنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ . قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيداً لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا ، وَآيَةً مِنْكَ ، وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴾ ولهذا الحادثة وما اشتملت عليه من دلائل باهرة ، ولطف عظيم من الله العلي الكبير ، سميت سورة المائدة . نزلت هذه السورة على رسول الله ﷺ منصرفه من الحديبية ، وهو في طريقه إلى المدينة المنورة ، وقد روى الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله

عنه قال : « أنزلت على رسول الله ﷺ سورة المائدة وهو راكب على راحلته ، فلم تستطع أن تحمله فنزل عنها » وجماع هذه السورة يتناول الأحكام التشريعية ، وفيها بعض الإشارات إلى عقائد أهل الكتاب ، أما الأحكام التي تناولتها هذه السورة فهي كما يلي « أحكام العقود ، أحكام الصيد ، حالة الاحرام ، ما يحل ويحرم من الأطعمة ، نكاح الكتابيات ، أحكام الردة ، أحكام الوضوء والتميم ، حد السرقة ، حد البغي والإفساد في الأرض ، كفارة اليمين ، تحريم الخمر والميسر ، منع المشركين من دخول المسجد الحرام ، أحكام الصيد ، أحكام الوصية عند الموت ، حكم من ترك العمل بشريعة الله ، أحكام الوصية » إلى آخر ما هنالك من الأحكام التشريعية .

وإلى جانب التشريع قصّ الله تعالى علينا في هذه السورة بعض القصص للعلظة والاعتبار ، فذكر قصة « بني إسرائيل » مع نبيهم موسى عليه السلام ، وهي قصة ترمز إلى التمرد والطغيان ، والتكبر على أوامر الله ، ممثلة في هذه الشرذمة الباغية من « اليهود » حين دعاهم موسى إلى دخول الأرض المقدسة فأجابوه بكلمتهم الغليظة ﴿ قالوا يا موسى إنا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ﴾ ثم ما حدث لهم بعد ذلك من التشرد والضّياع ، بسبب معصيتهم وفسقهم ، إذ وقعوا في أرض التيه أربعين سنة ﴿ قال فإنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ، فلا تأس على القوم الفاسقين ﴾ ثم قصّ علينا قصة أنبياء آدم ﴿ قابيل وهابيل ﴾ وهي قصة ترمز إلى الصراع العنيف بين الخير والشر ، وتحدث عن نموذجين من المخلوقات البشرية : نموذج النفس الشريرة الأثيمة ، التي تحب الاستعلاء والطغيان ، ونموذج النفس الخيرة الكريمة ، التي تميل نحو الفضيلة والإيمان ، وكان من نتيجة الصراع أن أريق الدم البريء الطاهر

على جنبات الأرض ، بيد الظلم والطغيان فأقدم « قاييل » على قتل أخيه
الوديع « هابيل » وكانت هذه أول جريمة نكراء تحدث على سطح
البيضة ، وتنقل إلينا صورة الإثم والعدوان ﴿ فطوّعت له نفسه قتل
أخيه فقتله فأصبح من الخاسرين . فبعث الله غراباً يبحث في الأرض
ليريه كيف يواري سوأة أخيه ، قال يا ويلتنا أعجزت أن أكون مثل
هذا الغراب فأواري سوأة أخي ؟ فأصبح من النادمين) .

وبعد هذا العرض لقصة ابني آدم ، عرضت السورة الكريمة لفضلات
أهل الكتاب « اليهود والنصارى » فتحدثت عن عقائدهم الزائفة ،
وأفكارهم الباطلة ، في الله جلّ وعلا ، وصفاته ، والنبين ، فقد
نسبوا إلى الله تعالى ما لا يليق من الذرية والبنين ، وحرّفوا أحكام
التوراة والإنجيل ، وكذبوا برسالة محمد عليه السلام ، إلى آخر ما
هنالك من جرائم وقبائح وأباطيل ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله هو
المسيح ابن مريم ، قل فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح
ابن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً والله ملك السموات والأرض
وما بينهما يخلق ما يشاء ، والله على كل شيء قدير ﴾ وقد حذرت الآيات
الكريمة المؤمنين من موالاة ومصاحبة اليهود والنصارى ، بعد افتراءهم
على الله ومعاداتهم وتكذيبهم لرسول الله فإن ذلك دليل ظلمة العقل ،
ومرض القلب ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء
بعضهم أولياء بعض ، ومن يتولّهم منكم فإنه منهم ، إن الله لا يهدي
القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم ، يقولون
نحشي أن تصيبنا دائرة ، فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا
على ما أسروا في أنفسهم نادمين ﴾ وقد صوّرت الآيات الكريمة ، حالة
بني إسرائيل في انتهاكهم لحرّمات الله ، وسكوتهم على المظالم والمعاصي ،
حتى فشت المنكرات ، فاستحقوا اللعنة والغضب والدمار ﴿ لعن

الذين كَفَرُوا من بني إِسْرَائِيلَ على لسانِ دَاوُدَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ، ذلكَ
بما عَصَوْا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكرٍ فعلوه لبئسَ
ما كانوا يفعلون ﴿ وقد ختمت السورة الكريمة بذكر الموقف الرهيب ،
يوم الحشر الأكبر ، يوم يقوم الناس لرب العالمين ، حيث تكونُ
الفضيحةُ العظمى لأولئك الضالين ، الذين عبدوا المسيح ابن مريم من
دون الله ، وهناك يكون السؤال والجواب على رءوس الإِشهاد ﴿ وإذ
قال الله يا عيسى ابن مريمَ أأنتَ قلتَ للناس اتخِذوني وأُمِّي إلهين من دونِ
الله ؟ قال سبحانه ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحقٍ ، إن كنتُ
قلته فقد علمته ، تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنتَ
علامُ الغيوب . ما قلتُ لهم إلا ما أمرتني به . أن اعبدوا اللهَ ربي وربكم ،
وكنتمُ عليهم شُهيداً ما دمتُ فيهم ، فلما توفيتني كنت أنتَ الرقيبَ
عليهم وأنتَ على كل شيء شَهِيدٌ ﴿ ويا له من موقفٍ مخزٍ لأعداء الله ،
تشيب لهوله الرءوس ، وتتفطر من فزعهِ النفوس .

(٦) سُورَةُ الْأَنْعَامِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا خَمْسُ وَسِتُّونَ وَآيَةً

سورة الأنعام إحدى السور المكية الطويلة ، التي يدور محورها حول « العقيدة » و « أصول الإيمان » وهي تختلف في أهدافها ، ومقاصدها ، وأسلوبها عن السور المدنية التي سبق الحديث عنها كسورة البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، فهي لم تعرض لشيء من الأحكام التنظيمية لجماعة المسلمين ، كالصوم ، والحج ، وأمور الجهاد ، ومحاربة الخارجين على دعوة الإسلام .. كما لم تتحدث عن أهل الكتاب ولا عن المنافقين ، وإنما تناولت القضايا الكبرى الأساسية لأصول العقيدة ، وأركان الإيمان ، وهذه القضايا هي : قضية الألوهية .. وقضية الوحي والرسالة .. وقضية البعث والجزاء ، ومن أجل تقرير هذه الأصول نجد الحديث في هذه السورة واضحاً مستفيضاً ، يدور بشدة حول هذه الأصول الأساسية للعقيدة الإسلامية ، ونجد سلاحه في ذلك الحجة الدامغة ، والبراهين القاطعة ، والأدلة المقنعة لإرغام الخصم على الإقرار ، وإقناعه - بطريق الحجة والبرهان - على صدق ما جاء به القرآن ، لأن السورة الكريمة مكية وقد نزلت على قوم مشركين ، لا يؤمنون بالله ، ولا يُقرّون بالوحي ، ولا يصدّقون بالبعث والجزاء ، ولهذا عرضت لأدلة التوحيد بالأسلوب المفحم الذي يتقبله المنطق ، والعقل السليم . ومما يلفت النظر ويشير الانتباه في هذه السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين ، لانكاد نجد هما - بهذه

الكثرة - في غيرها من سور القرآن ، الأول : أسلوب التقرير ..
وأسلوب التلقين . أما الأول وهو الأسلوب التقريري فإن القرآن يعرض
للأدلة المتعلقة بتوحيد الله جلّ وعلا ، والدلائل المنصوبة على وجود
الخالق ، المدير الحكيم ، وسلطانه وقهره ، وعظمته وجلاله ، في صورة
الشأن المسلّم ، الذي لا يمتري فيه قلب سليم ، ولا عقل راشد ، ولا
يشك عاقل من البشر في أنه جلّ وعلا المبدع للكائنات ، المنظم لشئون
الخلق ، صاحب الفضل والإنعام على جميع الأنام ، ويضع لذلك
ضمير الغائب عن الحس ، الحاضر في القلب ، الذي تدل آياته على
وجوده ، ومخلوقاته على بديع صنعه ، ويأتي بعبارته « هو » المشيرة
إلى وحدانيته في ملكه وخلقه إقرأ قوله تعالى ﴿ هو الذي خلقكم من
طين ثم قضى أجلاً .. ﴾ ﴿ وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم
بالنهار .. ﴾ ﴿ وهو القاهر فوق عباده .. ﴾ ﴿ وهو الذي خلق السموات
والأرض بالحق .. ﴾ إلى آخر ما هنالك من أسلوب التقرير ..
أما الأسلوب الثاني « أسلوب التلقين » فإنه يظهر بوضوح في تلقين
الرسول الحجة الدامغة ليقذف بها في وجه الخصم العنيد ، بحيث تأخذ
عليه قلبه ، وتملك عليه سمعه ، فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها ،
ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب ، يسأل ثم يجيب ،
ويوجه السؤال ثم يرد عليه الجواب استمع إلى قوله تعالى في هذه السورة
﴿ قل لمن ما في السموات والأرض ؟ قل لله كتب على نفسه الرحمة .. ﴾
﴿ قل أغير الله اتخذ ولياً فاطر السموات والأرض وهو يطعم ولا يطعم ،
قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين ﴾ وهكذا
تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة ،
والبراهين القاطعة ، التي تقصم ظهر الباطل . ومن هنا كانت سورة
الأنعام بين السور المكيّة ، ذات شأن عظيم في تركيز الدعوة الإسلامية ،

تقرّر حقائقها ، وثبتت دعائمها ، وتفنّد شبه المعارضين لها ، بطريق التنويع العجيب في المناظرة والمجادلة ، فهي تذكر توحيد الله جلّ وعلا في الخلق والإيجاد ، وفي التشريع والعبادة ، وتذكر موقف المكذّبين للرسل . وتقصّ عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين . وتذكر شبههم في الرّحي والرسالة . وتذكر يوم البعث والجزاء . وما يكون الناس عليه من أهوال وشدائد في ذلك اليوم الرهيب ، وتبسط كلّ ذنّب بالأدلة الساطعة . والحجج القاطعة . وقد تناولت السورة الكريمة دلائل القدرة والرحمة في خلق السموات والأرض . وخلق الإنسان والحيوان . ثم عرضت لشبهة المشركين حول الرسالة وبيّنت أنّها مجرد لجاج وعناد * ولو تركنا غيلك كتاباً في قرطاس فلسوه بأيديهم لقد ألين كثير من هذا الأسحر ميين * وذكرت خسارتهم وندامتهم يوم القيامة * قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا حسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألاساء ما يزرّون * ثم شبهتهم بالموتى الذين لا يسمعون ولا يستجيبون * إنما يستجيب الدين يسعون ، والموتى يبعثهم الله ثم إليه يرجعون * وتتابع الآيات الكريمة تذكر سنة الله في المكذّبين بأخذهم فجأة حينما يتسادون في الغي والضلال * فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون . فقصّ دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين * وعرضت لذكر أبي الأنبياء إبراهيم الخليل . وذكرت قصته مع قومه وأبيه . ثم ذكرت جملة من أبنائه الرسل الكرام ، وأرشدت الرسول ﷺ إلى اتباع هدايتهم . وسلوك طريقهم في احتمال المشاق والصبر عليها * أولئك الذين عنى الله فيهداهم اقتده .. * ثم عرضت لكثير من تصرفات الجاهلية التي دفعهم إليها شرّكهم فيما يختص بأمر

التحليل والتحرير ، وقضت عليه بالتفنيد والإبطال ، وختمت السورة بعد ذلك - في ربيع كامل - بالوصايا العشر التي نزلت في كل الكتب السماوية ، ودعا إليها جميع الأنبياء السابقين ﴿ قل تعالوا أتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا... ﴾ وانتهت السورة الكريمة بآية فذة تكشف للإنسان عن قيمته عند ربه ، وأنه تعالى خلقه ليعمر هذه الدنيا ويكون خليفة في الأرض ﴿ وهو الذي جعلكم خلائف الأرض ، ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليلوكم فيما آتاكم ، إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم ﴾

(٧) سورة الأعراف مكية
وَأَيُّهَا هَاشِيئٌ وَمَانِنَانِ

سورة الأعراف من أطول السور المكية ، وهي تعرض لدعوة القرآن في إجمال ، ولنتائج الإعراض عن دعوة الله - كرسالة إلهية - جاءت لإنقاذ البشرية من ظلمات الجهل والضلال ، وهي أول سورة عرضت للتفصيل في قصص الأنبياء ، ومهمتها كمهمة السور المكية : تقرير أصول الدعوة الإسلامية بالإيمان والتوحيد ، وتقرير البعث والجزاء ، وتقرير الوحي والرسالة . سُميت سورة الأعراف لورود اسم « الأعراف » فيها وهـ سورٌ مضروبٌ بين الجنة والنار يحولُ بين أهلها ، ويُسمى أهلُه أصحاب الأعراف ، وهم قومٌ استوت حسناتهم وسيئاتهم ، فليسوا من أهل الجنة ولا من أهل النار ، يُحبسون هناك على السور حتى يقضي الله سبحانه في أمرهم ، فيكونوا من أهل اليمين أو من أهل الشمال ، لأنه ليس في الآخرة إلا داران : دارُ النعيم ، ودارُ الجحيم . تعرّضت السورة الكريمة - في البدء - للقرآن العظيم معجزة محمد ﷺ الخالدة ، وقرّرت أن هذا القرآن نعمةٌ من الرحمن على الإنسانية بأسرها ، وأن عليهم أن يتمسكوا بتوجيهاته وإرشاداته ليفوزوا بسعادة الدارين ، ثم لفتت الآيات أنظارَ البشر إلى نعمة خلقهم من أب واحد ، وإلى تكريم الله جلّ وعلا لهذا النوع الإنساني ممثلاً في أب البشر « آدم » عليه السلام الذي خلقه الله بيده ، ونفخ فيه من روحه ، وأمر الملائكة بالسجود له « ولقد خلقناكم ثم صورناكم

ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين «
وحذرت الآيات من كيد الشيطان ذلك العدو المتربص الذي قعد على
طريق الناس ليصدّهم عن الهدى ، ويُبْعِدَهم عن خالقهم ، وقد ذكر
تعالى قصة آدم مع إبليس ، ثم خروجه من الجنة ، وهبوطه إلى الأرض
كنموذج للصراع الدائم بين الخير والشر ، والحق والباطل ، والهدى
والضلال ، ولهذا وجه الله تعالى إلى أبناء آدم - بعد أن بين لهم عداوة
إبليس لأبيهم - أربعة نداءات متتالية بوصف النبوة لآدم « يا بني آدم »
وهو نداء خاص بهذه السورة لم يأت في غيرها من سور القرآن ،
حذّرهم فيها من عدوهم إبليس اللعين ، الذي نشأ على عداوتهم من الزمن
القديم ، حين وسوس لأبيهم آدم حتى أوقعه في الزلّة والمخالفة لأمر الله
﴿ يا بني آدم لا يفتننكم الشيطان كما أخرج أبويكم من الجنة ينزع عنهما
لباسهما ليريهما سوءتهما .. ﴾ ﴿ يا بني آدم قد أنزلنا عليكم لباساً
يؤاري سوءاتكم وريشاً ولباس التقوى ذلك خير .. ﴾ ﴿ يا بني آدم
خذوا زينتكم عند كل مسجد .. ﴾ ﴿ يا بني آدم إنا يأتينكم رسل منكم
يقصّون عليكم آياتي .. ﴾ وقد تناولت السورة الكريمة مشهداً حسياً
من مشاهد القيامة ، تبدو فيه ألوان جديدة من صور المحاورة والمناظرة ،
وفي هذا المشهد تجري المحادثة بين فرقتين ثلاث : فرقة المؤمنين أصحاب
الجنة ، أهل الهدى والإيمان ، وفرقة الكافرين أصحاب النار ، أهل
الضلال والبهتان ، وفرقة ثالثة هم أصحاب الأعراف الذين استوت
حسناتهم وسيئاتهم ، فإذا رأوا أصحاب الجنة طمعوا ، وإذا رأوا
أصحاب النار فرعوا ﴿ وبينهما حجابٌ وعلى الأعراف رجالٌ يعرفون
كلاً بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم لم يدخلوها
وهم يطعمون . وإذا صُرفتْ أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا
ربّنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين ﴾ مشهد لا بدّ أن تشهد البشرية على

الحقيقة دون تمثيل أو تخيل ، يظهر فيه شماتة أهل الحق بأهل الباطل ، وينطلق صوت علوي يسجل على المكذبين المجرمين اللعنة والطرده والحرمان ، وقد أحرقت النار أكبادهم ، وشوت وجوههم ، فيفزعون للاستغاثة بأهل الجنة أن يسعفوهم بجرعة من ماء ﴿ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ، قالوا إن الله حرمهما على الكافرين﴾ .

وبعد هذا تعود الآيات فتلفت الأنظار إلى بعض الأدلة الكونية في الأنفس والآفاق ، وتحذر من الإفساد في الأرض ، وتضرب مثلاً للنفوس الطيبة ، والنفوس الخبيثة ، بالأرض السهلة والأرض السبخة ، فالأرض الكريمة التربة يخرج النبات فيها حسناً غزيراً النفع ، والأرض الخبيثة التربة لا يخرج النبات فيها إلا تافهاً حقيراً بعسر ومشقة ﴿والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه ، والذي خبث لا يخرج إلا نكداً﴾ ، كذلك نصرّف الآيات لقوم يشكرون ﴿. وتناولت السورة بعد ذلك «قصاص الأنبياء» بإسهاب ، فتحدثت عن شيخ الأنبياء «نوح» عليه السلام ، ثم عن هود ، وصالح ، ولوط ، وشعيب ، وموسي ، عليهم من الله أفضل الصلاة وأزكى السلام ولما كانت قصة الكليم موسي عليه السلام مع الطاغية فرعون مملوءة بالعبّر والعظات ، تناولت السورة الحديث عنهم بالتفصيل ، فتحدثت عما حلّ بقوم فرعون من البلايا والنكبات وما أصابهم من القحط والجذب ، والطوفان والجراد نتيجة لتكذيبهم بآيات الله ﴿فأرسلنا عليهم الطوفان ، والجراد ، والقمل ، والضفادع ، والدم آيات مفصلات فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين﴾ . وتناولت السورة كذلك «علماء السوء» والمثل المخزي لهم ، وصورتهم بأقبح وأشنع تصوير ، بصورة الكلب اللاهث الذي لا يكف عن اللهث سواء زجرته وطرده أو أحسنت إليه

وأكرمته ﴿واتلُ عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطانُ فكان من الغاوين . ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه ، فمثلُه كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأقضُص القصص لعلهم يتفكرون ﴾ وهذه لَعْمَرُ الحقِّ أقبحُ صورةٍ لمن لم ينتفع بعلمه ، وجعل العلم سبيلاً لجمع حُطام الحياة الفانية فكان خزياً ووبالاً عليه ، وقد ختمت السورة الكريمة بالتهكم بمن عبدوا ما لا يضر ولا ينفع ، ولا يبصر ولا يسمع ، من دون الله ، واتخذوا الأوثان والأصنام شركاء مع الله ﴿ألم أُرْجِلُ يمشون بها ؟ ألم لهم أيدٍ يبطشون بها ؟ أم لهم أعينٌ يبصرون بها ؟ أم لهم آذانٌ يسمعون بها ؟ قيل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ﴾ وهكذا تختم السورة بالدعوة إلى التوحيد كما بدأت بالتوحيد ، فكانت دعوة إلى الإيمان في البدء والختام .

(٨) سُورَةُ الْأَنْفَالِ الْمَدِينَةِ
وَأَيُّهَا الْجَنَّةُ وَسَبْعُونَ

سورة الأنفال إحدى السورة المدنية التي عُتبت بجانب التشريع - كسائر السور المدنية - وبخاصة فيما يتعلق بأمر الجهاد في سبيل الله ، فقد عالجت بعض النواحي العسكرية والحربية ، التي ظهرت عقب بعض الغزوات ، وتضمنت كثيراً من التشريعات الحربية ، والإرشادات الإلهية التي يجب على المؤمنين اتباعها في قتالهم لأعداء الله ، وتناولت جانب السلم والحرب ، وقواعد المعاهدات الدولية ، وأحكام الأسر والغنائم . نزلت هذه السورة الكريمة في أعقاب « غزوة بدر » التي خاضها المسلمون ضدَّ المشركين من كفار مكة ، والتي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام المجيد ، وبداية النصر لجند الرحمن حتى سماها بعض الصحابة « سورة بدر » لأنها تناولت أحداث هذه الغزوة بإسهاب ، ورسمت الخطَّة التفصيلية للقتال ، وَبَّهت المؤمنين إلى بعض نقاط الضعف حتى يتداركوها ، وَبَّهت ما ينبغي أن يكون عليه الجندي المسلم ، من البطولة والشجاعة ، والعزم والحزم ، والجرأة والصمود ، لأنه يقاتل في سبيل غاية نبيلة ، ويجاهد لإعلاء كلمة الله . ومن المعلوم من تاريخ الغزوات والحروب التي خاضها المسلمون أن غزوة بدر كانت في رمضان من السنة الثانية للهجرة ، وكانت الجولة الأولى من جولات الحق مع الباطل ، لردِّ البغي والطغيان ، وإنقاذ المستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، الذين قعد بهم الضعف

في مكة فلم يستطيعوا الهجرة لبلد الأمن والإيمان ، وأخذوا في
 الضراعة إلى الله جلّ وعلا أن ينقذهم من طغيان الكفرة ويخرجهم من
 القرية الظالم أهلها ، وقد استجاب الله سبحانه ضراعتهم ، فهبأ لهم
 ظروف تلك الغزوة ، التي تمّ فيها النصر للمؤمنين على قلةٍ في عددهم ،
 أضعف في عددهم ، وعلى عدم تهيئتهم للقتال ، وبها عرف أنصارُ
 الباطل والظلم والطغيان ، أنه مهما طال أمده ، وقويت شوكته ،
 وامتدّ سبطانه ، فلا بدّ للباطل من يومٍ يختر فيه صريعاً أمام جلال الحق ،
 وقوة الإيمان ، وهكذا كانت غزوة بدر درساً لا يُنسى ، وعبرة
 لا تمحى ، أمام التاريخ والأجيال ، في أن النصر من عند الله وصدق
 الله ﴿ فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ﴾ ، وما رميت إذ رميت ولكن
 الله رمى ، وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً إن الله سميعٌ عليهم ﴾ وهكذا
 نصر الله المؤمنين على قتلهم ، على المشركين على كثرتهم ، وكانت
 عبرةً للمعتبرين . وفي ثنايا سرّد أحداث بدر ، جاءت النداءات الإلهية
 للمؤمنين مستمرة مرات بوصف الإيمان « يا أيها الذين آمنوا » كحافز
 لهم على الصبر والثبات في مجاهدتهم لأعداء الله ، وكتذكير لهم بأن
 هذه التكاليف التي أمروا بها من مقتضيات الإيمان الذي تحلّوا به ،
 وأن النصر الذي حازوا عليه كان بسبب « الإيمان » لا بكثرة السلاح
 والرجال . أما النداء الأول : فقد جاء فيه التحذير للمؤمنين من الفرار
 من المعركة ومن ميدان القتال لأن ذلك يُغري بهم الأعداء ﴿ يا أيها
 الذين آمنوا إذا القيم الذين كفروا زحفاً فلا تولوهم الأدبار ﴾ وقد
 توعدت الآيات المهزمين أمام الأعداء بأشدّ العذاب . وأما النداء الثاني :
 فقد جاء فيه الأمر للمؤمنين بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر رسوله
 ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله ورسوله ولا تولّوا عنه وأنتم تسمعون .
 ولا تكونوا كالذين قالوا سمعنا وهم لا يسمعون ﴾ كما صوّرت لهم

الآياتُ صورةُ الكافرين بالأنعام السارحة التي لا تسمع ، ولا تعي ولا تستجيبُ لدعوة الله ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبَكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴾ . وأما النداء الثالث : فقد بينَّ تعالى فيه للمؤمنين حقيقة الدعوة المحمدية ، وأنها دعوة إلى سعادة الدارين ، وفيها الحياة والعزة والنجاح ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ ﴾ . وأما النداء الرابع : فقد جاء فيه التحذيرُ من إفشاء السرِّ للأعداء - وعلى الوجه الأخص - مشئون الحرب فإن ذلك خيانة للدين والأمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ وأما النداء الخامس : فقد جاء فيه التنبيه إلى مرتبة التقوى التي هي الحصنُ الحصينُ للمؤمن ، وأن من أعظم ثمرات التقوى ذلك النور الرباني ، الذي يَقْذِفُهُ اللهُ في قلب المؤمن ، وبه يفرق الإنسان بين الرُّشد والغِيِّ ، والهدى والضلال ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ﴾ . وأما النداء السادس : وهو النداء الأخير فقد وُضِعَ الباري جلّ وعلا للمؤمنين فيه طريقَ العزة ، وأسسَ النصر ، وذلك بالثبات أمام الأعداء ، والصبر عند اللقاء ، واستحضار عظمة الله التي لا تُحَدُّ ، وقوته التي لا تُقهر ، والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعينهم على الثبات وهو ذكرُ الله جلّ وعلا ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وقد جاءت هذه النداءات متتالية مذكِّرة لهم بنعمة الإيمان . وقد ختمت السورة الكريمة ببيان فضل الهجرة والجهاد ، وبيان الولاية الكاملة بين المؤمنين مهما تناعت ديارهم ، واختلفت أجناسهم ، فهم أولاً وآخرأً أمةً واحدة ، جمعهم عقيدة الإيمان ، وظللتهم راية التوحيد ، فعليهم أن يتعاونوا ويتناصروا ، ويكونوا صفأً واحداً أمام الأعداء ، وقد ذكّرهم المولى جلّ وعلا بما لهم

مِنَ الْأَجْرِ وَالرَّزْقِ الْكَرِيمِ ﴿١٠﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا
وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا
لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿١١﴾ .

(٩) سُورَةُ التَّوْبَةِ الْمَدِينَةِ
وَأَيُّهَا تِسْعَ وَعَشْرُونَ وَفَاتِنَا

سورة التوبة من السور المدنية التي تُعنى بجانب التوجيه والتشريع ، كسائر السور المدنية ، التي تتناول أُسُس التربية الإسلامية ، وقواعد الإصلاح والبناء ، والتشريع المحكم المتين ، وهي من أواخر ما نزل على رسول الله ﷺ فقد أخرج الإمام البخاري عن البراء بن عازب رضي الله عنه « أن آخر سورة نزلت سورة براءة » وهذه السورة الكريمة عدة أسماء منها « براءة » ، « التوبة » ، « المَقْشِقِشَةُ » ، « المُبْعِثَةُ » ، « المنكلة » ، « المُدْمِمة » ، « الفاضحة » قال الزمخشري : لأن فيها التوبة على المؤمنين ، وهي تبعثر عن أسرار المنافقين ، وتفضحهم وتنكّل بهم ، وتشردهم وتخزيهم .. نزلت هذه السورة في السنة التاسعة من الهجرة ، وهي السنة التي خرج فيها رسول الله ﷺ لغزو الروم ، واشتهرت بين الغزوات النبوية باسم « غزوة تبوك » وكانت في سفر بعيد ، وحرّ شديد ، فكانت ابتلاءً لإيمان الناس ، وامتحاناً لصدقهم وإخلاصهم للدعوة التي آمنوا بها ، وتميزاً بينهم وبين المنافقين ، وهذه السورة الكريمة هدفان أصليان - إلى جانب الأحكام الأخرى - هما : ١ - بيان القانون الإلهي في معاملة المشركين وأهل الكتاب . ٢ - إظهار الحالة النفسية التي كان عليها الناس حينما استنفرهم الرسول ﷺ لغزو الروم . أما بالنسبة للهدف الأول فقد عرضت السورة الكريمة إلى عهود المشركين فوضعت لها حداً ، لا سيما بعد أن نقض المشركون

العهود ، وتآمروا مع اليهود عدة مرات لضرب الدعوة الإسلامية ،
 والقضاء على الإسلام في مهده وعرينه ، فلم يعد من الحكمة أن يظلَّ
 المسلمون متمسكين بالعهود وقد نقضها أعداؤهم ، ولذلك نزلت
 الآيات تأمر بإلغاء تلك العهود على بصيرة ووضوح ، بعد أن منحهم
 القرآن فرصة كافية هي السياحة في الأرض أربعة أشهر ينطلقون فيها
 آمنين مطمئنين ، ليتمكنوا من النظر والتدبر في عاقبة أمرهم ، من
 الدخول في الإسلام ، أو الاستمرار على الحرب ، وفي ذلك نزل
 صدر السورة الكريمة ﴿ براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من
 المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزي
 الله وأن الله مُخزي الكافرين ﴾ ثم تلتها الآيات الكريمة في قتال أهل
 الكتاب الذين لا يتورعون عن الغدر والخيانة كلما سنحت لهم الفرصة ،
 كما فعل يهود بني قريظة ، وبني النضير ، حيث أعانوا المشركين على
 حرب الرسول عليه الصلاة والسلام وفي ذلك يقول القرآن الكريم
 ﴿ قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرّمون ما حرّم
 الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يُعطوا
 الجزية عن يدٍ وهم صاغرون ﴾ وعرضت السورة للهدف الثاني وهو
 شرح نفسيات المسلمين حينما استنَفَرُوا لغزو الروم فتباطؤوا وتناقلوا
 وضعفت عزائم البعض ، وركنوا إلى نعيم الحياة ، فجاء التوجيه الإلهي
 الكريم ﴿ يا أيها الذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله
 أثاقلتم إلى الأرض ؟ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة ؟ فما متاع الحياة
 الدنيا في الآخرة إلا قليل ﴾ ثم تنابعت الآيات بالأمر في النفير والجهاد
 بالنفس والمال لإعلاء كلمة الله ، في المنشط والمكره ، والعُسْر واليسر
 ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله .. ﴾
 وتلتها الآيات في تقصّي شئون المنافقين ، وفضح أساليب نفاقهم وتخديلهم

للمؤمنين ، حتى لم تدع لهم سترًا إلا هتكته ، وتركهم بعد ذلك الكشف والإيضاح تكاد تلمسهم أيدي المؤمنين ، وقد أستغرق الحديث عن المنافقين معظم السورة الكريمة ، حتى سمّاها بعض الصحابة « الفاضحة » لأنها فضحت المنافقين ، وكشفت عن أسرارهم وخفائهم قال سعيد ابن جبير : سألت ابن عباس عن سورة « براءة » فقال تلك الفاضحة ما زال ينزل ومنهم ومنهم حتى خفنا أن لا تدع أحداً منهم » وقال : حذيفة بن اليمان : إنكم تسمونها سورة التوبة ، وإنما هي سورة العذاب ، والله ما تركت أحداً من المنافقين إلا نالت منه .. وبالجملة فإن هذه السورة الكريمة تناولت « الطابور الخامس » المندس بين صفوف المسلمين ، ألا وهم المنافقون الذين هم أشدّ خطراً من المشركين ، ففضحتهم وكشفت أسرارهم ، وظلّت تقدفهم بالحُمم حتى لم تترك سترًا . استمع إلى قوله تعالى ﴿ يحذر المنافقون أن تُنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم ، قل استهزئوا إن الله مخرج ما تحذرون ﴾ وقوله تعالى ﴿ فرح المخلفون بمقعديهم خلافَ رسولِ الله ، وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحرّ ، قل نارُ جهنم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون . فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون ﴾ وقوله تعالى ﴿ ولا تصلّ على أحدٍ منهم مات أبداً ، ولا تقم على قبره ، إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ ولا عجب أن يكون ذلك المصير المشنوم جزاءهم ، فقد وصل بهم الكيد في التآمر على الإسلام والمسلمين أن يتخذوا بيوت الله أوكاراً للتدمير والتخريب ، يتآمرون فيها على إلقاء الفتنة بين صفوف المسلمين ، ومن أجل ذلك بنوا مسجداً يدبرون فيه الشر ، وطلبوا من الرسول عليه السلام أن يأتي فيصلي فيه ، وقد اشتهر باسم « مسجد الضرار » وقد نزل القرآن بشهيرهم وفضيحتهم على رموس الأَشهاد كما قال تعالى ﴿ والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً

وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حاربَ اللهَ ورسوله من قبلُ ،
وليحلفنَّ إن أردنا إلا الحُسنى واللهُ يشهدُ إنهم لكاذبون . لا تقم فيه
أبداً لمسجدٍ أُسِّسَ على التقوى من أولِ يومٍ أحقُّ أن تقومَ فيه ، فيه
رجال يحبون أن يتطهروا ، والله يحب المطهرين ﴿ ولم يكذ النبي
ﷺ يتلقى الوحي حتى قال لأصحابه « إنطلقوا إلى هذا المسجد الظالمِ
أهله فاهدموه وحرِّقوه » فذهبوا وهدموه وكفى الله الإسلامَ شرهم .

(١٠) سُورَةُ يُونُسَ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا تَسْعَ وَمِائَةٌ

سورة يونس من السور المكية التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية ،
وتتناول جانب التربية الروحية من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ،
والكتب المنزلة ، والرسل الذين بعثهم الله تعالى لهداية الإنسانية إلى
آخر ما هنالك من أصول الإيمان ، فهي كسائر السور المكية تتميز
بطابع خاص هو « العقيدة » في مفهومها الواسع ، وتتناول الجوانب
الأخرى من إثبات الوحي ، والنبوة ، وإثبات البعث والجزاء ، كما
أن السور المدنية تتميز بطابع التشريع والتوجيه العام إلى مكالم الأخلاق .
نزلت هذه السورة الكريمة بعد سورة الإسراء ، وقد تحدثت في البدء
عن حقيقة الألوهية والعبودية ، وأساس الصلة بين الخالق والمخلوق ،
وعرّفت الناس بربهم الحق الذي ينبغي أن يدينوا له ويعبدوه ، ويتبعوا
أمره وشرعه ، ويُسلموا وجوههم إليه ، وأن يرجعوا بفطرتهم إلى
الله ، فهو وحده الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المدبّر الحكيم ،
الفعال لما يريد ، وكل ما سوى الله فإنما هو باطلٌ وهباءٌ تذروه الرياح
﴿ إِنَّ رَبَّكُمْ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى
عَلَى الْعَرْشِ يَدبِّرُ الْأَمْرَ ، مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ
فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ ﴾ وتناولت السورة موقف المشركين من
حقيقة الرسالة والوحي ، ومن القرآن نفسه حيث شكّوا فيه ، وطلبوا من
الرسول خارقة مادية غير القرآن ﴿ وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ

الذين لا يرجون لقاءنا إئتِ بقرآنٍ غير هذا أو بدلْهُ قل ما يكونُ لي أن
أبدلْهُ من تلقاءِ نفسي إن أتبعُ إلا ما يوحى إليّ إني أخافُ إن عصيتُ
ربي عذابَ يومٍ عظيمٍ ﴿١﴾ ثم تناولت القرآن الكريم وبيّنت أنه ما كان
لُيفترى من دون الله ، وأنه آية هذا الدين ، والمعجزة الخالدة للنبي
الأمي ، وهو يحمل برهانه في تفرد المعجز ، حيث تحداهم به ولم
يستطيعوا أن يقفوا أمام هذا التحدي مع أنهم أساطينُ الفصاحة ،
وأمرأء البيان ﴿٢﴾ وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ، ولكن
تصديقَ الذي بين يديه ، وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين .
أم يقولون اقترأه قل فأتوا بسورةٍ مثله وادعوا من استطعتم من دون
الله إن كنتم صادقين ﴿٣﴾ ثم انتقلت الآيات إلى تعريف الناس بربهم الحق ،
وتعريفهم حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية ، وقرّرت لهم صفات الإله
الحق بذكر آثار قدرته الدالة على التدبير الحكيم ، ولفتت الأنظار إلى
تعاقب الليل والنهار ، وما في هذا الكون البديع من آثار القدرة الباهرة ،
التي هي أوضح برهان على عظمة الله وسلطانه وجلاله ﴿٤﴾ قل من يرزقكم
من السماء والأرض ؟ أم من يملكُ السمع والأبصار ؟ ومن يُخرج الحيَّ
من الميت ويُخرج الميت من الحي ؟ ومن يدبّرُ الأمر ؟ فسيقولون الله ،
فقل أفلا تتقون ؟ فذلكمُ الله ربكمُ الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال
فأني تُصرفون ﴿٥﴾ وهذه هي القضية الأساسية الكبرى في السور المكيّة ،
حيث يدور المحور فيها على موضوع « قضية الربوبية » والإيمان
بالوحدانية التي عرضت السورة الكريمة لها بشتى الأدلة العقلية والسمعية ،
واستغرق الحديث عنها الجانب الأكبر من هذه السورة . استمع إلى
قوله تعالى ﴿٦﴾ إنَّ في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السموات
والأرض لآياتٍ لقوم يتقون ﴿٧﴾ وإلى قوله تعالى ﴿٨﴾ قل هل من شركائكم
من يبدئُ الخلق ثم يعيده ؟ قل الله يبدئُ الخلق ثم يعيده فأني توفكون ﴿٩﴾

وإلى قوله ﴿هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصراً إن في ذلك لآياتٍ لقوم يسمعون﴾ .

وقد تحدثت السورة بعد ذلك عن قصص بعض الأنبياء ، فتناولت رسالة نوح ، ورسالة موسى وهارون عليهما السلام ، وموقف فرعون الطاغية منهما ، وما كان من بغيه وعدوانه على بني إسرائيل حتى أهلكه وجنّده بالغرق في البحر ونجّى المؤمنين ﴿وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتبعهم فرعون وجنوده بغياً وعدواً..﴾ وذكر آيات أن فرعون آمن حيث لا ينفع الإيمان ، وتاب وأناب إلى الله حيث لا ينفع الندم والتوبة ، وأن الله تعالى نجّى بدنه بعد الغرق ليكون عبرة للمعتبرين ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنت أنه لا إله إلا الذي آمنت به بنو إسرائيل وأنا من المسلمين﴾ وقد جاءه الجواب المفحّم الزاجر ﴿آلآن وقد عصيت قبل وكنت من المفسدين . فاليوم ننجيكَ بيدك لتكون لمن خلّفت آية ، وإن كثيراً من الناس عن آياتنا الغافلون﴾ .

وتناولت السورة كذلك قصة نبي الله يونس عليه السلام - الذي سميت السورة باسمه - توضيحاً لسنة الله الكونية في إهلاك الظالمين ، وأن العذاب إذا نزل لا يرفع ، وأنه لا ينفع حيثئذ توبة ولا إيمان إلا ما خصّ الله به قوم يونس ﴿فلولا كانت قرية آمنت فنفعها إيمانها إلا قوم يونس لما آمنوا كشفنا عنهم عذاب الخزي في الحياة الدنيا ومتعناهم إلى حين﴾ ثم ختمت السورة الكريمة بأمر الرسول الأعظم ﷺ بالاستمسك بشريعة الله ، وإعلان دعوة التوحيد ، والصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى يأتي الفرج ﴿واتبع ما يوحى إليك واصبر حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين﴾ .

(١١) سُورَةُ هُودٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَلَاثٌ وَعِشْرُونَ وَمِائَةً

سورة هود من السور المكية التي عرضت لقصاص الأنبياء بالتفصيل ،
وشأنها كشأن سائر المكِّي : تقرير أصول الدين ، وإقامة الأدلة والبراهين
على وجود الله ووحْدانيته وردُّ الشُّبه التي كان يثيرها المعارضون حول
الوحي والرسالة ونبوة محمد عليه السلام . نزلت هذه السورة بعد
يونس وفي الفترة العصيبة التي كان يعيشها عليه الصلاة والسلام بعد
وفاة عمه « أبي طالب » وزوجه « خديجة بنت خويلد » والتي اشتد
فيها أذى المشركين على الرسول ﷺ وعلى أصحابه ، وبلغت الحرب
المعلنة عليه وعلى دعوته أقصى وأقصى مداها . قال ابن اسحاق : ثم
إن خديجة وأبا طالب هلكا في عام واحد ، فتتابعت على رسول الله
ﷺ المصائب بموت خديجة وكانت له وزير صدق على الإسلام يشكو
إليها ، وبهلاك عمه أبي طالب وكان له عضداً وحرزاً ، ومنعةً وناصرأً
على قومه ، وذلك قبل مهاجره إلى المدينة بثلاث سنين ، فلما هلك
أبو طالب نالت قريش من رسول الله ﷺ من الأذى ما لم تكن تطمع
به في حياة أبي طالب حتى اعترضه سفيه من سفهاء قريش فنثر على
رأسه التراب ، فدخل بيته والتراب على رأسه فقامت إليه إحدى بناته
فجعلت تغسل عنه التراب وهي تبكي ورسول الله ﷺ يقول لها :
لا تبكي يا بنية فإن الله مانع أباك . في هذه الفترة العصيبة نزلت سورة
هود ، وفيها قصص الأنبياء تسليةً للنبي ﷺ بما حدث لإخوانه الرسل

من أنواع الابتلاء ، وتأسياً بهم في الصبر والثبات ، والثقة واليقين وهم يتلقون الإغراض والتكذيب ، والسخرية والاستهزاء ، والتهديد والإيذاء ، بدأت السورة بذكر الكتاب المجيد ، الذي أحكمت آياته فلا يتطرق إليه خلل ولا تناقض ، لأنه تنزيل الحكيم الذي لا يضل ، الخير الذي لا تخفى عليه خافية من مصالح العباد ، فقد فصل لهم الحلال والحرام ، وبين لهم الأحكام التي يحتاجون إليها في حياتهم الدنيا ﴿الر . كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير . ألا تعبدوا إلا الله إني لكم منه نذير وبشير﴾ ثم عرضت السورة الكريمة لعناصر الدعوة الإسلامية وهي ﴿التوحيد ، والرسالة ، والبعث﴾ عن طريق الحجج العقلية مع الموازنة بين الفريقين : فريق الهدى ، وفريق الضلال ، وبين النفوس المستعدة للإيمان ، والنفوس النافرة منه ، وضربت مثلاً للفريقين يتضح بهما الفارق الكبير بين الهدى والضلال ، كما تفرق الشمس بين الظلمات والنور ، وبين الأعمى والبصير ﴿مثلُ الفريقين كالأعمى والأصم ، والبصير والسميع هل يستويان مثلاً أفلا تذكرون﴾ ؟ ثم أخذت تتحدث بالإسهاب عن دعوة الرسل الكرام ، تسلياً للنبي عليه السلام ، وبياناً لوحدة الدعوة الإلهية ، وإنذاراً للمكذبين ، فهذه الدعوة التي جاء بها محمد ﷺ ليست دعوة مبتدعة وإنما هي دعوة جاء بها الرسل الكرام ، لقد جاء بها من قبل نوح وهود وصالح وشعيب وموسى وغيرهم من الرسل ، وبدأت بقصة نوح عليه السلام لأنه الأب الثاني للبشر ، وهو أطول الأنبياء عمراً ، وأكثرهم بلاءً وصبراً ، فقد مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً وهو يدعوهم إلى الله ، ومع طول هذه المدة لم يؤمن معه إلا نفر قليل ، وقد أوغل قومه في التكذيب والسخرية والعناد وهو صابر لأمر الله ، حتى كان الطوفان الذي عم البشرية ولم ينج إلا نوح والمؤمنون الذين

ركبوا معه في السفينة ﴿وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومُرساها
 إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وهي تجري بهم في موج كالجبال ونادى نوحُ
 ابنه وكان في معزل يا بُنَيَّ اركب معنا ولا تكن مع الكافرين قال سآوي
 إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من
 رَحِمَ وحال بينهما الموج فكان من المُغرقين ﴿وهكذا كان مشهدُ
 الطوفان الذي غمر الأرض وتمَّ وعدُ الله بهلاك المكذبين ، ونجاة
 المؤمنين . ثم تتابعت الآيات تذكر قصة « هود » عليه السلام الذي
 سميت السورة الكريمة باسمه ، وأنه تعالى بعثه إلى قوم عاد أولئك العاتون
 المتجبرون ، الذي اغتروا بقوة أجسامهم فكان هلاكهم بالريح الصرصر
 العاتية التي لم تدع شيئاً إلا دمرته ، وقد ذكرت الآيات الكريمة العبرة
 من قصة هود وخاتمة أمره مع قومه على حسب سنة الله في نصره
 أوليائه وخزي أعدائه « وتلك عادٌ جحدوا بآياتِ ربهم وعَصَوْا رسله
 واتبَعُوا أمرَ كلِّ جبارٍ عنيد . واتبَعُوا في هذه الدنيا لعنةً ويوم القيامة ،
 أَلَا إِنَّ عاداً كفَرُوا رَبَّهُمْ ، أَلَا بُعْدُ لَعَادٍ قَوْمِ هود » . وتتابعت الآيات
 الكريمة تذكر قصص الأنبياء ، فذكرت نبي الله « صالح » عليه السلام
 مع قومه ثمود ، الذين قابلوه بالعناد والجنود فأهلكهم الله بالصيحة
 بعد أن أقدموا على عقر الناقة « فلما جاء أمرنا نجينا صالحاً والذين
 آمنوا معه برحمةٍ منا ومن خزيٍ يَوْمئِذٍ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ
 وَأَخَذَ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةَ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جاثمين . كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا
 فيها أَلَا إِنَّ ثمودَ كفَرُوا رَبَّهُمْ أَلَا بُعْدُ لَثمود » ثم تلتها قصة لوط ثم
 قصة شعيب ثم قصة موسى وهارون عليهم أفضلُ الصلاة والتسليم
 وجاء التعقيبُ المباشر بما في هذه القصص من العبر والعظات في إهلاك
 الله للظالمين « ذلك من أنباء القرى نقصه عليك منها قائمٌ وحصيد .
 وما ظلمناهم ولكن ظلموا أنفسهم فما أغنت عنهم آلهم التي يدعون

من دون الله من شيء لما جاء أمر ربك ، وما زادوهم غير تنبيـب . وكذلك
 أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذهم شديد « وختمت السورة
 بتوجيه الخطاب للرسول الأعظم ﷺ بالاستقامة على شريعة الله ،
 والمثابرة على الدعوة ، والصبر على تحمل الأذى في سبيل الله حتى
 يحكم الله بينه وبين أعدائه « فاستقم كما أمرت ومن تاب معك ولا
 تطغوا إنه بما تعملون بصير » ثم أعقبها ببيان الحكمة من ذكر أخبار
 الأنبياء ألا وهو تثبيت قلب النبي ﷺ أمام تلك الشدائد والأهوال
 ﴿ وكلاً نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ، وجاءك
 في هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين . وقل للذين لا يؤمنون اعملوا
 على مكانتكم إنا عاملون وانتظروا إنا منتظرون . والله غيب السموات
 والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبدوه وتوكل عليه وما ربك بغافل
 عما تعملون » وهكذا تختم السورة الكريمة بمثل ما بدأت به من التوحيد
 والتوبة والإنابة والرجعة الى الله تعالى في نهاية المطاف .

(١٢) سُورَةُ يُوسُفَ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْخَلَاءُ عَمِيرَةٌ وَمَارَاتٌ

بين يدي السورة : سورة يوسف إحدى السور المكية ، التي تناولت أهداف السور المكية ومن ضمنها « قصص الأنبياء » وقد جاءت السورة مفصلة قصة « يوسف الصديق » وما لاقاه من إخوته من ضروب المحن والشدائد ، ولهذا سميت بسورة يوسف ، والمقصود بها تسلية النبي ﷺ بما لاقاه من أذى القريب والبعيد .

والسورة الكريمة أسلوبٌ فذٌ فريد ، في ألفاظها ، وتعبيرها ، وتركيبها ، وقصصها الممتع اللطيف ، تسري مع النفس سريان الدم في العروق ، وتجري - برقتها وسلاستها - في القلب جريان الروح في الجسد ، فهي وإن كانت من السور المكية التي تحمل - في الغالب - طابع الإنذار والتهديد ، إلا أنها اختلفت عنها في هذا الميدان ، فجاءت نديةً طرية ، في أسلوبٍ سلسٍ ممتع ، لطيفٍ رقيق ، يحمل جوَّ الأنس والرحمة ، والرأفة والحنان ، ولهذا قال خالد بن معدان : « سورة يوسف ومريم مما يتفكه بهما أهل الجنة في الجنة » وقال عطاء : « لا يسمع سورة يوسف محزونٌ إلا استراح إليها » . نزلت هذه السورة الكريمة على رسول ﷺ بعد سورة « هود » في تلك الفترة الحرجة العصيبة من حياة الرسول الأعظم ﷺ .. حيث توالى الشدائد والنكبات ، على الرسول وعلى المؤمنين ، واشتد عليهم اذى المشركين ، وبوجهٍ خاص عندما فقد عليه الصلاة والسلام نصيره : زوجه الطاهرة

الحنون « خديجة التي كانت كثيراً ما تخفف عنه الآلام والأحزان ، وتشجعه وتصبره ، وفقد فيه عمه الشهم المناضل « أبا طالب » الذي كان يناصره ويدافع عنه ، وكان له خير معين ، وخير نصير ، مع أنه لم يدخل في الإسلام ، ولكنه كان يعتقد بصدق ابن أخيه فكان يدفع الأذى عنه بكل ما أوتي من قوة .. وبموتها اشتد الأذى والبلاء على رسول الله ﷺ حتى عُرف ذلك العام بعام الحزن ، قال المقرئ في إمتاع الأسماع : « فعظمت المصيبة على رسول الله ﷺ بموتها ، وسمّاه عليه السلام « عام الحزن » وقال : « ما نالت قريش مني شيئاً أكرهه حتى مات أبو طالب » لأنه لم يكن في عشيرته وأعمامه حامياً ولا ذاباً عنه غيره .

في تلك الفترة العصيبة من حياة الرسول الكريم ، وفي ذلك الوقت الذي كان يعاني فيه عليه السلام الوحشة ، والغربة ، والانقطاع في جاهلية قريش ، وتعاني معه الجماعة المسلمة هذه الشدة ، كان الله سبحانه ينزل على نبيه الكريم هذه السورة الكريمة ، تسلياً له ، وتخفيفاً لآلامه بذكر قصص المرسلين ، وما تحملوه في سبيل تبليغ دعوة الله ، حتى يصبر كما صبروا « فاصبر كما صبر أو لو العزم من الرسل » . وكأن الله سبحانه وتعالى يقول لنبيه الكريم : لا تحزن يا محمد لتكذيب قومك وإيذائهم لك ، فإن بعد الشدة فرجاً ، وإن بعد الضيق مخرجاً ، بد أن يأتي اليسر بعد العسر والفرج بعد تلك الشدائد والأهوال .. انظر إلى أخيك « يوسف » وتمعن بما حدث له من صنوف المحن ، وما جرى له من ألوان المكاره والابتلاء : محنة حسد أخوته له ، ومحنة كيد إخوته له ، ومحنة رميه في الجب ، ومحنة الرق وهو يتنقل كالسلعة من يد إلى يد ، ومحنة كيد امرأة العزيز بالمرادة والإغراء ، ومحنة السجن بعد رغد العيش .. إلى غير ذلك مما لاقاه من المحن

والكوارث والنكبات ، كيف أنه لما صبر على الأذى في سبيل الله ، نقله الله من السجن إلى القصر ، وجعله عزيزاً في أرض مصر ، فكان هو السيد المطاع ، والعزيز المكرّم .. وهكذا أفعل بأوليائي ، ومن صبر على بلائي ، فلا بدّ أن يكون لك به أسوة ، وبأمثاله من الأنبياء والمرسلين قدوة « أولئك الذين هداهم الله فبهداهم اقتده .. » . وهكذا جاءت « قصة يوسف » في هذه السورة الكريمة ، فيها عبرٌ وعظات ، ودروسٌ حافلات بروائع الأخبار المثيرة ، والأنباء العجيبة ﴿ لقد كان في قصصهم عبرةٌ لأولي الألباب ، ما كان حديثاً يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ﴾ وهكذا تتوالى النكبات إثر النكبات على الأنبياء والمرسلين ، والدعاة المخلصين ، ولكن لا بدّ من الفرج بعد الضيق ، والنصرة بعد الشدة ﴿ إنا لتنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد ﴾ . هذا هو جو السورة وهذه إيحاءاتها .. تبشّر بقرب النصر لمن سار على طريق الأنبياء والمرسلين ، وقد جرت عادة القرآن بتكرير القصص في مواطن متعددة من الكتاب العزيز ، بقصد العظة والعبرة ، ولكن بإيجازٍ دون توسع ، وفي كل موطنٍ يُذكر فيه جانبٌ من جوانب القصة ، لاستكمال جميع حلقاتها ، وأما سورة يوسف فقد جاءت هنا بإسهاب وإطناب ، لأن فيها عظاتٍ بليغة ، وحِكماً جليلة ، وأسراراً عميقة « لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد » ولم تكرر في كثير من السور كعادة قصص الأنبياء ، لتشير إلى « إعجاز القرآن » في الإيجاز والإطناب ، والمكرر وغير المكرر ، فسبحان الملك العلّام !

قال القرطبي : ذكر الله أفاصيص الأنبياء في القرآن ، وكررها بمعنى واحد في وجوهٍ مختلفة ، بألفاظٍ متباينة على درجات البلاغة ، وقد ذكر قصة يوسف ولم يكررها ، فلم يقدر مخالف على معارضة ما

تكرر ، ولا على معارضة غير المتكرر ، والإعجاز لمن تأمل . عصمة يوسف الصديق : ولا بد لنا هنا من وقفة قصيرة حول ما نسب إلى هذا النبي الكريم « يوسف الصديق » وما قيل عنه من أقوال لا تليق بمقام الأنبياء فضلاً عن مقام الأنبياء فنقول ومن الله نستمد العون والتوفيق : لقد شطَّ القلم وزلَّ القَدَمُ ببعض المفسرين عند قول الله تبارك وتعالى في سورة يوسف « ولقد همَّتْ به وهمَّ بها لولا أن رأى برهانَ ربه » حين زعموا أن يوسف عليه السلام قد همَّ بمقارفة فاحشة الزنى ، وشُحنت بعض كتب التفسير بكثير من الروايات الإسرائيلية الواهية ، بل المنكرة الباطلة في تفسير « الهمَّ » والبرهان ، حتى زعم بعضهم أن يوسف عليه السلام لما راودته امرأة العزيز رضخ إليها وحلَّ رباط سرِّه وواله وجلس منها مجلس الرجل من امرأته ، وهمَّ بمقارفة الفاحشة معها ثم رأى صورة أبيه « يعقوب » عليه السلام على جدار الغرفة عاضاً على أصبعه بفمه ، فقام عنها خجلاً وحياءً ، إلى غير ما هنالك من أقوالٍ واهية ، ورواياتٍ باطلة ، لازِمًا لها ولا خِطَام . ولست أدري كيف سرت تلك الروايات المنكرة إلى بعض كتب التفسير ، وتقبَّلها بعضهم بقبولٍ حسنٍ وكلَّها كما يقول العلامة - أبو السعود - في تفسيره خرافات وأباطيل ، تمجَّها الآذان وتردُّها العقول والأذهان ! ثم كيف غاب عن أولئك المفسرين أن يوسف عليه السلام نبيُّ كريم ، ابن نبيِّ كريم اصطفاه الله لرسالته ، واختاره لهداية خلقه ، وأثنى عليه بقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ فهل يكون مُخْلِصًا لله من همِّه بالفاحشة وعزم على معصية رب العالمين ؟ وكيف غاب عن هؤلاء أن « العِصْمَةَ » من صفات الأنبياء ، وأن الله تقدست أسماؤه لا يختار لهذا المنصب الجليل . إلَّا أكرم خلقه وأفضل وأشرف عباده ؟ ! يا قوم تفكروا وتدبروا ونزَّهوا هذه الكتب عن أمثال هذه الأساطير والأباطيل ، إن

الزنى جريمة من أشنع الجرائم وأقبح الرذائل حرّمتها الشرائع السماوية فكيف يرتكبها بني من الأنبياء أو يهيم بها تقي من الأنقياء؟ وهاكم الأدلة أذكرها باختصار وأسوقها من كتاب الله عز وجل فقط من عشرة وجوه وكلها صريحة في كمال عفته ونزاهته . الوجه الأول : امتناع يوسف عليه السلام عن مطاوعتها حين دعته إلى نفسها ، ووقوفه في وجهها بكل صلابة وعزم ﴿ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ ! قَالَ مُعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ إِنَّهُ لَا يَفْلَحُ الظَّالِمُونَ ﴾ . الوجه الثاني : فراره منها بعد أن أحكمت إغلاق الأبواب ، وحاصرته وضيق عليه الخناق ، ولو همّ بها لما فرّ منها لأن الذي يريد الاستمتاع يُقدّم ولا يفر ﴿ واستبقا الباب وَقَدَّتْ قَمِيصَهُ مِنْ دُبُرٍ وَأَلْفَا سَيِّدَهَا لَدَى الْبَابِ قَالَتْ مَا جِزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءًا إِلَّا أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ قال العلماء : هذا من اختصار القرآن المعجز فإنها لما راودته عن نفسه وأبى عليها عزمت على أن تقضي منه وطرها بالعسر والإكراه فهرب منها فتسابقا نحو الباب فأدركته قبل أن يخرج وشقّت ثوبه من خلفه ، فاختصر القرآن ذلك كله بتلك العبارة الموجزة ﴿ واستبقا الباب ﴾ الوجه الثالث : تفضيله عليه السلام السجن على الفاحشة ، وهذا من أعظم الدلائل والبراهين على براءته وعفته ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونِي إِلَيْهِ ﴾ فكيف يختار السجن من همّ بالفاحشة؟ الوجه الرابع : ثناء الله تعالى عليه في عدة مواطن من السورة الكريمة منها قوله ﴿ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾ وقوله ﴿ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ وقوله ﴿ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ ﴾ قال العلامة أبو السعود : هذه آية بيّنة وحيّة قاطعة ، على أنه عليه السلام لم يقع منه همّ بالمعصية ولا ترجّد إليها قطّ وإلا لقل : كذلك لنصرفه عن السوء والفحشاء فلما قال تعالى ﴿ لنصرف عنه السوء والفحشاء ﴾ تبين أن ذلك من خارج

فصرفه الله تعالى عنه بما فيه من موجبات العفة والعصمة . الوجه الخامس : شهادة الطفل الذي أنطقه الله - وكان في المهدي - لتبرئة يوسف الصديق ، وهو أحد الثلاثة الذين تكلموا بالمهدي وقد جاء بالحجة الدامغة والبرهان الساطع ﴿ وشهد شاهدٌ من أهلها إن كان قميصه - أي ثوبه - قد من قبل - أي شق من الأمام - فصَدَقَ وهو من الكاذبين . وإن كان قميصه قد من دُبُر فكذبت وهو من الصادقين فلما رأى قميصه قد من دُبُر قال إنه من كيدكن إن كيدكن عظيم ﴾

الوجه السادس : الاعتراف الصريح الواضح من النسوة بعفته وبرأته ﴿ قال ما خطبكن إذ راودتن يوسف عن نفسه ؟ قلن حاش لله ما علمنا عليه من سوء .. ﴾ الوجه السابع : اعتراف امرأة العزيز نفسها على أنها هي التي راودته وأنه أُمي واستعصم ﴿ قالت امرأة العزيز الآن حَصَّصَ الحق - أي ظهرو بان - أنا راودته عن نفسه وإنه لمن الصادقين ﴾ وقولها أيضاً ﴿ ولقد راودته عن نفسه فاستعصم ﴾ .

الوجه الثامن : تضرع يوسف الصديق واستغاثته بربه لينجيه من كيدهن ﴿ فاستجاب له ربه فصرف عنه كيدهن إنه هو السميع العليم ﴾ الوجه التاسع : ظهور جميع الأمارات الواضحة والبراهين الساطعة لدى عزيز مصر وحاشيته على براءته عليه السلام ﴿ ثم بدا لهم من بعد ما رأوا الآيات ليسجننه حتى حين ﴾ الوجه العاشر : عدم قبول يوسف عليه السلام الخروج من السجن حتى تبرأ ساحتَه من التهمة ﴿ فلما جاءه الرسول قال ارجع إلى ربك فاسأله ما بال النسوة اللاتي قطعن أيديهن إن ربي بكيدهن عليم ﴾ هذه عشرة وجوه اقتبسناها من كتاب الله عز وجل وكلها صريحة في عصمة يوسف ونزاهته ، والله يقول الحق ويهدي السبيل وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

(١٣) سُورَةُ الرَّعْدِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَلَاثٌ وَأَرْبَعُونَ

سورة الرعد من السور المكية التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، ودفع بعض الشبهات التي يثيرها المشركون حول الوحي والرسالة ، والبعث والنشور ، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين جل وعلا . سميت هذه السورة بسورة الرعد ، لتلك الظاهرة الكونية العجيبة ، التي هي أثرٌ من آثار قدرة الله العليّ القدير ، في الخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والتدمير والتدمير ، وفي هذه الظواهر الكونية تتجلى قدرة الله وسلطانه ، ورحمته وانتقامه ، وعظمته وجلاله ، فأنزل الله الذي جعل الماء سبباً للحياة ، وأنزله بقدرته من السحب الكثيفة مدراراً ، قرنَ هذا السحابَ بالبرق والرعد والصواعق ، وفي الماء الإحياء ، وفي الصواعق الإفناء ، وفي البرق والرعد الهلع والجزع ، وكلُّها أمورٌ كونيةٌ عجيبة ، جمع الله فيها بين المتضادّ التي يعجز عنها البشر ، فالماء يطفئ النار ، ومع ذلك فقد جعل الله في السحاب الرحمة والعذاب ، فهو يحمل المطرَ ، والبرق ، والرعد ، والصواعق والله در القائل حيث يقول :

جَمْعُ النِّفْيِضِينَ مِنْ أَسْرَارِ قُدْرَتِهِ : هذا السحابُ به ماءٌ به نارُ فمن حيث ينتظر الإنسان الرحمة يأتيه العذاب ، ومن حيث يخشى الهلاك تأتيه الحياة ، ﴿ هو الذي يريكم البرقَ خوفاً وطمَعاً ، ويُنبِئُ

السحاب الثقال . ويسبح الرعد بحمده ، والملائكة من خيفته ، ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديد المحال ﴿ . وفي ذلك عبرة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد . بدأت السورة الكريمة بالقضية الأساسية للعقيدة الإسلامية وهي « قضية الوحي » الذي رافق نزول هذا الكتاب ، فمع سطوع الحق ووضوحه ، ومع بيانه القاطع الذي لا يحتمل الشك أو التردد ، أنكر أكثر الناس وكذبوا ، وجحدوا وعاندوا « تلك آيات الكتاب ، والذي أنزل إليك من ربك الحق ولكن أكثر الناس لا يؤمنون » . ثم استعرضت السورة آيات القدرة ، وعجائب الكون ، الدالة على قدرة الخالق المدبر الحكيم ، في السماء والأرض ، والشمس والقمر . والليل والنهار ، والزرع والثمار ، وفي الأنهار والبحار ، وسائر ما خلق الله في آفاق الكون الفسيح ﴿ الله الذي رفع السموات بغير عمد ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ، يدبر الأمر ينصل الآيات ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون ﴿ ومن العالم العلوي إلى العالم السفلي يذكرنا الله بعظيم قدرته ، وباهر صنعته ، فهو الذي منح الوجود الحياة ، وأضفى على الكون من آلائه التي لا تُحصى ، ونعمه الجليلة التي بها دوام هذه الحياة ، بما شق فيها من أنهار ، وأخرج فيها من ثمار « يستقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل ، إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون » وإذا كان هناك ما يدعو للعجب ، فليعجب الإنسان من ذلك الكافر الجاحد لربه ، المكذب بالبعث بعد الموت ، وهو يرى الشمس تشرق وتغرب ، والشجر يكسئ ثم يعرى ، والأرض هامدة فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزت وربت ، ثم هو ينكر البعث والنشور ﴿ وإن تعجب فعجب قولهم أنذا كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في

أعناقهم ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون ﴿١٠٠﴾ .
والذي خلق هذا الكون الضخم ، ودبره على هذا النحو الدقيق ،
قادرٌ على إعادة البشر بعد موتهم ، فهو الذي أحاط علمه بكل ذرة
في الكائنات ، حتى الهمسات واللمسات ، والأجنة في بطون الأمهات ،
سواءً منها ما كان ظاهراً جلياً ، أو سِقْطاً خفياً لم يستكمل بعد تمام
الحياة ﴿١٠١﴾ الله يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام وما تزداد ،
وكل شيء عنده بمقدار ، عالم الغيب والشهادة الكبير المتعال ﴿١٠٢﴾ .
ومن العلم الشامل الكامل ، الناطق بعظمة الله ووحدانيته ، إلى البراهين
الساطعة ، والأدلة القاطعة ، على انفراد الله جلّ وعلا بالخلق والإيجاد ،
والإحياء والإماتة ، والنفع والضرر ، دون ما سواه من الآلهة المزعومة
﴿١٠٣﴾ قل من رب السموات والأرض ؟ قل الله ؟ قل أفأخذتم من دونه
أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرراً ؟ قل هل يستوي الأعمى
والبصير ، أم هل تستوي الظلمات والنور ؟ أم جعلوا لله شركاء خلقوا
كخلقه فتشابه الخلق عليهم ؟ قل الله خالق كل شيء وهو الواحد القهار ﴿١٠٤﴾
ثم يمضي السياق يضرب مثلين للحق والباطل ، أحدهما في الماء ينزل
من السماء ، فتسيل به الأودية والشعاب ، وهو يجرف في طريقه الغناء ،
فيطفو على وجهه في صورة الزبد ، والزبد مرتفعٌ منتفخٌ ولكنه بعد
غشاء ، والثاني في المعادن التي تذاب لتصاغ منها الحلية كالذهب والفضة ،
أو الأواني كالحديد والنحاس ، فإنَّ الخبث يطفو حتى ليحجب المعدن
الأصيل ، ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب ويبقى المعدن في نقاء . ذلك مثل الحق
والباطل في هذه الحياة ، فالباطل يزهو ويعلو وينتفخ ، ويبدو رايياً
طافياً ولكنه بعدُ زبدٌ أو خبثٌ ، ما يلبث أن يذهب جفاءً ، والحق
يظل هادئاً ساكناً ، وربما يحسبه البعض قد انزوى أو غار ، أو تلاشى
وذهب ، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحي للنفوس ، والمعدن

الثابت بعد الانصهار يبقى صافياً نقياً ﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً يقدرها ، فاحتمل السيلُ زبدًا رابياً ، وتما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله ، كذلك يضرب الله الحق والباطل ، فأما الزبد فيذهب جفاءً ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ، كذلك يضربُ الله الأمثال﴾ وتتناول السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة ، وأوصاف أهل الشقاوة ، وتضرب لهم المثل بالأعمى والبصير ، ومآل كل من الفريقين في الآخرة ، فالمؤمنون هم السعداء ، والكافرون هم الأشقياء ، ثم تختتم السورة ببيان موقف الكافرين من أمر القرآن وأمر الوحي وإنكارهم لرسالة خاتم المرسلين ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلًا ، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومن عنده علم الكتاب﴾ .

(١٤) سُورَةُ إِبْرَاهِيمَ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا ثَنَانٌ وَمَحْسُوكٌ

سورة إبراهيم مكية وموضوعها الأساسي هو موضوع السور المكية ، وهدفها نفس هدف المكي وهو العقيدة في أصولها الكبيرة من الإيمان بالله واليوم الآخر ، والإيمان بالكتب والرسل ، والتركيز حول الوحي والرسالة ، وتقرير مبدأ الحساب والجزاء . سُميت هذه السورة الكريمة «سورة إبراهيم» تخليداً لماثر إبراهيم عليه السلام ، المبارك الأوَّاه ، الشاكر المنيب «أبو الأنبياء» الذي أخلص نفسه لله فاختاره الله لخلَّته وجعل في ذريته النبوة والكتاب ، وقد خصَّه تعالى بحماية جناب التوحيد ، واستجاب لتلك الدعوات الطيبة الطاهرة ، حين دعا بها لنفسه ولذريته بعد أن انتهى من بناء البيت العتيق «وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمناً واجنِّبني وبنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الأصنام . ربَّ إِنْهُمْ أَضَلُّنَّ كثيراً من الناس ، فمن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي ومن عصاني فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ» ولهذا سُميت هذه السورة بسورة إبراهيم .

بدأت السورة الكريمة ببيان وظيفة الرسول ، وبتمجيد هذا الكتاب المعجز الذي أنزله الله نوراً وهدى وشفاءً لما في الصدور «آلر . كتابٌ أنزلناه إِلَيْكَ لَتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ، وويلٌ للكافرين من عذاب شديد» ثم ذكرت حقيقة وحدة الرسالة السماوية التي بعث الله بها الأنبياء والمرسلين ، فرسالتهم واحدة ، ودعوتهم

واحدة ، وهدفهم واحد وهو تعريف الناس بالإله الحق ، خالق الكائنات ، ومنشئ العالم ، الذي أرسل الرسل بلغات أقوامهم ليبينوا لهم شريعة الله « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه - أي بلغة قومه - ليبين لهم فيضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم » وفي أثناء بيان هذه الحقيقة يذكر تعالى أن موسى قد أرسل بمثل ما أرسل به محمد ﷺ بياناً لوحد الرسالة ووحدة الهدف ، وهي إنقاذ البشرية من ظلمات الكفر والضلال ، وتذكيرهم بالله الواحد الأحد الذي تعون له الوجوه « ولقد أرسلنا موسى بآياتنا أن أخرج قومك من الظلمات إلى النور وذكرهم بأيام الله ، إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور » وإلى جانب وظيفة الرسول تحدثت السورة عن حقيقة الرسالة . وحقيقة الرسول البشرية وهي التي تحدّد وظيفته فهو إنسان يوحى إليه ، وهو مبلغ ومنذر عن الله ، وناصح وأمين ، ولقد كانت بشرية الرسل هي موضع الاعتراض من جميع الأقوام في شتى الأزمان والعصور ، فقد استبعدوا أن يبعث الله الرسل من البشر ولذلك كذبوهم وردّوا عليهم دعوتهم « قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدّونا عما كان يعبد آباؤنا فاتّونا بسلطان مبين . قالت لهم رسلهم إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » وينتقل الحديث من الكلام إلى البطش والانتقام وإلى تلك الحرب السافرة ضدّ رسل الله الكرام ﴿ وقال الذين كفروا لرسُلهم لنخرجنكم من أرضنا أو لنعوذن في ملتنا فأوحى إليهم ربهم لنهلكن الظالمين . ولنسكننكم الأرض من بعدهم ذلك لمن خاف مقامي وخاف وعيد ﴾ ويقف الطغاة المتجبرون بقوتهم الهزيلة الضئيلة في صف ، ويقف الرسل الداعون المتواضعون ومعهم قوة الله العظيمة في صف ، ويدعو كل من الفريقين

بالنصر والفتح وينكشف الأمر عن هلاك الظالمين « واستفسح وخاب
 كلُّ جبارٍ عنيد . من ورائه جهنمٌ ويُسقى من ماءٍ صديدٍ بتجرعه ولا
 يكادُ يسيغه ويأتيه الموتُ من كلِّ مكانٍ وما هو بميتٍ ، ومن ورائه
 عذابٌ غليظٌ . ثم يأتي المشهد المفزعُ في الآخرة حيث يلتقي القادة
 المتجبرون بالأتباع الضعفاء ، الذين ضلُّوا وأضلُّوا غيرهم من ضعفاء
 العقول ، بطريق الإغراء والإغواء ، ويقفون في ساحة الحساب وقد
 غشيهم الذلُّ والهوان ، ويستشفع الأتباع بالقادة الزعماء ، فلا يناهم
 من تلك الشفاعة إلا الحسرة والندم « وبرزوا لله جميعاً فقال الضعفاءُ
 للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله
 من شيء ؟ قالوا لو هدانا الله لهديناكم سواء علينا أجزعنا أم صبرنا
 ما لنا من محيص » وتنتقل الآياتُ إلى مشهدٍ آخر في القيامة حيث يصح
 الناس فريقين « فريقٌ في الجنة وفريقٌ في السعير » ويتلظى الكفار بهبِ
 النار ، ويلتفتون إلى الشيطان الذي زين لهم الكفر وأغراهم بالنعصيان .
 فيها لون عليه باللعنة والشتائم ، وهناك يرى الإنسان عجباً ، يرى
 الشيطان وقد ظهر لهم على المسرح يلبس مسوح الكهان ويخطبُ في
 أتباعه الغاوين خطبته الشهيرة « وقال الشيطانُ لما قُضي الأمرُ إن الله
 وعدكم وعدَ الحقِّ ، ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من
 سلطانٍ إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ،
 ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي » - أي ما أنا بمغيثكم من عذاب الله
 وما أنتم بمنقذي - إني كفرتُ بما أشركتموني من قبل ، إن الظالمين لهم
 عذابٌ أليمٌ » ثم تنتقل الآيات إلى الحديث عن كفار مكة الذين بطروا
 النعمة وكفروا بآيات الله فاستحقوا الهلاك والدمار « ألم تر إلى الذين
 بدلوا نعمة الله كفراً وأحلُّوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها ويئس
 القرار » وتختتم السورة الكريمة ببيان نهاية المجرمين يوم الدين ، حيث

تلفح وجوههم النار وهم في السلاسل والأغلال وقد لاقوا جزاءهم
العادل « وترى المجرمين يومئذٍ مُقَرَّنِينَ فِي الْأَصْفَادِ . سرابيلهم من
قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وجوههم النار . ليجزي الله كل نفسٍ ما كسبت إنَّ
الله سريع الحساب » وتنتهي السورة الكريمة بالتحذير والإنذار كما
بدأت بالدعوة والتذكير « هذا بلاغٌ للناسِ ولِيُنذَرُوا بِهِ ، وليعلموا
أنما هو إلهٌ واحدٌ ، وليذكَّروا أولوا الألباب . »

(١٥) سُورَةُ الْحَجَرِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا تَنْسَعُ وَتَنْسَعُونَ

سُورَةُ الْحَجَرِ من السور المكية التي استهدفت المقاصد الأساسية لأركان الدعوة الإسلامية من تقرير الوحي والرسالة ، وتقرير البعث والجزاء ، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية ربِّ العالمين جلَّ وعلا . ومحور هذه السورة يدور حول إبراز المصير المشؤم الذي ينتظر أهل الجحود والضلال ، وأهل الكفر والعناد من المكذبين الكافرين ، ولذلك جاء التعقيب المباشر بعد ذكر قصص الأنبياء بما حلَّ بأقوامهم من النكال والدمار نتيجةً لتكذيبهم رسلَ الله . سُميت هذه السورة - سورة الحجر - لأن الله تبارك وتعالى ذكر ما حدث لقوم صالح وهم قبيلة ثمود - وديارهم في الحجر بين المدينة والشام - وكانوا ينحتون الجبال بيده ، يسكنون فيها وكانهم مخلّدون في هذه الحياة ، لا ينالهم تعب ولا نصب ، ولا يُفرّقهم موت ولا فناء ، آمنون مطمئنون حتّى جاءتهم صيحة العذاب وهم في غفلتهم ساهون ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون ، فقد جاءهم العذاب في وقت الصباح ، وهم في البيوت الحصينة في صُلب الجبال ، وفي جوف الصخر المتين . وفي ذلك يقول القرآن الكريم « ولقد كذب أصحاب الحجر المرسلين وآتيناهم آياتنا فكانوا عنها معرضين . وكانوا ينحتون من الجبال بيوتاً آمنين . فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ مُصْبِحِينَ . فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

ابتدأت هذه السورة الكريمة بالسار والتهديد ، ملفعاً بظلي من التهويل

والوعيد « آله . تلك آيات الكتاب وقرآن مبين . ربمّا يؤدّ الذين كفروا لو كانوا مسلمين . ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ويلههم الأمل فسوف يعلمون . وما أهلكنا من قرية إلا ولها كتاب معلوم . ما تسبق من أمة أجلها وما يستأخرون » ثم عرضت الآيات إلى موقف الجحود والعناد الذي وقفه الأقوام من الرسل الكرام ، فما من نبي إلا سخر منه قومه ، من لدن نوح إلى بعثة خاتم المرسلين . وبالأخص كفار مكة الذين طمست بصائرهم فراحوا يهزءون من رسول الله ﷺ ويسخرون وقد بين تعالى أن هذه سنة المكذبين مع الأنبياء والمرسلين ، لا يؤمنون ولو جاءهم كل آية حتى يروا العذاب الأليم « ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين . وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون . كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين » وقد صور تعالى مشهد المكابرة والعناد لكفار مكة في ذلك التصوير المذهل ، مشهد أولئك المكذبين وهم يصعدون في السماء . من باب أنج لهم فيها . وهم يصعدون بأجسامهم وبيرون الأفلاك والأملأك ثم بعد ذلك يكابرون ويعاندون « ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا تعرجون . لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون » ومن مشهدة إلى معرض الآيات الكونية ، مبدوءاً بمشهد السماء ، فمشهد الأرض . والرياح اللواقيح . فمشهد الحياة والموت . فمشهد البعث والحشر . تلك آيات باهرات معروضة في صفحة هذا الكون العجيب ، الذي ينصير البید المبدعة ، ويشهد بالإعجاز في عظمة هذا الخالق الكبير ، ومع تكابر المكابرون ويعارض المكذبون . استمع إلى هذا البيان الذي ينطق بحجته ووحدايته « ولقد جعلنا في السماء بروجا وزيناها للناظرين . وحفظناها من كل شيطان رجيم . إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين . والأرض مددناها

وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ . وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ . وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ » . ثم تَرَدُّ الآيَاتُ الْكَرِيمَةُ كُلَّ شَيْءٍ فِي الْكَوْنِ إِلَى الْإِلَهِ الْقَادِرِ الْحَكِيمِ ، خَالِقِ الْكَائِنَاتِ وَمَبْدَعِ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ ، فَتَرَدُّ إِلَى الْحَيَاةِ وَالْمَوْتِ ، وَالْأَحْيَاءِ وَالْأَمْوَاتِ ، وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ ، فَمَنْهُ جَلُّ وَعَلَا ابْتَدَأَ خَلْقَ الْبَشَرِ وَإِلَيْهِ يَعُودُ « وَإِنَّا لَنَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَنَحْنُ الْوَارِثُونَ . وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَقْدِمِينَ مِنْكُمْ وَلَقَدْ عَلَّمْنَا الْمُسْتَأَخِرِينَ . وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ » .

ثم تَقْصُ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ قِصَّةَ الْبَشَرِيَّةِ الْكُبْرَى ، قِصَّةَ الْهَدْيِ وَالضَّلَالِ مُمَثَّلَةً فِي خَلْقِ آدَمَ وَعَدْوِهِ إِبْلِيسَ اللَّعِينِ ، وَتَذَكُّرَ قَسَمِ إِبْلِيسَ بِإِغْوَاءِ أَهْلِ الْأَرْضِ أَجْمَعِينَ إِلَّا مَنْ خَصَّصَهُمُ اللَّهُ بِالْهُدَايَةِ وَالتَّوْفِيقِ ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَحُومَ حَوْلَ سَاحَتِهِمْ لِأَنَّهُمْ فِي حِمَى الرَّحْمَنِ « قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لِأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ . إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ . قَالَ هَذَا صِرَاطٌ عَلَيَّ مُسْتَقِيمٌ . إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنْ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ . وَإِنْ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ . لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ » .

وَمِنْ قِصَّةِ آدَمَ تَنْتَقِلُ الْآيَاتُ إِلَى قِصَصِ الْأَنْبِيَاءِ ، تَسْلِيَةً لِرَسُولِ اللَّهِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ . وَتَنْبِيْهًا لِقَلْبِهِ الشَّرِيفِ لئَلَا يَتَسَرَّبَ إِلَيْهِ الْيَأْسُ وَالتَّقَنُّوطُ . فَتَذَكُّرُ قِصَّةِ لُوطَ ، وَقِصَّةِ شُعَيْبَ ، وَقِصَّةِ صَالِحَ ، تَذَكُّرُهَا بِالْإِبْجَازِ لَا بِالِإِسْهَابِ وَمَا حَلَّ بِأَقْوَامِهِمُ الْمَكْذِبِينَ ، بَدْعًا مِنْ قَوْلِهِ تَعَالَى « نَبِيٌّ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنْ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ » إِلَى آخِرِ قِصَّةِ صَالِحَ . اسْتَمَعَ إِلَى قَوْلِهِ تَعَالَى عَنْ قَوْمِ لُوطَ « فَأَخَذْتَهُمُ الصَّيْحَةُ مُشْرِقِينَ . فَجَعَلْنَا عَالِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِنْ سِجِّيلٍ . إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ . وَإِنَّهَا لَسِيْلٌ مَّقِيمٌ » وَاسْتَمَعَ إِلَى قَوْلِهِ عَنْ

قوم شعيب وهم أصحاب الأيكة ﴿ وَإِنْ كَانَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ لظَالِمِينَ .
 فانتقمنا منهم وَإِنَّمَا لِيَايَمَامٍ مَبِينٌ ﴾ وهكذا تنتهي تلك الحلقات الخاطفة
 من القصص في السورة ، محققة سنة الله في أخذ المكذبين عند انقضاء
 المدة التي حددها الله لهم فلن يُقْلَت أحدٌ من عذاب الله . وتختتم السورة
 الكريمة بلفت الأنظار إلى قدرة الله الواحد القهار ، وبيان الحق الكامن في
 خلق السموات والأرض ، وبيان الساعة التي يعقبها الثواب والعقاب
 في دار العدل والجزاء « وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا
 بالحق وَإِنَّ السَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ
 الْعَلِيمُ » كما تذكّر الرسول بالصبر على الأذى في سبيل الله ، وشكر الله
 وعبادته والإكثار من الصلاة والتبذل والطاعة « ولقد نعلم أنك يضيق
 صدرك بما يقولون . فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ . وَاعْبُدْ رَبَّكَ
 حَتَّى يَأْتِيَكَ الْيَقِينُ » .

(١٦) سُورَةُ النَّحْلِ الْكَرِيمَةِ
وَأَيُّهَا الْمَلَأَانِ عَشْرُونَ وَمِائَتُهُ

سورة النحل من السور المكية التي تعالج موضوعات العقيدة الكبرى « الألوهية ، والوحي ، والبعث والنشور » وإلى جانب ذلك تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في ذلك العالم الفسيح في السموات والأرض ، والبحار والجبال ، والسهول والوديان ، والماء الهاطل ، والنبات النامي ، والفلك التي تجري في البحر ، والنجوم التي يهتدي بها السالكون في ظلمات الليل ، إلى آخر تلك المشاهد التي يراها الإنسان في حياته ، ويدركها بسمعه وبصره ، وهي صورٌ حيةٌ مشاهدة ، دالةٌ على وحدانية الله جلَّ وعلا ، وناطقةٌ بآثار قدرته التي أبدع بها الكائنات :

وفي كل شيء له آيةٌ : تدلُّ على أنه واحدٌ
سُميت هذه السورة الكريمة « سورة النحل » لاشتمالها على تلك العبرة البليغة التي تشير إلى عجب صنع الخالق ، وتدلُّ على الألوهية بهذا الصنع العجيب ، فالنحل خلقٌ من مخلوقات الله تُشبه الذباب ، ولكنها تعمل بإلهام من الفطرة التي أودعها إياها الخالق العظيم ، وتعمل بدقة عجيبة يعجز عن مثلها العقلُ المفكر ، سواءً في بناء خلاياها ، أو في اقتسام العمل المنظم بينها ، أو في طريقة إفرازها للعسل المصفى الذي فيه شفاءٌ للناس ، وهي تتخذ من الجبال والشجر بيوتاً لها ، وتأكل من الأزهار ما يلدّها ، وكلُّ ذلك بوحي وإلهام من الله « الذي أعطى كلَّ شيء خلقه

ثم هدى » وقد ذكرت فيها هذه العجائب ليتفطن الإنسان إلى قدرته وعجيب صنعه تعالى في هذا الحيوان الضعيف ، الذي لو اجتمع مهندسو العالم لحارت أفكارهم في بناء تلك البيوت الهندسية بتلك الدقة العجيبة « وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون . ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً ، يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس ، إن في ذلك الآية لقوم يفكرون » فسبحان الله اللطيف الخبير !!

ولكثرة ما ذكر تعالى فيها من النعم التي أفاضها على عبادة ، سماها بعضهم « سورة النعم » اقرأ قوله تعالى ﴿ هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون . يُنبِتُ لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ، ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون ﴾ وقوله تعالى ﴿ وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون ﴾ واقرأ قوله تعالى ﴿ والله جعل لكم من بيوتكم سكناً ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتاً تسخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم ، ومن أضواؤها وأوبارها وأشعارها أثاثاً ومتاعاً إلى حين . والله جعل لكم مما خلق ظلالاً ، وجعل لكم من الجبال أكنناً ، وجعل لكم سراويل تقيكم الحر ، وسراويل تقيكم بأسكم ، كذلك يُبَيِّنُ نِعَمَتَهُ عَلَيْكُمْ لعلكم تسلمون ﴾ .

تناولت السورة الكريمة في البدء أمر الوحي الذي كان مجال إنكار المشركين واستهزائهم ، فقد كذبوا بالوحي واستبعدوا قيام الساعة ، واستعجلوا الرسول ﷺ أن يأتيهم بالعذاب الذي خوفهم به ، وكلما تأخر العذاب زادوا استعجالاً وزادوا استهزاء واستهتاراً ، ولذلك بدأت السورة بهذا الخبر الحاسم الجازم ﴿ أتى أمر الله فلا تستعجلوه سبحانه وتعالى عما

يُشْرِكُونَ. يُنَزِّلُ الْمَلَائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ ﴿١﴾ ثُمَّ ذَكَرْتَ الْآيَاتِ الْكَرِيمَةَ دَلَائِلَ الْخَلْقِ وَالتَّقْدِيرِ ، مَقْرُونَةً بِصُنُوفِ النِّعَمِ وَالتَّذْكِيرِ ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا الْأَرْضُ بِالْحَقِّ تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نَظْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ. وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنْفَعٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ. وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ. وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَى بَلَدٍ لَمْ تَكُونُوا بِالْغَيْهِ إِلَّا بِشَقِّ الْأَنْفُسِ ، إِنَّ رَبَّكُمْ لَرَعُوفٌ رَحِيمٌ ﴿٣﴾ وَمِنَ التَّذْكِيرِ بِالنِّعَمِ إِلَى التَّذْكِيرِ بِالْمُنْعِمِ تَتَحَدَّثُ الْآيَاتُ عَنِ الْخَالِقِ الْمَدْبُرِ الْحَكِيمِ ، الَّذِي لَا تُحْصَى نِعْمَتُهُ ، وَلَا تُسْتَوْفَى آلاؤُهُ ، وَتَقَارَنُ بَيْنَ الْإِلَهِ الْحَقِّ ، وَالْأَصْنَامِ الْمَرْيُوفَةِ ﴿٤﴾ أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا ، إِنْ اللَّهُ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ. وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُسْرُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ. وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ. أَمْوَاتٌ غَيْرُ أَحْيَاءٍ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ ﴿٥﴾ وَلَقَدْ هَدَفَتْ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى تَقْرِيرِ مَبْدَأِ «وَحْدَانِيَةِ اللَّهِ» جَلَّ وَعَلَا بَلَقَتْ الْأَنْظَارَ إِلَى قُدْرَةِ اللَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ ، فَخَاطَبَتْ كُلَّ حَاسَةٍ فِي الْإِنْسَانِ ، وَكُلَّ جَارِحَةٍ فِي كَيَانِهِ الْبَشَرِيِّ ، لِيَتَجَهَّ بِعَقْلِهِ إِلَى رَبِّهِ ، وَيَسْتَنْبِرَ بِمَا يَرَى مِنْ آثَارِ صَنِيعِ اللَّهِ عَلَى عِظَمَةِ اللَّهِ سُبْحَانَهُ ، وَلِذَلِكَ جَاءَتْ الْآيَاتُ تَخَاطَبُ الْعَيْنَ لَتَرَى ، وَالْأُذُنَ لَتَسْمَعَ ، وَالْوُجْدَانَ لِيَتَأَثَّرَ ، وَالْعَقْلَ لِيَتَدَبَّرَ ، وَحَشَّدَتْ الْكَوْنَ كُلَّهُ ، سَمَاءً وَأَرْضاً ، وَشَمْسَةً وَقَمَرَةً ، وَلَيْلَةً وَنَهَارَةً ، وَجِبَالَهُ وَبَحَارَهُ ، وَنَبَاتَهُ وَثَمَارَهُ ، وَعَرْضَتَهُ أَمَامَ الْأَنْظَارِ هَكَذَا مَكْشُوفاً مُحْسُوساً مَلْمُوساً ، تَكَادُ كُلُّ ذَرَّةٍ فِيهِ تَشْهَدُ لِلَّهِ بِالْوَحْدَانِيَةِ ﴿٦﴾ وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بَطُونِ أُمَهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً ، وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ. أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مَسْجُرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ ، إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾

وذكرت السورة الكريمة مثلين لتقرير الحقيقة الكبرى التي غفلوا عنها وهي من واقع الحياة ، أما المثل الأول فهو مثلُ العبدِ المملوكِ العاجزِ عن الملكِ والتصرف ، مع السيد القويِّ القادر الذي يتصرف في ماله وعيده كيف شاء ، وهم لا يُسوون بين العبد المملوك والسيد المالك ، فكيف يُسوون بين ربِّ العباد وهذه الأصنام الجمادات ؟ والمثل الثاني مثلُ الرجل الضعيفِ الأبكم ، البليدِ الذهن ، والرجل القويِّ المتكلم ، الأمر بالعدل ، المستقيم على الخير ، وإذا كان العاقل لا يُسوي بين الأعمى والبصير ، والأبكم والمتكلم ، فكيف تمكن التسوية بين صنم أو حجر ، وبين الله سبحانه وهو القادرُ العليم ، الهادي إلى الصراطِ المستقيم ﴿ ضربَ الله مثلاً عبداً مملوكاً لا يقدر على شيء ، ومن رزقناه منا رزقاً حسناً فهو يُنفق منه سراً وجهرأ ، هل يستون ؟ الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون ﴾ هذا هو المثل الأول وهو واضحٌ جلي ، وأما المثل الثاني فاستمع إليه في قوله تعالى ﴿ وضربَ الله مثلاً رجلين أحدهما أبكم لا يقدرُ على شيء ، وهو كلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير ، هل يستوي هو ومن يأمر بالعدل ، وهو على صراطٍ مستقيم ؟ ﴾ ويا له من مثل يفرق بين الهدى والضلال ، وعبادة الرحمن وعبادة الأوثان ! !

ثم تتابعت السورة الكريمة تُذكر الناس بنتيجة الكفر بنعم الله ، وعدم القيام بشكرها ، وتُحذّرهم تلك العاقبة الوخيمة التي يؤول إليها مصير كل معاندٍ وجاحد ﴿ وضربَ الله مثلاً قرية كانت آمنة مطمئنة ، يأتيها رزقها وغدأها من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباسَ الجوع والخوف بما كانوا يصنعون ﴾ وفي مقابل صورة الكفر ذكرت السورة نموذجاً للطاعة والشكر ، وأظهرها نموذج إبراهيم الذي كبر ، الصابر ، الشاكر ﴿ إن إبراهيم كان أمةً قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين .

شاكراً لِأَنعَمَهُ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿١﴾ وَخَتَمَتِ السُّورَةُ الْكَرِيمَةَ
بِأَمْرِ الرَّسُولِ ﷺ بِالدَّعْوَةِ إِلَى اللَّهِ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ،
وَالصَّبْرِ وَالْعَفْوِ عَمَّا يَلْقَاهُ مِنَ الْأَذَى فِي سَبِيلِ تَبْلِيغِ دَعْوَةِ اللَّهِ ﴿٢﴾ أَدْعُ إِلَى
سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ
هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿٣﴾ إِلَى نَهَايَةِ السُّورَةِ
الْكَرِيمَةِ ﴿٤﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ ﴿٥﴾

(١٧) سُورَةُ الْإِسْرَاءِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأَنَا الْخَلَاءَ عَشْرَةً وَمَاتَ

سورة الإسراء من السور المكية التي تهتم بشئون العقيدة في إطارها العام من « التوحيد ، والرسالة ، والإيمان بالبعث والجزاء » وقد تناولت موضوعات شتى كان معظمها يدور حول العقيدة ، وبعضها في قواعد السلوك الفردي والجماعي ، وبعض الآداب الاجتماعية القائمة على أصول العقيدة الإسلامية ، وفي هذه السورة شيء من القصص عن بني إسرائيل ، وما يتعلق بالمسجد الأقصى الذي كان إليه الإسراء ، وجانباً من قصة « آدم وإبليس » وما جرى من المحاورة بين رب العزة جل وعلا وبين إبليس اللعين نتيجة لاستنكافه عن السجود لآدم ، وعصيانه لأمر الله ، ولكن العنصر البارز في هذه السورة هو « شخصية الرسول الأعظم ﷺ » ، وما أيدّه الله به من المعجزات الباهرة ، والبراهين الساطعة ، الدالة على عظم فضله ، وجليل قدره عند الله . سُميت السورة الكريمة « سورة الإسراء » تخليداً لتلك المعجزة الربانية التي أكرم بها الله سيّد البشر محمد بن عبد الله ، فقد خصّه الله بالإسراء والمعراج دون سائر الأنبياء ، ليطلعه على ملكوت السموات والأرض ، ويريه من آياته الكبرى ، والإسراء إحدى معجزات الرسول ﷺ الحسية ، فقد أيدّه الله تعالى بمعجزات كثيرة : عقلية ، وعلمية ، ومادية ، وكان من أظهر معجزاته عليه السلام تلك المعجزة الحسية « معجزة الإسراء » وهي السفر ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى ، ثم العروج به

إلى السموات العلى ، حيث رأى من آيات ربه الكبرى ما رأى « ما زاعَ
البَصَرُ وما طغى » وكانت معجزة الإسراء والمعراج مظهراً من مظاهر
التكريم الرباني لرسول الهدى عليه السلام . ولقد أحسن القائل حيث
يقول :

سريت من حَرَمٍ لَيْلاً إلى حَرَمٍ : كما سَرَى البدرُ في دَاجٍ من الظُّلُمِ
وبتَ تَرُقَى إلى أن نلتَ مَترَلةً : من قابِ قوسينِ لم تَدْرِكْ ولم تُرَمِ
وتسمى السورة كذلك « سورة بني إسرائيل » لذكر طَرَفٍ من أخبار
بني إسرائيل وتعداد بعض جرائمهم ، وما قُضِيَ عليهم من نكبةٍ وهلاكٍ
وتشريدٍ مرتين ، بسبب طغيانهم وإفسادهم في الأرض . تبتدىء السورة
الكريمة بتمجيد الله وتنزيهه عن صفات النقص ، فالله تعالى لا يعجزه
شيء ، فقد أكرم رسوله بالإسراء وليس ذلك عجباً على قدرة الله ،
ولا بعيداً عن مقام الرسول المكرَّم عند ربه « سبحان الذي أسرى بعبده
ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله » وقد
كشف تعالى عن حكمه الإسراء « لَنُرِيَهُ من آياتنا إنه هو السميعُ البصير »
فهي إذاً رحلة تكريم للنبي العظيم وبمناسبة المسجد الأقصى ذكر تعالى
اليهود ، وما أفسدوه في الأرض ، وما سلَّط عليهم من العذاب بأيدي
المجوس الذين أذاقوهم أشد أنواع البطش والتنكيل ﴿ وقضينا إلى
بني إسرائيل في الكتاب لتفسدنَّ في الأرض مرتين ، ولتعلنَّ علواً كبيراً .
فإذا جاء وعدُ أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأسٍ شديد فجاسوا
خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ﴾ ثم تناولت السورة القرآن العظيم الذي
أنزله الله لهداية البشرية وبه السعادةُ السرمدية ﴿ إنَّ هذا القرآنُ يهدي
للتي هي أقومُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً
كبيراً . وَأَنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أليماً ﴾ ومن
الآيات القرآنية ، ينتقل الحديثُ إلى الآيات الكونية ، التي تدلُّ على العظمة

والوحدانية ، وإلى النظام الكوني الكبير الذي يحكم الليل والنهار ، ويرتبط به سعي الناس من خير وشر ، فالكل يسير وفق ناموس ثابت ، ونظام لا يتبدل ، وسُنن لا تتحول ﴿ وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب ، وكل شيء فصلناه تفصيلاً . وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ، ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً ﴾ وقد تناولت السورة الكريمة طائفة من الأوامر والزواجر والتكاليف الإلهية التي ينبغي أن يتمسك بها الناس لينتقوا طعم السعادة ، ويستظلوا بظلال الشريعة الوارفة ، بدءاً من طاعة الوالدين إلى النهي عن الخيلاء والكبر ﴿ وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً .. إلى قوله تعالى ﴿ ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا ﴾ .

وبعد تلك الآداب المرتكزة على قاعدة التوحيد ، يأتي الحديث عن ضلالات المشركين الذين نسبوا إلى الله الصاحبة والوكد ، ومن العجيب في أمر هؤلاء المشركين أنهم يكرهون النبات ثم ينسبونها إلى الله العلي الكبير ، الذي له ملك السموات والأرض ، وهو الغني عن الخلق ، المتعالي على الشبيه والنظير والمثيل ﴿ أفأضفاكم ربكم بالبنين واتخذ من الملائكة إناثاً ؟ إنكم لتقولون قولاً عظيماً . ولقد صرّفنا في هذا القرآن ليدركوا وما يزيدهم إلا نفوراً . قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لابتغوا إلى ذي العرش سبيلاً . سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً تسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن ، وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، ولكن لا تفقهون تسبيحهم إنه كان حليماً غفوراً ﴾ ثم يأتي الحديث عن قضية « البعث والنشور » التي كثر الجدل حولها ، ولم تستطع نفوس المشركين أن تستوعبها - مع بساطتها ووضوحها - وصعب

عليهم تصوّر البعث بعد البلي ، والحياة بعد الفناء ، وقد جاءت الآيات
الكريمة تذكر شبهتهم وترد عليهم بالحجة والبرهان ، فإن الذي قدر
على إحياء الإنسان من العدم ، قادر على إعادته بعد الفناء ﴿ وقالوا أنذا
كنا عظاماً ورفاتاً أثنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟ قل كُونُوا حجارةً أو
حديداً . أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون من يعيدنا ؟ قل
الذي فطركم أوّل مرة ، فَسَيَنْفُضُونَ إِلَيْكَ رِعْسَهُمْ ويقولون متى
هُوَ قُلْ عَسَى أَنْ يَكُونَ قَرِيباً ﴾ وتنتقل السورة إلى الحديث عن القرآن
العظيم معجزة محمد الخالدة ومع ذلك استنكفوا عن الإيمان به ،
وطلبوا من الرسول ﷺ خوارق حسية ومعجزات مادية غير هذا
القرآن وتعنّوا في اقتراحاتهم فطلبوا منه أن يُفجّر لهم الأنهار ، وأن
يُخرج لهم النخيل والثمار ، ويجعل لهم مكة حدائق وجنات ، أو
يصعد إلى السماء فيأتيهم بالله والملائكة عياناً ليشهدوا له بالنبوة والرسالة ،
وتلك لعمري الحق مطالب الجاهل الأحمق ﴿ وقالوا لن نؤمن لك
حتى تفجّر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب
فتفجّر الأنهار خلالها تَفْجِيراً . أو تُسْقِطَ السماء كما زعمت علينا
كِسَفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو
ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرُقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه ، قل
سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولاً ﴾ ؟ وتختتم السورة الكريمة بتنزيه
الله تعالى عن الشريك والولد ، وعن صفات النقص التي هي ملازمة
للإنسان ، فالله هو العلي الكبير ، وهو الغني الحميد ، المستحق لجميع
صفات الكمال ﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولداً ، ولم يكن له
شريك في الملك ، ولم يكن له ولي من الدّل ، وكبره تكبيراً ﴾

(١٨) سُورَةُ الْكَهْفِ مَكِّيَّةٌ
وَآيَاتُهَا عَشْرٌ وَمِائَتَانِ

سورة الكهف من السور المكية التي تتناول أصول العقيدة الإسلامية ، وتهدف إلى تقرير دعائم الإيمان من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والإيمان بالبعث والنشور ، وهي إحدى سور خمس في القرآن الكريم بُدئت بـ « الحمد لله » وهذه السور هي ﴿ الفاتحة ، والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر ﴾ وكلها تبدأ بتمجيد الله جلّ وعلا وتقديسه ، والاعتراف له بالعظمة والجلال والكبرياء ، فهو المحمود بذاته الذي يحمده أهل السموات وأهل الأرض . سُميت سورة الكهف لما فيها من المعجزة الربانية ، في تلك القصة الغريبة ، قصة « أصحاب الكهف » وهم فتية مؤمنون خرجوا من بلادهم فراراً بدينهم ، وهجروا الديار والأوطان في سبيل العقيدة والإيمان ، ولجئوا إلى غارٍ واسع في الجبل ومكثوا فيه نياماً ثلاث مائة وتسع سنين بدون طعام ولا شراب ، ثم بعثهم الله تعالى بعد تلك المدة ﴿ وكذلك بغناهم ليتساءلوا بينهم قال قائل منهم كم لبثتم قالوا لبثنا يوماً أو بعض يوم ... إلى قوله تعالى : ولبثوا في كهفهم ثلاث مائة سنين وازدادوا تسعاً ﴾ وهو زمن يُعتبر طويلاً بالنسبة للإنسان . وقد كانت قصة ﴿ أهل الكهف ﴾ برهاناً ساطعاً على إمكان البعث بعد الموت ، والحياة بعد الفناء ، فقد قررت إمكان حدوث البعث في الدنيا بعد تلك الرقدة الطويلة التي تشبه الموت ، والغرض منها إقامة البرهان الحسي القاطع على أن الله يحيي الموتى ،

وأنه يبعث من في القبور ، وقد استخدمتُ السورةُ الكريمة - في سبيلِ تقريرِ أهدافها - أسلوبَ القصص ، فذكرتُ ثلاثَ قصص بدأتُ بقصة أصحاب الكهف ، وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة ، ثم قصة موسى الكليم مع العبد وهي قصة التواضع في سبيل طلب العلم الذي لا يعرف التكبر والغرور ، ثم قصة « ذي القرنين » وهي قصة العدل وإغاثة الضعيف واللهفان ، وإلى جوار القصص الممتع ذي المغزى العميق ، بعض مشاهد القيامة ، وبعض مشاهد الحياة التي تصور الأفكار الرئيسية لدعوة الإسلام ، وكما استخدمتُ السورة في سبيل هدفها هذه القصص الثلاث ، استخدمتُ فيه من جهة أخرى أمثلة ثلاثة واقعية ، بينتُ فيها أن الحق لا يرتبط بكثرة المال والجاه والسلطان ، ولا بعلو الإنسان وإنما هو مرتبطٌ بالعقيدة التي دعا إليها القرآن ، أما المثل الأول فهو مثلُ الغني المكاثِر بماله ، والفقير المعتز بعقيدته وإيمانه في قصة الجنتين ﴿ واضربْ لَهُمْ مثلاً رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعنابٍ وحَفَفْنَاهُمَا بنخلٍ وجعلنا بينهما زرعاً ﴾ وأما المثل الثاني فهو مثلٌ للحياة الدنيا وما يلحقها من فناء وزوال بعد تلك الزينة التي خدعت الكثيرين من الناس ﴿ واضربْ لَهُمْ مثل الحياة الدنيا كما أنزلناه من السماء فاختلط به نباتُ الأرض فأصبح هشيماً تذروه الرياح وكان الله على كل شيء مقتدرًا ﴾ وأما المثل الثالث : فهو مثل التكبر والغرور مصوراً في حادثة إبليس اللعين وما أصابه من الطرد والحرمان جزاء تكبره واستعلائه على أوامر الله ﴿ وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه .. ﴾ وهكذا ترد القصص مقرونة بالأمثال . فتبدى السورة الكريمة بحمد الله والثناء عليه الذي أنزل القرآن هداية للبشرية ﴿ الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً ﴾ ثم تنتقل إلى بيان حقيقة الحياة

بميزان العقيدة الدقيق ، فكلُّ ما على الأرض من زينةٍ وبَهْرَجٍ إنما جعل
 للابتلاء والاختبار ، ونهايته إلى فناء وزوال ﴿إنا جعلنا ما على الأرض
 زينةً لها لنبلوهم أيُّهم أحسن عملاً . وإنا الجاعلون ما عليها صعيداً جرُّراً﴾
 ثم تتحدث عن قصة الفتية المؤمنتين الذين وقفوا في وجه الملك الجبار
 « دقيانوس » الذي كان يدعو الناس إلى عبادة الأوثان والأحجار ،
 وقفوا معلنين إيمانهم بكل جرأة وصلابة ، متحدين الكُفْر والضلال ،
 لا يبالون بموتٍ أو قتل ﴿نحن نقصُّ عليك نبأهم بالحق ، إنهم فتية
 آمنوا بربههم وزدناهم هُدًى . وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا
 ربُّنا ربُّ السموات والأرض لن ندعو من دونه إلهاً لقد قلنا إذاً شططاً﴾
 وقد تحدثت الآيات عن إكرام الله لهم بإنجائهم من بطش ذلك الطاغية
 الجبار ، وعن إكرامهم وهم مختفون بالغار بعد أن فروا بدينهم فالتقى
 الله عليهم النوم ، وجعل الشمس تتنحى عنهم عند شروقها وغروبها لئلا
 تؤذيهم بحرارتها ﴿وترى الشمس إذا طلعت تزاور عن كهفهم ذات
 اليمين - أي تتنحى وتميل عنهم - وإذا غربت تقرضهم ذات الشمال
 - أي تجاوزهم إلى جهة الشمال - وهم في فجوةٍ منه - أي في متسعٍ من
 الغار - ذلك من آياتِ الله ، من يهد الله فهو المهتد ومن يُضلل فلن
 تجد له ولياً مرشداً﴾ ثم تأتي نهاية القصة العجيبة « قصة أهل الكهف »
 لبيان العبرة وهي دلالتها على البعث بمثل واقعي ، قريب محسوس ،
 وهو الإيمان بالبعث والنشور ﴿وكذلك أعتونا عليهم ليعلموا أن وعد
 الله حق ، وأن الساعة لا ريب فيها ..﴾ . ومن قصة أصحاب الكهف
 ينتقل الحديث إلى قصة الجنتين ، وهي ترمز إلى موضوع الإيمان
 بالبعث والجزاء والحساب كذلك ، وترسم نموذجين واضحين للنفس
 البشرية ، للنفس المؤمنة المعتزة بالله ، والنفس الكافرة المعتزة بزينة
 الحياة ، وكلاهما نموذج إنساني لطائفةٍ من الناس ، صاحب الجنتين

نمُوذجٌ للرجل الثريّ ، تُذهلهُ الثروة وتُبطّره النعمة ، وصاحبه نمُوذجٌ للرجل المؤمن ، الذاكر لربه ، يرى النعمة دليلاً على وجوب شكر المنعم لا على جحوده وعصيانهِ ﴿ قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلّقتك من ترابٍ ثم من نطفةٍ ثم سواك رجلاً ! لکنّا هو الله ربّي ولا أشرك برّبّي أحداً ﴾ .

ثم تذكر السورة الكريمة قصة التواضع في طلب العلم ، الماثلة فيما جرى بين موسى عليه السلام وبين العبد الصالح « الخضر » فإن موسى - مع علو شأنه - لم يمنعه علوه عن تحمل المشاق في سبيل العلم ، دون نظره إلى مكانة من يريد التعلم منه ، فموسى نبي الله وكتيمه ، والخضر ليس بنبي وإنما هو من أولياء الله الصالحين ، ومع ذلك لم يتردد موسى الكلم عن قطع المسافات الشاشعة ، ليلتقي بالعبد الصالح ويستفيد من علمه اللدني الذي وهبه الله إياه ﴿ وإذ قال موسى لفتاه لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقبا ﴾ والتقى موسى بالعبد الصالح وقدم نفسه بتواضع وأدب طالباً منه العلم ﴿ فوجدا عبداً من عبادنا آتياه رحمة من عندنا وعلمناه من لدنا علماً . قال له موسى هل أتبعك على أن تعلمن مما علّمت رشداً ! ﴾ ثم كان من شأنهما ما قصّ علينا القرآن العزيز من روائع القصص من قصة السفينة ، وقتل الغلام ، وبناء الجدار ، وكلها أخبار غيبية أطلع الله عليها ذلك العبد الصالح وفيها عبرٌ وعظات .

ثم تنتقل السورة الكريمة إلى قصة « ذي القرنين » وهو ملكٌ مكن الله له بتقواه وعدله أن ييسط سلطاناه على المعمورة ، وأن يملك مشارق الأرض ومغاريها ، ويُقيم فيها العدل والخير والإصلاح ، ويكون من شأنه أن يبني ذلك السدّ المتين المكين ليحمي الناس من شر يأجوج ومأجوج ﴿ قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض

فهل نجعلُ لك خَرَجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً ؟ قال ما مَكَّنِّي فيه
ربي خيراً فأعينوني بقوةٍ أجعلُ بينكم وبينهم ردماً ﴿١﴾ وحين يتم السدُّ يردُّ
الملك الصالح الأمر لله تعالى لا لقوته البشرية ﴿٢﴾ قال هذا رحمةٌ من
ربي فإذا جاء وعدُ ربي جعله دكاءً وكان وعدُ ربي حقاً ﴿٣﴾ وكلُّ هذه
الأخبار العجيبة التي ذكرتها السورة الكريمة إنما وردت بقصد العظاتِ
والعبرِ ، وتذكُّرِ المؤمنين بسعة علم الله وسلطانه ، وعجائب كونه
وأسرار ملكه ، ثم تختتم السورة بالإخلاص والنهي عن الشرك كما
بدأت بذكر الوحي والتوحيد ، ليتفق البدء مع الختام ﴿٤﴾ فمن كان يرجو
لقاء ربه فليعمل عملاً صالحاً ولا يُشركْ بعبادة ربه أحداً ﴿٥﴾

(١٩) سُورَةُ مَرْيَمَ الْمَكِّيَّةُ
وَأَنبَاءُ أَنفَالِكُنَّ وَتَشْيِخُونَا

سورة مريم من السور المكية التي تقرر توحيد الله ، وقدرته ، وتنزيهه عما لا يليق به ، وتقرر عقيدة البعث والجزاء ، وهي إحدى تسع وعشرين سورة بُدئت بالحروف الهجائية ، ومحور هذه السورة يدور حول التوحيد ، ونفي الولد والشريك ، ويتناول أيضاً قصص بعض الأنبياء ، بدءاً من قصة زكريا وولده يحيى ، ثم قصة مريم البتول ومولد عيسى ، ثم قصة إبراهيم مع أبيه ، ثم تذكر بالثناء والتبجيل رسل الله الكرام : إسحاق ويعقوب ، وموسى وهارون ، وإسماعيل وإدريس ، وآدم ونوح ، ويستغرق الحديث عن قصص هؤلاء الأنبياء حوالي ثلثي السورة ، ويستهدف إثبات الوجدانية ، ونفي الولد والشريك ، وبيان منهج المهتدين ، ومنهج الضالين المنحرفين عن هداية النبيين .

سُميت السورة الكريمة « سورة مريم » لذكر قصتها وقصة ولدها عيسى عليه السلام بالتفصيل وقد جاء الحديث عن حملها بالسيد المسيح بعد تلك المخاوف التي كانت تساور نفسها ، ثم ارتياب قومها بذلك الحمل لأنها عذراء ، ثم تمنيتها الموت قبل أن تلقى ذلك الاتهام الشنيع ، ثم إكرام الله لها بإنطاق الغلام وهو طفل في المهد إلى آخر ما هنالك من أحداث غريبة تتعلق بميلاد عيسى عليه السلام .

بدأت السورة الكريمة بقصة نبي الله زكريا وولده يحيى ، وقبل أن تذكر قصته الغريبة بدأت بدءاً غير مألوف ليكون البدء الغريب قرعاً

للأسماع وتنبئها لقدرة الله العظيمة في إبداع الأشياء العجيبة ﴿كهيص .
 ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفياً . قال رب
 إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ولم أكن بدعائك رب شقياً﴾
 وبعد ذلك الدعاء المنيب في ضراعة وخفية ، يأتي الطلب الرفيق بأن
 يهب الله له الولد ، ليكون عوناً له في حياته سيما بعد بلوغ الشيخوخة ،
 ووارثاً له من بعد مماته يرثه في مقام الدعوة إلى الخير ، وميراث النبوة
 التي ورثها عن آبائه وأجداده ، ويقدم بين يدي هذا الدعاء التلطف
 والرجاء ، فامرأته عاقر لا تلد ، وهو شيخ هرم قد بلغ من الكبر عتياً ،
 ولكنه لا ييأس من روح الله لأن الله السميع البصير يسمع دعاء المكروب
 ﴿وإني خفتُ الموالي من ورائي . وكانت امرأتي عاقراً فهبت لي من
 لدنك ولياً . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضياً﴾ ويستجيب
 الله دعاءه وتأتيه البشارة بالغلام النبيه ، مغموراً بالرعاية والعطف
 والرضى ، ﴿يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من
 قبل سمياً﴾ والعبرة في قصة زكريا أن أقرب الدعاء إلى الإجابة ما كان
 نابعاً من القلب ، مقروناً بالذلة والحاجة والانكسار ، خفياً عن الأسماع
 والأبصار ، مقصوداً به وجه الله تعالى . وتنتقل السورة إلى قصة أعجب
 وأغرب من قصة ميلاد يحيى ، تلك هي قصة مريم العذراء وإنجابهـا
 لطفل من غير بعل ، وهو الحادث العجيب الضخم في تاريخ البشرية ،
 وقد شامت الحكمة الإلهية أن تبرز تلك المعجزة الباهرة في مولد عيسى
 من غير أب ، لتظل آثار القدرة الربانية ماثلة أمام الأبصار في الخلق
 والإيجاد ، والإفناء والإعدام ﴿واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من
 أهلها مكاناً شرقياً . فاتخذت من دونهم حجاباً فأرسلنا إليها روحنا
 فتمثل لها بشراً سوياً . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقياً .
 قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاماً زكياً﴾ ويتم الأمر ، وينتهي

الجدل ، وتُبدعُ القدرة الإلهية ذلك الحدث الغريب الذي كثر حوله القيل والقال ، فمن زاعم أنه ابنُ الله ، ومن أنه ولدُ بغي ، ويحسم القرآن ذلك في هذه الكلمات الموجزة ، التي فيها العظة والاعتبار بقدرة الله الواحد القهار ﴿ ذلك عيسى ابنُ مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون . وإن الله ربي وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم ﴾ .

ومن الحديث عن قصة عيسى ابن مريم إلى بعض مشاهد القيامة ، وبعض الجدل مع المنكرين للبعث ﴿ فاختلف الأحزاب من بينهم فويل للذين كفروا من مشهد يوم عظيم . أسمع بهم وأبصر يوم أتوننا لكن الظالمون اليوم في ضلال مبين . وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضي الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون . إنا نحن نرث الأرض ومن عليها وإلينا يرجعون ﴾ ثم يأتي الحديث عن أسلوب إبراهيم في الدعوة إلى الله ، وهو أسلوب الدعوة بالحلم الواسع ، والأدب الجم ، الذي من شأنه أن يجذب إليه القلوب النافرة ، والنفوس الشاردة ، مع وضوح الحجة وقوتها ، والتنبيه على مواضع الخطأ والفساد ﴿ واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقاً نبياً . إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ، ولا يبصر . ولا يغني عنك شيئاً ؟ يا أبت إني قد جاعني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً ﴾ وهكذا يسلك إبراهيم في دعوة أبيه طريق الحكمة والموعظة الحسنة . فيقابله أبوه بالشدة والجفوة والإنكار والتهديد ﴿ قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني ملياً ﴾ فيقابل إبراهيم تهديد أبيه بالسلام والدعاء والاستغفار ﴿ قال سلام عليك سأستغفر لك ربي إنه كان بي حفيماً ﴾ وبعد أن تتحدث السورة عن جملة من الأنبياء الكرام تنتقل إلى الحديث عن المعاندين المكذبين . وترد على حججهم الواهية بالبراهين القاطعة

التي تقصم ظهر الباطل ﴿ويقول الإنسان أئذا ما مِتُّ لسوف أُبعثُ
 حياً؟ أَوَ لا يذكرُ الإنسانُ أنا خلقناه من قبلُ ولم يكُ شيئاً فوربك
 لنحْشُرَنَّهُمُ والشياطينَ ثُمَّ لنحْضُرَنَّهُمْ حَوْلَ جَهَنَّمَ جثياً﴾ ومن هذا المشهد
 المفزع الذي يجثو فيه العتاة المتجبرون جثو الخزي والمهانة تنتقل الآيات
 إلى عَرْضٍ لمصارع المشركين والمكذبين ، وإلى مقالتهم الشيعة التي
 يصورها القرآن بصورة حسية حيث يرى الإنسان السموات والأرض
 والجبال تغضب وتنفعل حتى لتكاد تتفطر وتنشق من هول ذلك الكلام
 ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً . تكادُ السمواتُ يتفطرُن
 منه ، وتنشقُ الأرضُ ، وتخرُ الجبالُ هدأً . أنْ دَعَوْا للرحمن ولداً ،
 وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كلَّ من في السموات والأرض
 إلا آتَى الرحمن عبداً﴾ ثم تحتم السورة الكريمة بوضع صورتين
 متباينتين : صورة المؤمنين الذين ترتبط قلوبهم برباط المودة والمحبة ،
 لأنهم كانوا في الدنيا متحابين في الله ، وصورة الكافرين الجاحدين
 تمزق العداوة قلوبهم وتقطع ما بينهم من صلوات ﴿إن الذين آمنوا
 وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً . فإنما يسرناه بلسانك
 لنُبشِّرَ به المتقين وتُنذِرَ به قوماً لداً﴾ .

(٢٠) سُورَةُ طهٍ مَكِينَةٌ
وَإِسْمُهَا خَمْسٌ وَثَلَاثُونَ وَفَاتَتْهَا

سورة طه من السور المكية وأهدافها هي نفس الأهداف التي تعالجها السور المكية حول أصول الدين من التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، وفيها تظهر شخصية الرسول الأعظم ﷺ في شد أزره ، وتقوية روحه ، حتى لا يتأثر بما يُلقى إليه من الكيد والعناد . ولإرشاده إلى وظيفته وحدود تكليفه ، فمهمته التبليغ والتذكير ، والإنذار والتبشير ، ولهذا اسميت السورة سورة طه وهو اسم من أسمائه الشريفة عليه السلام ، خوَّطب به تطيباً لقلبه ، وتسلياً لفراده عما يلقاه من صدود وعناد ، وقد جاء في هذه السورة الكريمة بعض قصص الأنبياء تسلياً لرسول الله عليه الصلاة والسلام وتطميناً له . فذكر تعالى فيها قصة موسى وهارون مع فرعون الطاغية مفصلة مطولة ، وبخاصة موقف المناجاة بين موسى وبين ربه ، وموقف النقاش والجدال بين موسى وفرعون . وموقف المبارزة بينه وبين السحرة . وتنجلي في ثنايا تلك القصة رعاية الله لموسى الذي صنعه على عينه . واصطفاه لنفسه ، وخصه بالكلام والخطاب فكان « كليم الله » من بين سائر المرسلين ، وتعرض السورة كذلك قصة آدم سريعة قصيرة ، تبرز فيها رحمة الله لآدم بعد الخطيئة ، وهدايته لذريته بإرسال الرسل مبشرين ومنذرين ، ثم تركه الخيار لهم لاختيار طريق السعادة أو الشقاوة بعد التذكير والإنذار ، وفي خلال السورة الكريمة تبرز مشاهد القيامة في عبارات

يرتجف لها الكون ، ويهتز لها القلب هلعاً وجزعاً ، ويعتري الناس الذهول والسكون « وخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا » .. « وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْمًا » وهكذا تعرض السورة للموقف الرهيب يوم الحشر الأكبر . حيث يعود الطائعون إلى الجنة ، ويذهب العصاة إلى النار ، تصديقاً لوعد الله بإثابة المتقين وعقاب المجرمين . **تبتدىء السورة الكريمة :** بخطاب الرسول الأعظم ﷺ بخطاب رقيق رقيق ، تبين مهمته ، وغاية الوحي المنزل عليه وأنها مهمة التبليغ والتذكير ، فلا عليه إن آمن الناس أم لم يؤمنوا ، ويكفي أنه بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، ونصح الأمة ﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقي . إلا تذكرة لمن يخشى . تنزيلاً من خلق الأرض والسموات العلى . الرحمن على العرش استوى ﴾ ثم تجمل له أوصاف الجلال والجمال ، في كلمة التبليغ التي أمر أن يذكر بها الناس ﴿ الله لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ﴾ ثم تتابع السورة الكريمة فتقصر على رسول الله ﷺ نبأ أخيه موسى بأسلوب مشوق يشف عن رحمة الله ورعايته لمن يصطفهم لحمل رسالته ، وتبليغ دعوته ، تطميناً وتسلياً لرسول الله ﷺ ، فهذه هي رعاية الله لموسى ترافقه في طفولته فحرسه ، وتعهده إلى أن يبلغ سن الفتوة ، ثم يغادر مصر وحيداً فريداً ، بعد أن قتل فيها قبطياً من جماعة فرعون رآه يقتل مع إسرائيلي ، ثم هيا هو الآن يرجع إلى وطنه بعد أن غاب عنه عشر سنين ، ويضل في طريقه في الصحراء ومعه زوجته ، ثم يبصر ناراً من بعيد ، فإذا بها قبس من نور الله الذي يضيء به الحياة ﴿ وهل أتاك حديث موسى ؟ إذ رأى ناراً فقال لأهله امكثوا إني آنستُ ناراً لعلي آتيكم منها بقبس أو أجده على النار هدى . فلما آتاها نُودِيَ يا موسى إني أنا ربك فاخلع نعليك إنك بالواد المقدس طوى ﴾ ثم تمضي السورة تتحدث عن

مناجاة موسى لربه ، وعن تذكير الله له برعايته من الطفولة ، وإنقاذه
 من كيد فرعون ، وعن تكليفه مع أخيه موسى بتبليغ فرعون رسالة ربه
 مع الملاطفة ولين الجانب ، وما جرى من المناظرة والمحاورة ﴿إِذْ هَبْ أَنْتَ
 وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلَا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾ . إذْهبا إلى فرعون إنه طغي . فقولا له
 قولاً لينا لعله يتذكر أو يخشى ، قالاً ربنا إنما نخاف أن يقرط علينا أو
 أن يطغى . قال لا تخافا إني معكما أسمع وأرى . فَأْتِيَاهُ فَقولا إنا رسولا
 ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم قد جئناك بآية من ربك ،
 والسلام على من أتبع الهدى ﴿ثُمَّ يَأْتِي الْحَدِيثُ عَنْ طُغْيَانِ فِرْعَوْنَ بَعْدَ
 رُؤْيِيهِ تِلْكَ الْآيَاتِ الْبَاهِرَةِ ، وَيَجْمَعُ السَّحَرَةُ لِيَسْتَعِينَهُمْ عَلَى إِطْفَاءِ
 نُورِ اللَّهِ﴾ . ولقد أريناه آياتنا كلها فكذب وأبى . قال أجبتنا لتُخرجنا من
 أرضنا بسحرك يا موسى ؟ فلنأتينك بسحر مثله فاجعل بيننا وبينك موعداً
 لا نخلفه نحن ولا أنت مكاناً سوى . قال موعدكم يوم الزينة وأن
 يُحْشِرَ النَّاسُ ضَحَى ﴿وَتَكُونُ الْمَفَاجَأَةُ الضَّخْمَةُ الَّتِي يَرْتَعِدُ لَهَا فِرْعَوْنُ
 شُرُوداً وَذُهولاً وَهِيَ إِيمَانُ السَّحَرَةِ وَسُجُودُهُمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَأُلْقِيَ
 السَّحَرَةُ سُجُوداً قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ، قال آمنتم له قبل أن
 آذنَ لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر ، فلألقنَّ قطعاً أيديكم
 وأرجلكم من خلاف ، ولأصلبنكم في جذوع النخل ولتعلمن
 أينما أشدُّ عذاباً وأبقى ؟) ولا يفزع السحرة للوعيد والتهديد بعد أن
 امتلأت قلوبهم بالآيمان ، وأشرقت عليهم أنواره فيعلنون مرة أخرى
 استمساحهم بدعوة الله مهما كلفهم ذلك من شدائد ونكبات ﴿قَالُوا
 لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ ،
 إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ . إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا
 عَلَيْهِ مِنَ السَّحَرِ ، وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى ﴿وَتَنْتَهِي قِصَّةُ مُوسَى مَعَ فِرْعَوْنَ
 حَلَقَاتٍ مُتَابَعَةٍ فِيهَا التَّذْكِيرُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ ، وَتَحْتَمُّ بِهَذَا

البيان الذي يعلنه القرآن وهو « وحدانية الله » التي بعث الله بها الأنبياء والمرسلين ، وفيها دعوة الرسول إلى الاعتبار بتلك القصص والأخبار ﴿ إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا . كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْرًا . مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْرًا . خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلًا ﴾ ثم نتحدث عن أهوال الآخرة وشدائدها ، وترسم مشهداً من مشاهد القيامة تتضاءل فيه أيام الحياة الدنيا ، وتتفتت الجبال ، وتخضع الأصوات ، وتعنو الوجوه للحي القيوم ﴿ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنْسِفُهَا رَبِّي نَسْفًا . فَيَذَرُهَا قَاعًا صَفْصَفًا لَا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلَا أَمْتًا . يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لَا عِوَجَ لَهُ ، وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا ﴾ ثم تذكر قصة آدم وإبليس وما فيها من العظة والعبرة ، ثم تختم السورة الكريمة بتسليية الرسول ﷺ عن إعراض المعرضين ، وتكذيب المكذبين ، فلا يشقى بهم ولا يحزن عليهم ، فلهم أجل معلوم هلاكهم ﴿ وَقَالُوا لَوْلَا يَأْتِينَا بِآيَةٍ مِنْ رَبِّهِ أَوْ لِمَ تُؤْتِيهِمْ آيَاتٍ وَلَهُمْ مُعْذِرٌ أَوْ لَوْلَا أُرْسِلَتْ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى . قُلْ كُلُّ مِثْرَبُصٍ فَتَرَبُّصُوا فَسَتَعْلَمُونَ مِنْ أَصْحَابِ الصِّرَاطِ السَّوِيِّ وَمَنِ اهْتَدَى ﴾ .



سورة الانبياء من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة في ميادينها الكبيرة . وتتحدث عن التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، والحساب والجزاء . وعن الساعة وأهوالها ، والقيامة وشدائدها ، وعن موقف البشرية من ذلك اليوم الرهيب في يوم الفزع الأكبر « يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

سُمِّيَتْ « سورة الأنبياء » لأن الله تعالى ذكر فيها أمة الرسل ، وذكر قصص الأنبياء في استعراض سريع ، يطول أحياناً عند ذكر قصة إبراهيم وداود وسليمان عليهم السلام ، ويقصر أحياناً عند ذكر قصص نوح ، وموسى ، وهارون ، ولوط ، وإسماعيل ، وإدريس ، وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، وذو الكفل ، وذو النون عليهم جميعاً من الله أفضل الصلاة والتسليم ، وقد ذكر تعالى في هذه السورة جهاد الأنبياء وصبرهم وتضحيتهم في سبيل الله ، وما لاقوه من شدائد وأهوال في سبيل تبليغ الدعوة حتى نصرهم الله على أعدائهم ، وباختصار فإن السورة تتحدث عن جهاد الأنبياء وتفانيهم في تبليغ دعوة الله لإسعاد البشرية ، ولذلك سميت سورة الأنبياء . تبتدئ السورة الكريمة : بالحديث عن القيامة وأهوالها ، وما يكون فيها من الحساب ، والثواب ، والعقاب ، بينما الناس في هذه الدنيا في غفلة عن ذلك اليوم العصيب ، يجادلون

ويكابرون ، ويهزءون من الرسل ويسخرون ﴿ اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ . مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٍ إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ . لَا هِيَ أَقْلُوبُهُمْ وَأَسْرُوا النَّجْوَى الَّذِينَ ظَلَمُوا هَلْ هَذَا إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السَّحَرَ وَأَنْتُمْ تَبْصُرُونَ ؟ ﴾ وتنتقل الآياتُ إلى الحديث عن المكذبين وهم يشهدون مصارع الغابرين ، الذين كانوا عن آياتِ ربهم غافلين ، وما حاق بهم من العذاب ، وما اعتراهم من الحسرة والندامة حيث لا تنفع التوبة ولا الندم ، ومع ذلك يظل هؤلاء الكفرة في غيهم سادرين ﴿ وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ . فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ . لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِينَكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ . قَالُوا يَا وَيْلَنَا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ . فَمَا زَالَتْ تِلْكَ دَعْوَاهُمْ حَتَّى جَعَلْنَاهُمْ حَصِيدًا خَامِدِينَ ﴾ .

ويأتي الحديث عن دلائل القدرة الباهرة في هذا الكون العجيب ، فكل شيء بنظامٍ دقيق ، لم يُخلق شيءٌ منها للهُو والعبث ، وإنما خلق لحكمة جليلة هي تقديرُ العزيز العليم ، الذي يسبح بحمده ، ويشهد بجلاله كلُّ مخلوق في هذا الكون العظيم ، في العالم العلوي والسفلي ، وبخاصة الملائكة الأطهار ، الذين يسبحون الليل والنهار ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما لاعبين . لو أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ . بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمْ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ . وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ . يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ﴾ وبعد أن تستعرض الآياتُ الكريمة مشاهد الكون ، وتربط بين وحدة الكون ، ووحدة الخالق المدبر الحكيم . يأتي التعقيب المباشر بعدم الخلود لأحدٍ من البشر بما فيهم الرسل الكرام ، وأن هذه

الحياة إنما هي اختيارٌ وابتلاءٌ ، وعند الله الحسابُ والجزاء ﴿ وجعلنا
 السماءَ سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها مُعْرِضُونَ . وهو الذي خلق الليلَ
 والنهارَ ، والشمسَ والقمرَ ، كلٌّ في فلكٍ يسبحون . وما جعلنا لبشرٍ
 من قبلك الخُلْدَ أَفْأَنْ مِتَّ فهمُ الخالدونَ ؟ كلُّ نفسٍ ذائقةُ الموتِ ،
 ونبلوكم بالشرِّ والخيرِ فِتْنَةً وإلينا تُرْجَعُونَ ﴾ وبعد عرض الأدلة الشاهدة
 بوحدانية الله ، وصدق الرسالة والمرسلين ، والحديث عن سنن الله
 في العباد ومصائر البشر ومصارع الغابرين ، يرجع السياق إلى بيان حال
 المشركين وهم يتلقون رسول الله ﷺ بالكذب والسخرية والاستهزاء ،
 ثم يذكر سنة الله الكونية في إهلاك الظالمين ﴿ وإذ آراك الذين كفروا إن
 يتخذونك إلا هُزُواً ، أهذا الذي يذكركرأهتكم ؟ وهم بذكر الرحمن هم
 كافرون . خُلِقَ الإنسانُ مِنْ عَجَلٍ سأريكم آياتي فلا تستعجلون . ويقولون
 متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين ؟ لو يعلم الذين كفروا حين لا يكفونَ عن
 وجوههم النارَ ولا عن ظهورهم ولا هم يُنصرون . بل تأتيهم بُعْثَةٌ
 فتيبهم فلا يستطيعون ردّها ولا هم يُنظرون . ولقد استهزىء برسل من
 قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون ﴾ . ثم تتابع
 الآيات عرض الأدلة على وحدانية الله مع التخويف والإنذار ، ثم
 تختتمها ببيان العدل الإلهي يوم الحساب حيث ينال كلُّ إنسان جزاءه
 دون ظلم ولا بخس ﴿ ونضعُ الموازينَ القسطَ ليومَ القيامةِ فلا تظلمُ
 نفسٌ شيئاً وإن كان مثقالَ حبةٍ من خردلٍ أثينا بها ، وكفى بنا حاسبين ﴾ .
 ثم تتناول السورة الكريمة قصص الأنبياء ، وتحدث بالإسهاب عن
 قصة خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وتعرض قصته في أسلوب مشوق ،
 فيه من نصاعة البيان . وقبة الحجة والبرهان ما يقصم به ظهر الباطل ،
 استمع إليه وهو يُدلي بحجته أمام المحكمة التي عُقدت لمعاقبته بعد
 أن حطّم الأصنام ، وهو يهزأ بهم وبآلهتهم المزعومة في جوابه الساخر

وتهكمه الواضح ﴿قَالُوا مِنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا إِنَّهُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ . قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقالُ له إبراهيم . قالوا فَاتُوا بِهِ عَلَى أَعْيُنِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ . قالوا أَنْتَ فَعَلْتَ هَذَا بِآلِهَتِنَا يَا إِبْرَاهِيمُ ؟ قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ ﴿وَيَبْدُو أَنَّ هَذَا التَّهْكُمُ السَّاحِرُ قَدْ هَزَّ هُمْ هَزًّا ، وَرَدَّهُمْ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّفَكُّرِ وَالتَّدَبُّرِ ، وَلَكِنَّهُمْ سَرَعَانِ مَا انْتَكَسُوا فِي مَهَاوِي الضَّلَالِ﴾ ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ﴾ . ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ ﴿وَهَكَذَا أَقَامُوا الْحِجَّةَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ فِي سَخَافَةِ عَقُولِهِمْ بِعِبَادَةِ أَخْشَابٍ وَأَحْجَارٍ لَا تَسْمَعُ وَلَا تَبْصُرُ وَلَا تُغْنِي عَنْهُمْ شَيْئًا ، وَيَنْطَلِقُ صَوْتُ الْخَلِيلِ يَجِبُهُمْ بِالْحِجَّةِ الدَّاعِغَةِ مَعَ التَّنْذِيرِ بِسَفَاهَةِ الْعُقُولِ وَالْأَحْلَامِ﴾ ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ ؟ أَفِ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ ؟ وَهَذَا تَأْخِذُهُمُ الْعِزَّةَ بِالْإِثْمِ شَأْنِ الطَّغَاةِ الَّذِينَ يَفْقَدُونَ مَقَابِلَةَ الْحِجَّةِ بِالْحِجَّةِ ، فَيُلْجَأُونَ إِلَى الْبَطْشِ وَالْإِنْتِقَامِ ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ﴾ . قُلْنَا يَا نَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ . وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿

وبعد أن تتحدث السورة عن طائفة كبيرة من الأنبياء والمرسلين ، تُعَقِّبُ بهذا البيان الواضح الذي يبيِّن بجلاء أَنَّ أُمَّةَ الْأَنْبِيَاءِ أُمَّةٌ وَاحِدَةٌ ، تَدِينُ بِعَقِيدَةٍ وَاحِدَةٍ ، وَتَنْهَجُ نَهَجًا وَاحِدًا ، وَهُوَ الْإِتِّجَاهُ إِلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ ثُمَّ تَعْرِضُ السُّورَةُ مَشْهُدًا لِلْسَّاعَةِ وَأَشْرَاطَهَا يَتَبَيَّنُ فِيهِ مَصِيرُ الْمُشْرِكِينَ الْمَكْذِبِينَ ، وَتَذَكُّرُ عِلَامَةُ لِقَرَبِ السَّاعَةِ وَهُوَ فَتْحُ «يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ» حَيْثُ يَتَدَفَّقُونَ مِنْ كُلِّ حَذَبٍ وَصَوْبٍ ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ﴾ . وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارِ الَّذِينَ كَفَرُوا

يا ويلنا قد كنا في غفلةٍ من هذا بل كنا ظالمين . إنكم وما تعبدون من دون
الله حَصَبٌ جهنم أنتم لها واردون ﴿ وتختتم السورة الكريمة بتذكير الخلق
بالنعمة الجليلة وهي بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين رحمة للعالمين ، فهو
الرحمة المهداة إلى البشرية بأسرها ﴿ إن في هذا لبلاغاً لقوم عابدين .
وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين ... إلى نهاية السورة الكريمة « قال ربِّ
احكمْ بالحقِّ وربُّنا الرحمنُ المستعانُ على ما تصفون ﴾

(٢٢) سُورَةُ الْحَجِّ فَلْيَنبِرْ
وَأَنبِئَا هَٰؤُلَاءِ بِسُورَتِهِمْ

سورة الحج من السور المدنية التي تتناول جانب التشريع « أحكام الحج ، وأحكام الهدْي ، وأحكام القتال » وغيرها من الأحكام التشريعية ، وقد نزلت بعد سورة النور وفيها بعض الآيات المكية ، ومع أن السورة مدنية إلا أنه يغلب عليها جو السور المكية ، فموضوعُ الإيمان ، والتوحيد ، والتخويف من الساعة ، وموضوعُ البعث والجزاء ، ومشاهد القيامة ، وآيات الله المنبئة في صفحات هذا الكون المشهود ، هو البارز في السورة حتى ليكاد الإنسان يظنها من السور المكية ، هذا إلى جانب الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال ، وحماية الشعائر الدينية ، والموعد بنصر الله للمؤمنين ، والأمر بالجهاد في سبيل الله إلى غير ما هنالك من مواضع هي من خصائص السور المدنية ، لقد عدّها بعض العلماء من السور المشتركة بين المكي والمدني لغلبة طابع السور المكية من القوة والشدة ، والعنف والرغبة ، والتحذير والترهيب . سميت السورة الكريمة « سورة الحج » لأن الله تعالى ذكر فيها أحكام الحج ، وقصة بناء البيت العتيق ، وما قام به الخليل بعد انتهائه من بناء البيت المعظم ، من دعوة الناس إلى حج بيت الله امتثالاً لأمر ربه ، فلى الناس دعوته من كل قطر من الأقطار ، القريبة والبعيدة ، حتى من لم يجد الظهر والمركب ، قطع المسافات على قدميه استجابةً لنداء الخليل إبراهيم عليه السلام وإلى ذلك تشير الآيات الكريمة ﴿ وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ

يَأْتُوكَ رَجَالًا - يعني مشاةً على أقدامهم - وعلى كلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ
فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ
عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطْعَمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ .
ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ ﴿١٠﴾ روى
ابن كثير أن إبراهيم عليه السلام لما انتهى من بناء البيت وأمره ربه
أن ينادي النَّاسَ لحج بيت الله الحرام قال : يا ربَّ كيف أُبلِّغُ النَّاسَ
وصوتي لا يصل إليهم ! فقال يا إبراهيم : نادِ وعَلَيْنَا الْبَلَاغُ فقام على
جبل أبي قبيس ونادى : أيها النَّاسُ إن ربكم قد اتخذ بيتاً فحجوه ،
فتواضعت الجبال حتى بلغ الصوتُ أرجاء الأرض ، وأسمعَ من في
الأرحام والأصلاب ، وأجابه كل شيءٍ سَمِعَهُ من حجرٍ ، ومَدَرٍ ،
وشجرٍ ، ومن كتب الله له الحج إلى يوم القيامة فأجابوا النداء « لبيك
اللهم لبيك » وهذا هو السرُّ في اقتران التلبية بالإحرام . **تبتدىء السورة**
الكريمة بمطلعٍ عنيفٍ مخيفٍ ، ترتجف لهوله القلوب ، مطلع الزلزال
العزيز ، الذي لا يدرك القصور والبُنيان فحسب ، بل يزيد في الهول
على خيال الإنسان ، في المرضعات الذاهلات عن أطفالهن ، والحوامل
الملقيات حملهن ، والناس الذين يترنحون كأنهم سكارى وما بهم شيء
من الخمر والسكر ، ولكنه الموقف المرهوب الذي تنزل له القلوب
﴿ يا أيها النَّاسُ اتقوا ربكم إنَّ زلزلةَ الساعةِ شيءٌ عظيمٌ يوم ترونها
تذهلُ كلُّ مرضعةٍ عما أَرْضَعَتْ ، وتضعُ كلُّ ذاتِ حملٍ حملها ،
وترى النَّاسُ سكارى وما هم بسكارى ولكنَّ عذابَ الله شديدٌ ﴾ .
ومن أهوال الساعة إلى أدلة البعث والنشور ، فلا بدَّ بعد هذه الحياة
من نارٍ أخرى ينال الإنسان فيها جزاءه إن خيراً فخير ، وإن شراً
فشر ، ولن يُفلت المرء من الحساب أبداً كان ، وقدرةُ الله لا يُعجزها
شيء ، فإن الذي خلق الإنسان من نطفة ، ثم من علقه ، ثم من مضغه ،

ثم سواه بشراً سوياً لن يعجزه أن يعيده مرةً أخرى ، فكما تموت
النباتات والأشجار ثم تحيا وهي مشاهدة بالعيان فكذلك الإنسان
﴿ يا أيها الناس إن كنتم في ريبٍ من البعث فإننا خلقناكم من ترابٍ ،
ثم من نطفةٍ ، ثم من علقهٍ ، ثم من مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَنُبَيِّنَ
لكم ، ونُفَرِّقَ في الأرحام ما نشاء إلى أجلٍ مُّسَمًّى ، ثم نخرجكم طفلاً ،
ثم لتبلغوا أشدكم ، ومنكم من يتوفى ومنكم من يردُّ إلى أرذلِ العُمُرِ
لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً ، وترى الأرضَ هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ
اهتزَّتْ وَرَبَّتْ وَأُنْبِتَتْ من كلِّ زوجٍ بهيج . ذلك بأن الله هو الحقُّ ،
وأنه يُحيي الموتى ، وأنه على كلِّ شيءٍ قدير . وأن الساعة آتيةٌ لا ريبَ
فيها ، وأن الله يبعث من في القبور ﴾ . وتحدث السورة عن نموذجٍ
من البشر يزنون العقيدة بميزان الربح والخسارة وكأنها صفقة مادية
في سوق التجارة ﴿ ومن الناس من يعبدُ الله على حَرْفٍ ، فإن أصابه
خيرٌ اطمأنَّ به وإن أصابته فتنةٌ انقلب على وجهه ، خسر الدنيا والآخرةَ
ذلك هو الخسران المبين ﴾ ثم تناول السورة الكريمة مشهداً من مشاهد
القيامة يتجلَّى فيه الهوان والذلُّ لفريق ، والإنعام والإكرام لفريق ، أما
الفريق الأول فهم أعداء الله ، وأما الفريق الثاني فهم أولياء الله ، وكلاهما
كان في الدنيا عدواً للآخر وخصماً له ﴿ هذان خصمان اختصموا في
ربهم ، فالذين كفروا قُطِّعَتْ لهم لهم ثيابٌ من نارٍ ، يُصَبُّ من فوق
رءوسهم الحميمُ ، يُضْرَبُ به ما في بطونهم والجلودُ لهم مقامعٌ من حديد .
كلما أرادوا أن يخرجوا منها من غَمٍّ أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق ﴾
هذا هو الفريق الأول ، أما الفريق الثاني فقد جاء الحديث عنه بعد
ذلك مباشرة بقوله تعالى ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ
جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ
وَلُؤْلُؤاً وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ ﴾ ثم تناولت السورة مشروعية القتال في

مثلٌ فاستمعوا له ، إن الذين تدعون من دون الله لن يَخْلُقُوا ذُبَاباً
 ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذبابُ شيئاً لا يستنقذوه منه ضَعْفُ
 الطالبُ والمطلوبُ ﴿ وتختتم السورة الكريمة بدعوة المؤمنين إلى عبادة
 الله الواحد الأحد ، والجهاد في الله حق جهاده ، والاعتصام بالله
 وحده ، وفعل الخير والطاعات ، وتذكّرهم بنعمة الإسلام التي هي
 ملةُ الخليل إبراهيم عليه السلام ، ركن التوحيد وكهف العقيدة والإيمان
 ﴿ يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم وافعلوا الخيرَ
 لعلكم تفلحون . وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل
 عليكم في الدين من حَرَجٍ ، ملةَ أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين من
 قبلُ وفي هذا ليكون الرسولُ شهيداً عليكم وتكونوا شهداء على
 الناس ، فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، واعتصموا بالله هو مولاكم
 فنعم المولى ونعم النصير ﴾

(٣٣) سُورَةُ الْمُؤْمِنُونَ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْمَدَنِيُّ عَشْرَةٌ وَمِائَتَانِ

سورة «المؤمنون» من السور المكية التي عاجلت أصول الدين من التوحيد، والرسالة، والبعث، وجاءت لتوطيد الدعائم التي قام عليها صرح الإسلام المجيد، في إقامة الدلائل والبراهين على وجود الله تعالى ووحدانيته، وأسرار قدرته الفائقة في خلق الكائنات بما فيها من عجائب وغرائب، وما احتوت عليه من آيات باهرة تنطق بعظمة الله وجلاله، وكبريائه وبهائه، وما يثول إليه حال البشرية بعد انتهاء الحياة على ظهر هذا الكوكب الأرضي، حين يرجع الناس لله رب العالمين، وينقسمون فريقين: فريق في الجنة، وفريق في السعير.

سميت السورة الكريمة سورة المؤمنين لأن الله تعالى ذكر فيها جلائل أوصافهم، وكرائم صفاتهم، وعَرَضَ فيها للفضائل الإنسانية التي تحلّى بها أولئك الصفوة المؤمنون من عباد الله المخلصين ولذلك سميت «سورة المؤمنين» تخليداً لهم وإشادةً بمآثرهم وفضائلهم، روى الإمام أحمد عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه قال: «كان إذا نزل الوحي على رسول الله ﷺ يُسمع عند وجهه كدوي النحل، فبينما نحن عنده ذات يوم إذ أخذه ما يأخذه عند نزول الوحي فلبثنا ساعة ثم رفع رأسه فاستقبل القبلة ورفع يديه وقال: اللهم زدنا ولا تنقصنا، وأكرمنا ولا تهنا، وأعطنا ولا تحرمنا، وآثرنا ولا تؤثر علينا، وأرضنا وارض عنا، ثم قال: لقد أنزل علي عشر آيات من أقامهن»

دخل الجنة ثم قرأ « قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون » حتى ختم العشر .

تبتدىء السورة الكريمة بأوصاف المؤمنين العظيمة التي استحقوا بها ميراث الفردوس الأعلى في جنات الخلد مع النبيين والصديقين ﴿ قد أفلح المؤمنون . الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون . والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون . والذين هم على صلواتهم يحافظون . أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون ﴾ . ثم تنتقل الآيات الكريمة إلى بيان أدلة الوحداية في خلق الإنسان والنبات والحيوان ، وتذكر بإيضاح الأطوار التي مرَّ بها خلق الإنسان حين كان جنيناً في بطن أمه ، وتقلِّبه في صور وأشكال وهو داخل تلك الغرفة المظلمة من جرثومة صغيرة ، إلى نطفة ، إلى علقة ، إلى مضغة ثم إلى بشر سوي وإنسان سليم ، هو أثر قدرة الله العلي القدير ، وهذه الأطوار التي أشار إليها القرآن هي أحدث ما توصلت إليه النظريات العلمية الحديثة بعد أن تقدَّم علم الطب والتشريح ﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة في قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً ، ثم أنشأناه خلقاً آخر ، فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك الميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ﴾ ومن خلق الإنسان إلى خلق السموات البديعة ذات الطرائق ، وإنزال المطر مدراراً الذي فيه حياة النفوس ثم حفظه في الأرض بقدرة المولى جل وعلا ، وإخراج أنواع النبات والنخيل والأعشاب ، وكل ذلك آيات وشواهد على وحدانية الله وبديع خلقه

﴿ ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق وما كنا عن الخلق غافلين . وأنزلنا من السماء ماءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ . فَأَنشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ ، لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴾ . وبعد أن تذكر السورة الكريمة قَصَصَ بعض الأنبياء تسليّةً لرسول الله عليه الصلاة والسلام لما ناله من تكذيبٍ واستهزاء من المشركين المعاندين ، تُعَقِّبُ بهذا البيان الواضح في سنة الله في إهلاك المكذِبِينَ ﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا تَتْرًا - أَيِ يَتَّبِعُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا - كُلَّمَا جَاءَ أُمَّةٌ رُسُلُهَا كَذَّبُوهُ فَأَتْبَعْنَا بَعْضَهُمْ بَعْضًا وَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ فَبِعَدْلٍ لِقَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ . ثم تحدثت السورة عن كفار مكة واغترارهم بما آتاهم الله من متاع الدنيا وما رزقهم من المال والبنين ظناً منهم أن الله أكرمهم بهذا المال حباً لهم ﴿ فَذَرَهُمْ فِي غَمَرَتِهِمْ حَتَّى حِينٍ . أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مَالٍ وَبَنِينَ . نَسَارِعَ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ ؟ بَلِ لَا يَشْعُرُونَ ﴾ ولقد عرضت السورة لعناد المشركين ومكابرتهم بعد أن وضح لهم الحق وبان وضوح الشمس في رابعة النهار ، ومع ذلك كذبوا وعاندوا واتهموا رسول الله بالجنون ﴿ أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ أَمْ جَاءَهُمْ مَا لَمْ يَأْتِ آبَاءَهُمُ الْأَوَّلِينَ . أَمْ لَمْ يَعْرِفُوا رَسُولَهُمْ فَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ . أَمْ يَقُولُونَ بِهِ جِنَّةٌ بَلِ جَاءَهُمُ بِالْحَقِّ وَأَكْثَرُهُمُ لِلْحَقِّ كَارِهُونَ ﴾ ثم تنتقل السورة لإقامة الأدلة والبراهين على البعث وعلى وجود الله تعالى ووحدانيته وهما أهم ما يجادل فيه المبطلون من كفار قريش ﴿ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ . وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ . وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ؟ بَلِ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ . قَالُوا أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَأَنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِنْ قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ . وتحدثت السورة عن الأهوال والشدائد التي يلقاها الكفار

عند الاحتضار وهم في سكرات الموت وقد عاينوا ما كانوا ينكرونه من مقدمات العذاب وتمنّوا الرجوع إلى الدنيا ليتداركوا ما فاتهم ولكن هيهات ﴿ حتى إذا جاء أحدُهم الموتُ قال ربِّ ارجعون . لعليّ أعملُ صالحاً فيما تركتُ ، كلا إنها كلمةٌ هو قائلها ومن ورائهم برزخ إلى يوم يُبعثون ﴾ وبعد العالم المشهود يأتي العالم الموعود وهو يوم الحشر والنشر ، ويوم الجمع الأكبر حيث ينقسم الناس فريقين : سعداء ، وأشقياء ، وينقطع الحساب والنسب فلا ينفع إلا العمل الصالح ﴿ فإذا نُفِخَ في الصور فلا أنساب بينهم يومئذٍ ولا يتساءلون . فمن ثقلت موازينه فأولئك هم المفلحون . ومن خفت موازينه فأولئك الذين خسروا أنفسهم في جهنم خالدون ﴾ وتتم السورة الكريمة ببيان ذلك الموقف المخزي الرهيب لأهل النار وهم بصطرخون فيها فلا يُجابون إلا بكلمات التوبيخ والتقريع لأنهم كانوا في الدنيا مجرمين ، يسخرون من المؤمنين المتقين ويهزمون ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهُهُمُ النَّارَ وَهُمْ فِيهَا كَالْحُوتِ . أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تَكْذِبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالُوا اخْسَوْا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُوا . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ إلى قوله سبحانه ﴿ قال رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين ﴾ .

(٢٤) سورة النور
وَأَنبَأْنَاهَا أَنِجْ وَسَيَكُونُ

سورة النور من السور المدنية التي تتناول الأحكام التشريعية وتهتم بشئون التشريع ، والتوجيه ، والأخلاق ، وتُعنى بالقضايا العامة والخاصة التي ينبغي أن يُرعى عليها الأفراد والجماعات . اشتملت هذه السورة الكريمة على أحكام عامة تتعلق بالأسرة التي هي النواة الأولى للمجتمع الأكبر ، ووضّحت الآداب الاجتماعية التي يجب أن يتمسك بها المؤمنون في حياتهم العامة كالاستئذان عند دخول البيوت ، وغض البصر ، وحفظ الفروج ، وحرمة الاختلاط ، وما ينبغي أن تكون عليه الأسرة المسلمة و « البيت المسلم » من العفاف والستر ، والطهارة والنزاهة ، صيانة للأسرة ، وحفاظاً عليها من عوامل التفكك الداخلي ، والانهيار الخلقي .. وقد ذُكرت في هذه السورة الكريمة بعضُ الحدود الشرعية كحدِّ الزنى ، وحدِّ القذف ، وأحكام اللعان ، وكلُّ هذه الحدود إنما شرعت تطهيراً للمجتمع من الفساد والفوضى واختلاط الأنساب ، والتحلل الخلقي ، وحفظاً للأمة من عوامل التردّي في بؤرة الفجور والدعارة ، والإباحية والمجون ، التي تسبّب ضياع الأنساب وذهاب العرض والشرف .. وباختصار فإن هذه السورة قد عالجت ناحية من أخطر النواحي هي « ناحية الأسرة » وما يحفظها من مخاطر وأمراض اجتماعية ، وما يعترض طريقها من عقبات ومشاكل قد تؤدي بها إلى الدمار ، هذا عدا عمّا فيها من آداب سامية ، وحكم

عالية ، وإشارات دقيقة إلى أسس الحياة الفاضلة وآدابها السامية . ولهذا كتب عمر رضي الله عنه إلى أهل الكوفة : علّموا نساءكم سورة النور . سميت السورة الكريمة «سورة النور» لما فيها من إشعاعات النور الرباني ، بتشريع الأحكام والآداب الإسلامية العامة ، التي هي قبس من نور الله على عباده ، وفيض من فيوضات رحمته وجوده ، ولهذا قال تعالى في هذه السورة ﴿الله نور السموات والأرض ، مثل نوره كمشكاة فيها مصباح...﴾ اللهم نور قلوبنا بنور كتابك العظيم .

تبتدئ السورة الكريمة ببيان الحكمة الإلهية في تشريع الحدود ، وتتناول حدّ الزنى فتأمر بجلد كل من الزاني والزانية مائة جلدة إذا كانا غير محصنين ، وتحذر من التهاون أو التساهل في تطبيق الحد الشرعي فإن « جريمة الزنى » أخطر وأعظم من أن تستدرّ العطف ، أو تدفع إلى العفو عن مرتكب هذه الجريمة المنكرة ، فإن من عرف آثارها وأضرارها من تدنيس للعرض ، وضياع للأنساب ، وتعريض للأسرة إلى التحلل والدمار ، وتلطّيح لأفرادها بالعار والشنار ، عرف حكمة الله في تشريع هذا العقاب الزاجر الصارم ، ولهذا جاء البدء العجيب في هذه السورة بقوله تعالى ﴿سورة أنزلناها وفرضناها وأنزلنا فيها آيات بينات لعلكم تذكرون﴾ ثم تلاها بيان حكم الله في الزانيين ﴿الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله ، إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين﴾ ثم تنتقل إلى حدّ القذف وتبين عقوبته الزاجرة ﴿والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ، ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون﴾ . وتتحدث الآيات الكريمة عن « حادثة الإفك » وهي من أشنع وأقبح ما استهدف به المنافقون صاحب الرسالة العظمى ، حيث رموه

في أقدس شيء وأعزه ، في عِرْضه المصون ، وأهله الطاهرة البرينة ،
 السيدة عائشة بنت الصديق الأكبر رضي الله عنها ، وقصدوا بذلك أن
 يوجهوا ضربة في الصميم للنبي الكريم ، عن طريق اتهام أم المؤمنين
 السيدة عائشة بارتكابها فاحشة الزنى التي هي من أقبح الجرائم على
 الإطلاق وكان الذي تولى كِبَرُ التهمة النكراء « عبدُ الله بن أبي ابن
 سلُول » رأسُ النفاق ، ولكنَّ الله جلَّ ثناؤه كشف خبث المنافقين ،
 وبرَّ أم المؤمنين من ذلك البهتان المبين ، وجعل ذلك درساً للأجيال وعبرة
 للخلق ﴿ إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُمْ بَلْ
 هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ ، وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ
 مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ وتحضي الآيات تبين عقوبة من يحب إشاعة السوء
 بين المؤمنين ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَحْبُون أَنْ تَشِيعَ الْفَاحِشَةُ فِي الَّذِينَ آمَنُوا لَهُمْ
 عَذَابٌ أَلِيمٌ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ ثم تتوالى
 الآيات في الحديث عن هذه التهمة الشنيعة ، وتقرر مبدأ عاماً هو
 مبدأ المنطق السليم والعقل الحصيف وهو أن الجنس يألفه الجنس ، وأن
 الطيب لا يناسبه إلا الطيب ، والخبيث لا يناسبه إلا الخبيث ، ثم
 يعقبها بالبراءة لبیت النبوة ممّا رماه به المنافقون ، وتبقى براءة أم المؤمنين
 عائشة رضوان الله عليها وحياً يتلى وقرآناً يتعبد الناس بتلاوته ﴿ الْخَبِيثَاتُ
 لِلْخَبِيثِينَ وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ ،
 أُولَئِكَ مَبْرُؤُونَ مِمَّا يَقُولُونَ ، لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴾ وكفى بذلك
 شرفاً وفخاراً لأمهات المؤمنين الطاهرات . ثم تتحدث السورة الكريمة
 عن آداب دخول البيوت بالاستئذان والسلام على أهلها وعدم اقتحام
 البيوت قبل الإذن بالدخول ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا بُيُوتًا
 غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّى تَسْتَأْذِنُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَى أَهْلِهَا ، ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ
 كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ . فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا فِيهَا أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّى يُؤْذَنَ لَكُمْ ،

وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم ﴿١٠٤﴾
 ولما كان الرنى طريقه الخلوة ، والنظر إلى الأجنبية ، والاطلاع على
 العورات ، أمر تعالى بغض النظر لكل من الرجل والمرأة ، وذلك مما
 يصون الكرامة ، ويحفظ العرض والشرف ﴿١٠٥﴾ قل للمؤمنين يغضوا من
 أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون .
 وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدین
 زينتهن إلا ما ظهر منها .. ﴿١٠٦﴾ ولقد عالجت السورة الكريمة « موضوع الزواج »
 فأمرت بتيسير أسبابه لأنه هو الطريق السليم للتناسل ، وعمران الأرض
 بالذرية الصالحة ، ولا يصح أن يكون الفقر مانعاً من تزويج الأكفاء ،
 ولا أن يكون غلاء المهور عقبة في طريق الزواج ، فإن الغريزة الجنسية
 إذا لم تجد لها متنفساً عن طريق نظيف شريف طغت وتمردت وسلكت
 طريق الفاحشة ، فلا عجب إذاً أن نرى القرآن يحض على إنكاح
 الشبان والشابات وتيسير أسباب الزواج لكل راغب في التعفف ﴿١٠٧﴾ وأنكحوا
 الأيامي منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء
 يغفرهم الله من فضله ، والله واسع عليم ﴿١٠٨﴾ . وتختتم السورة الكريمة - بعد
 ذكر طائفة من الأحكام التشريعية - بوجوب احترام أمر الرسول ﷺ
 وتعظيمه وإجلاله لأنه رسول الله فأمره جليل وحقه عظيم على المؤمنين
 ﴿١٠٩﴾ لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً ، قد يعلم الله
 الذين يتسللون منكم لو اذاً ، فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم
 فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴿١١٠﴾

(٢٥) سُورَةُ الْفُرْقَانِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأْنَا هَاسِجٌ وَسَبْعُونَ

سورة الفرقان من السور المكية التي تُعنى بأمور العقيدة وأصول الإيمان ،
وتعالج شبهات المشركين حول الوحدانية ، والرسالة ، والبعث والجزاء ،
وحول القرآن العظيم معجزة محمد الخالدة . سميت سورة الفرقان
لأن الله تعالى فرق فيها بين الهدى والضلال ، والحق والباطل ، وسُمي
القرآن فرقاناً لأنه هو الفارق بين الحق والباطل ، والظلام والنور ،
والإيمان والكفر ، ولما كان القرآن العظيم نعمة الله الكبرى على الإنسانية
لذلك بدأت السورة الكريمة بتمجيد الإله الذي أنزل هذا الكتاب فاصلاً
وفارقاً بين دعوة الخير ودعوة الشر ، وبين نور الإيمان وظلمة الكفر
والطغيان ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا .
الَّذِي لَهُ مَلِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ
فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ وقد تحدثت السورة الكريمة
عن الوحي ، والقرآن ، والرسالة المحمدية ، ولعلَّ محور هذه السورة
يدور حول هذه الأمور الثلاثة كما يدور حول عقيدة البعث والنشور .
أمَّا القرآن فلقد تفضَّن المشركون في الطعن فيه والاستهزاء بآياته ، فتارةً
يزعمون أنه كذبٌ وبهتانٌ افتراه محمد وأعانه عليه بعض أهل الكتاب ،
وتارةً يزعمون أنه أساطيرُ الأولين ، وحكاياتُ الغابرين ، وأخرى
يزعمون أنه سحرٌ وكهانة ، وقد ردَّ الله تبارك وتعالى عليهم هذه المزاعمَ
الكاذبة ، والأوهام التي لا تستند على دليل أو برهان ، ويبيِّن أنَّ هذا

القرآن تنزيل من الرحمن الرحيم ، الذي يعلم السر وأخفى ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ، فقد جاءوا ظلماً وزوراً . وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً . قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ﴾ . وانتقل الآيات الكريمة للحديث عن الرسالة وعن الرسول ، فقد عز على المشركين أن يأتيهم رسول من البشر ، واقتربوا أن يكون من الملائكة أو يكون من البشر الأثرياء ، لا من الفقراء الذين لا يملكون القصور الشاهقة والبساتين الغناء ، وقد حكى القرآن الكريم شبهتهم ورد عليها بالبرهان القاطع والحجة الدامغة ﴿ وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ! لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً ؟ أو يلقى إليه كثر أو نكون لهجنة يأكل منها ؟ وقال الظالمون إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً . انظروا كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا فلا يستطيعون سبيلاً ﴾ ثم نبهت الآيات على فضل الله العظيم على رسوله الكريم ، فلو شاء الله لاتاه في الدنيا خيراً مما يقترحون ، القصور والجنان ، والأنهار والعيون ﴿ تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك ، جنات تجري من تحتها الأنهار ويجعل لك قصوراً ﴾ ثم نبهت إلى سبب هذا التكذيب والجدال بالباطل وهو عدم اعترافهم بالبعث بعد الفناء وإنكارهم للآخرة ﴿ بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً . وإذا ألقيوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً . لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وادعوا ثبوراً كثيراً ﴾ .

وتتحدث الآيات عن مشهد من مشاهد الطغيان ، لفريق من المشركين الذين عرفوا الحق وأقروا به ثم انتكسوا إلى جحيم الضلال ، وتذكر قصة « عَقْبَةُ بْنُ أَبِي مُعَيْطٍ » الذي كان جاراً لرسول الله ﷺ وكان

يُكثر مجالسة النبي عليه السلام ، فصنع عُقْبَةُ ذاتَ يومَ طعاماً ودعا إليه الناس ودعا كذلك رسول الله ﷺ فأبى رسول الله أن يأكل من طعامه حتى يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسولُ الله ، فشهد بذلك وأسلم ، وكان صديقُه «أُبَيُّ بْنُ خَلَفٍ» غائباً في سفر فلما حضر وأخبر بإسلام عُقْبَةَ جاء إليه وقال له : وجهي من وجهك حرام إن لم تكفر بمحمد وترُدَّ عليه دعوته ، ففعل الشقي ما أشار عليه به صديقُه فارتدَّ عن الإسلام وكفر بعد أن هداه الله ، وقد سمَّاه القرآن الكريم بالظالم لأنه ظلم نفسه بأقبح أنواع الظلم فكفر بعد الإيمان ، وشقي بعد السعادة ﴿ وَيَوْمَ يَعْصُ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً . يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا . لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنْ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي ، وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا ﴾ وكان آخر أخبار هذا الشقي أن قُتِلَ ببدر بعد وقوعه في الأسر كافراً . وتنتقل السورة الكريمة للحديث عن قَصَصَ بعض الأنبياء ، ثم تذكر الأمم المدمرة من الغابرين الذين استهزءوا بدعوة الرسل وكذبوا بآيات الله فحقَّ عليهم عذاب الله العاجل وهم قوم نوح ، وعاد ، وثمود ، وأصحاب الرِّسِّ الذين أَلْقَوْا نَبِيَّهم في البئر ، وقوم لوط ، وغيرهم من الكافرين الجاحدين ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيْرًا . فَقُلْنَا اذْهَبَا إِلَى الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا فَدَمَّرْنَاهُمْ تَدْمِيرًا . وَقَوْمَ نُوحٍ لَمَّا كَذَبُوا الرِّسْلَ أَغْرَقْنَاهُمْ وَجَعَلْنَاهُمْ لِلنَّاسِ آيَةً ، وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا . وَعَادًا وَثَمُودَ وَأَصْحَابَ الرِّسِّ ، وَقُرُونًا بَيْنَ ذَلِكَ كَثِيرًا . وَكَلَّا ضَرَبْنَا لَهُ الْأَمْثَالَ وَكَلَّا تَبَرَّنَا تَتَّبِعِرَا ﴾ وتحدث السورة الكريمة عن دلائل قدرة الله ووحدانيته ، وعن عجائب صنعه في هذا الكون البديع الذي هو أثر من آثار قدرة الله ، وشاهدٌ من شواهد العظمة والجلال ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ ، وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ، ثُمَّ جَعَلْنَا

الشمس عليه دليلاً ، ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً . وهو الذي أرسل الرياح بُشْراً بين يَدَيْ رَحْمَتِهِ ، وأنزلنا من السماء ماءً طَهُوراً . لِنُحْيِيَ بِهِ بَلَدَةً مَبْتَأً وَنُسْقِيَهُ مِمَّا خَلَقْنَا أَنْعَاماً وَأَنَا سَيِّ كَثِيرٌ ﴿١﴾ ونختم السورة الكريمة - بعد مظاهر القدرة العظيمة - ببيان صفات عباد الرحمن الذين خصَّهم الله بالأخلاق الحميدة ، والسجايا العظيمة ، والاستقامة في هذه الحياة على شريعة الله ، وتذكر ما أعدَّ الله لهم من الأجر العظيم في جنات النعيم ﴿٢﴾ وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هَوْنًا وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً . والذين يبيتون لربهم سُجَّدًا وَقِيَامًا . والذين يقولون رَبَّنَا اصْرَفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنْ عَذَابُهَا كَانَ غَرَامًا . إنها ساءت مستقراً ومُقَاماً ﴿٣﴾ إلى قوله تعالى ﴿٤﴾ أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بما صَبَرُوا وَيُلْقَوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا . خالدين فيها حَسَنَتٌ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . قل ما يَتَّبِعُكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ ، فقد كَذَّبْتُمْ فسوف يكون لزاماً ﴿٥﴾ ..

(٣٦) سُورَةُ الشُّعَرَاءِ الْمَكِّيَّةُ
وَأَنبَاءُهَا يَسْتَفِيدُ وَعَشْرُونَ وَمِائَتَانِ

سورة الشعراء من السور المكية التي أنزلت قبل الهجرة ، وتعرضت
لنفس الأهداف والأغراض التي تناولتها السور المكية ، من الإيمان
بالله ، واليوم الآخر ، والبعث بعد الفناء ، وموضوع الوحي والرسالة ،
والتذكير والإنذار ، وقصص الأنبياء وأخبار القرون الماضية مما هو من
خصائص السور المكية .. سُميت سورة الشعراء لأن الله تعالى ذكر
فيها أخبار الشعراء ردّاً على المشركين في زعمهم أن محمداً ﷺ كان
شاعراً وأن ما جاء به إنما هو من قبيل الشعر ، فردّ الله عليهم هذا الكذب
والبهتان بقوله ﴿ وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ . أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ
يَهِيمُونَ . وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ ﴾ ؟ وبذلك وضح الحق وبان
بتمييز الرسل عن الشعراء ، تبرئة لمقام الرسول عليه السلام ، لأن
الشاعر إن كان كاذباً فهو رئيس الغواية ولا يُتصور فيه الهداية والإرشاد ،
وإن كان صادقاً فلا يُتصور فيه الكذب والافتراء على الله ، وهذا من
أعظم الدلائل على صدق النبي العظيم عليه أفضل الصلاة والتسليم .
تبتدىء السورة الكريمة بموضوع القرآن العظيم الذي أنزله الله هدايةً
للخلق ، وبأسماً شافياً لأمراض البشرية ، وتذكر موقف المشركين
منه ، فقد كفروا به مع وضوح آياته ، وسطوع براهينه وحججه ،
وطلبوا آية أخرى غير هذا القرآن ، وهو أكبر الآيات وأعظم المعجزات
الدالة على صدق النبي الأمي ﷺ . تلك آيات الكتاب المبين . لَعَلَّكَ

باخِعُ نَفْسِكَ أَلَّا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ . إِنْ نَشَأْ نُثَرِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً
 فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ . وما يأتيهم من ذِكْرٍ من الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٌ
 إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مُعْرِضِينَ . فقد كَذَّبُوا فسيأتهم أنباء ما كانوا به يستهزئون ﴿
 ومن الحديث عن القرآن ينتقل الحديث إلى الأنبياء والمرسلين ، الذين
 بعثهم الله لهداية الإنسانية على مَرِّ العصور ، وكرِّ الدهور ، وتبتدىء
 بقصة « موسى الكليم » مع فرعون الطاغية الجبار ﴿ وإِذْ نَادَى رَبُّكَ مُوسَى
 أَنْ أَتِ الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ . قَوْمَ فِرْعَوْنَ أَلَا يَتَّقُونَ ؟ قَالَ رَبِّ إِنِّي أَخَافُ أَنْ
 يُكَذِّبُونِ . وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنْطَلِقُ لِسَانِي فَأَرْسِلْ إِلَى هَارُونَ .
 وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ ﴾ وتحدث السورة عما جرى من
 المحاورة والمداورة بين موسى وفرعون ، وتعرِّض للحجة الدامغة التي
 أيد الله بها الكليم ، والسَّفَهَ والمغالطة التي بدت في كلام فرعون بقصد
 إطفاء نور الحق ، استمع إلى هذه المحاورة التي حدثت عنها القرآن
 الكريم ﴿ قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ؟ قَالَ : رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ
 وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ . قَالَ لِمَنْ حَوَّلَهُ : أَلَا تَسْتَمْعُونَ ؟ قَالَ رَبُّكُمْ
 وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ . قَالَ إِنْ رَسُولُكُمْ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ . قَالَ
 رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ . قَالَ لئن اتخذت إلهًا
 غيري لأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ ﴾ وتنتهي القصة ومعها العظة والعبرة
 بهلاك فرعون وجنوده بالغرق ، وإنجاء الله لموسى والمؤمنين . ويتضح
 المحقُّ والمبطل ، والفائز والهالك بعد انكشاف الغطاء عن حفظ الله
 لأوليائه وإهلاكه لأعدائه ﴿ فَاتَّبَعُوهُمْ مَشْرِقِينَ . فَلَمَّا تَرَاءَ الْجَمْعَانِ قَالَ
 أَصْحَابُ مُوسَى إِنَّا الْمَدْرُكُونَ . قَالَ كَلَّا إِنْ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ . فَأَوْحَيْنَا
 إِلَى مُوسَى أَنْ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ
 الْعَظِيمِ . وَازْلَفْنَا ثُمَّ الْآخَرِينَ . وَأَنْجَيْنَا مُوسَى وَمَنْ مَعَهُ أَجْمَعِينَ . ثُمَّ
 أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ . إِنْ فِي ذَلِكَ آيَةٌ - أي لعبرة - وما كان أكثرهم

مؤمنين ﴿ وتنتقل السورة الكريمة إلى قصة الخليل إبراهيم السلام ،
فتقرر دعوته الكريمة وهي « دعوة التوحيد » وموقفه من قومه وأبيه
في عبادتهم للأوثان والأصنام ، وتقرر الحجة الدامغة التي جابههم بها
في عبادتهم ما لا يسمع أو ينفع ثم دعوته لهم إلى عبادة الواحد القهار
﴿ واتل عليهم نبأ إبراهيم . إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون ؟ قالوا نعبد
أصناماً فظنل لها عاكفين . قال هل يسمعونكم إذ تدعون ؟ أو ينفعونكم
أو يضرون ؟ قالوا بلى وجدنا آباءنا كذلك يفعلون ﴾ وبعد تلك المجادلة
والمحاورة بقيم لهم الأدلة على وحدانية الله ، فليس هناك معبود إلا
الذي بيده النفع والضر ، والإطعام والشفاء ، والإماتة والإحياء ﴿ الذي
خلقني فهو يهدين . والذي هو يطعمني ويسقي . وإذا مرضت فهو
يشفين . والذي يميتني ثم يحيين . والذي أطعم أن يغفر لي خطيئتي يوم
الدين ﴾ ثم تنتقل السورة للحديث عن الجنة والنار ، وعن السعداء
والأشقياء ، وعن أحوال أهل الجحيم وهم في دركاتهم يذوقون أنواع
العذاب والنكال ، وقد حشروا مع جنود إبليس اللعين ﴿ وأزلفت
الجنة للمتقين . وبُرزت الجحيم للغاوين . وقيل لهم : أين ما كنتم
تعبدون من دون الله ، هل ينصرونكم أو ينتصرون ؟ فككبوا فيها
هم والغاؤون . وجنود إبليس أجمعون ﴾ .

وبعد أن تذكر السورة طائفة من الرسل الكرام « نوح ، هود ، صالح ،
لوط ، شعيب » وما نال أقوامهم المكذبين من الخزي والعذاب والدمار
نتيجة الكفر والتكذيب لرسل الله .. يأتي الحديث عن صدق القرآن ،
المنزل بالحق من الرحمن ، وعن موقف كفار قريش منه وأنهم كذبوه
فسيحل بهم ما حل بمن سبقهم ﴿ وإنه لتزِيلُ رب العالمين . نزل به
الروح الأمين . على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين . وإنه
لفي زبر الأولين . أو لم يكن آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل ؟ ولو

نزلناه على بعض الأعجمين . فقرأه عليهم ما كانوا به مؤمنين . كذلك
 سلكناه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم ﴿١﴾ .
 ولقد زعم المشركون أن هذا القرآن من وحي الشياطين ، فجاءت
 السورة الكريمة تقرّر أن الشياطين معزولون عن السمع ، لا يستطيعون
 أن يصلوا إلى الملائكة الأعلى ، وتأمر الرسول عليه السلام أن يُنذر ويحذّر
 عشيرته الأقربين ، ولا يخشى من أذى المشركين فالله حافظه وناصره
 ﴿وما تنزل به الشياطين﴾ وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن
 السمع لمعزولون . فلا تدع مع الله الها آخر فتكون من المعدّبين . وأنذر
 عشيرتك الأقربين . واخفض جناحك لمن اتبعك من المؤمنين . فإن عصوك
 فقلّني بريء مما تعملون . وتوكل على العزيز الرحيم . الذي يراك
 حين تقوم . وتقلبك في الساجدين ﴿وتختم السورة الكريمة بتتزيه
 القرآن عن ذلك الافتراء والبهتان الذي زعمه المشركون وهو أن
 الشياطين تنزل بالقرآن على سيد المرسلين﴾ هل أنبئكم على من تنزل
 الشياطين ؟ تنزل على كلّ آفاك أثم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون .
 والشعراء يتبعهم الغاؤون . ألم تر أنهم في كل وادٍ يهيمون . وأنهم
 يقولون ما لا يفعلون . إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، وذكروا
 الله كثيراً وانتصروا من بعد ما ظلموا ، وسيعلم الذين ظلموا أيّ
 منقلب ينقلبون ﴿

(٢٧) سُورَةُ النَّمْلِ
وَأَنبِئَ الْهَاسِلِينَ

سورة النمل من السور المكية التي عاجلت أصول الدين من التوحيد ،
والرسالة ، والبعث . وهي إحدى سور ثلاث نزلت متتالية ، ووُضعت
في المصحف الشريف متتالية وهي « الشعراء ، والنمل ، والقصاص »
ويكاد يكون منهاجها واحداً في سلوك مسلك العظة والعبرة عن طريق
قصاص الغابرين . سُميت سورة النمل لأن الله تعالى ذكر فيها حديث
النملة وكلامها حين مرَّ سليمان بجنوده على وادي النمل فسمع كلامها
وفهم مرادها ، وفي هذا أعظم الدلالة على علم الحيوان وتجاوبه فيما
بينه ، وأنَّ الله تعالى أعطى سليمان علم منطلق الطير والحيوان ، وفي
هذا يقول القرآن الكريم ﴿ وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ
وَالنَّارِ فَهُمْ يَوَازِعُونَ . حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ
ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطُمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ .
فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي
أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ
فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ تبدىء السورة الكريمة بدءاً له شبه بسورة
الشعراء ، وذلك بإثبات عظمة القرآن وصدق النبي عليه الصلاة
والسلام ﴿ طَسَّ تِلْكَ آيَاتُ الْقُرْآنِ وَكِتَابٍ مُبِينٍ . هُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُؤْمِنِينَ . الَّذِينَ يُتِمُّونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ بِالْآخِرَةِ هُمْ
يُوقِنُونَ ... ﴾ إلى قوله تعالى ﴿ وَإِنَّكَ لَتُلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ

عليهم ﴿ ثم تتحدث عن قصة موسى عليه السلام .. والجدير بالذكر أنه
 تكرر القصص في القرآن الكريم ، وبخاصة قصة موسى مع فرعون
 ولكنه جاء في أعلى درجات الفصاحة والبيان ، في كل موطن من
 المواطن التي تتناول فيها القرآن قصته ، وأفصحُ الفصحاء ، وأبلغُ
 البلغاء لا يستطيع أن يعرض الموضوع الواحد بأساليب مختلفة مع
 المحافظة على الجوهر وعلى قوة الأسلوب والبيان ، إذ ليس ذلك من
 الأمور السهلة التي هي في متناول البشر ، وإنما ذلك من خصائص
 الأسلوب القرآني ، للإشارة إلى إعجاز القرآن ، أضف إلى ذلك أن
 ما جاء مُجْمَلًا في مكان جاء مفصلاً في مكان آخر ، وأن القرآن يورد
 جزءاً من القصة للعة والعبرة ثم يورد تمام القصة في مكان آخر لأن
 المقام يقتضيه .. وهكذا ذكر تعالى هنا قصة موسى بإيجاز بدءاً من
 تكليفه بالرسالة وإمداده بالمعجزات الباهرة ، إلى أن أمر بتبليغ الدعوة
 إلى فرعون وأمس الطغيان ، ثم يأتي التعقيب المباشر بعد سرد القصة
 بقوله ﴿ فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها
 واستيقنتها أنفسهم ظلماً وعلوًّا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين ﴾
 ثم تتحدث السورة عن « داود » وولده « سليمان » وكلاهما نبي كريم
 من الأنبياء العظام ، وقد خصهما الله بخصائص كريمة وأعطاهما مع
 النبوة الملك ﴿ ولقد آتينا داود وسليمان علماً وقالوا الحمد لله الذي
 فضلنا على كثير من عباده المؤمنين . وورث سليمان داود وقال يا أيها
 الناس علمنا منطق الطير ، وأوتينا من كل شيء ، إن هذا لهو الفضل
 المبين ﴾ وتذكر السورة قصة سليمان مع بلقيس ملكة سبأ ، وهي قصة
 رائعة فيها مغزى دقيق للملوك والعظماء ، وفيها بيان لسعة ملك سليمان
 حيث امتد من بيت المقدس إلى أقاصي اليمن ، ودانت له الملوك
 والأمراء ، وقد اتخذ الملك وسيلة لدعوة الناس إلى الله ، فلم يترك

مَلِكًا كَافِرًا ، وَلَا حَاكِمًا جَائِرًا ، وَلَا سُلْطَانًا ذَا بَأْسٍ وَقُوَّةٍ إِلَّا وَدْعَاهُ
إِلَى الدِّخْوَلِ فِي الْإِسْلَامِ ، فَمَنْ لَمْ يَجِبْهُ كَانَ السِّيفُ هُوَ الْحَكَمُ الْفَصْلُ ،
وَهَكَذَا كَانَ شَأْنُهُ مَعَ بَلْقِيسَ ﴿ قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيْكِ كِتَابٌ كَرِيمٌ .
إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . أَلَّا تَعْلَمُونَ عَلَيَّ وَأَتُونِي
مُسْلِمِينَ . قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنْتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى
تَشْهَدُونَ . قَالُوا نَحْنُ أُولُو قُوَّةٍ وَأُولُو بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانْظُرِي
مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴾ وَتَنْتَهِي الْقِصَّةُ بِدِخْوَلِ بَلْقِيسَ فِي الْإِسْلَامِ ، وَتَرْكِهَا
لِعِبَادَةِ الْأَوْثَانِ وَتَأْتِي مَعَ جَنْدِهَا إِلَى سُلَيْمَانَ طَائِعَةً خَاضِعَةً ﴿ وَصَدَّهَا مَا
كَانَتْ تَعْبُدُ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ كَافِرِينَ . قِيلَ لَهَا ادْخُلِي
الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَنْ سَاقِهَا ، قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ
مُمَرَّدٌ مِنْ قَوَارِيرَ ، قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ
رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ وَتَنْتَقِلُ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ لِذِكْرِ قِصَصِ بَعْضِ الْأَنْبِيَاءِ بِإِيجَازٍ
كَقِصَّةِ صَالِحٍ وَقِصَّةِ لُوطٍ ثُمَّ تُعَقَّبُ بِذِكْرِ الدَّلَائِلِ وَالْبُرَاهِينِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ
اللَّهِ وَوُجُودِهِ مِنْ آثَارِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ
الَّذِينَ اصْطَفَى ، اللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ؟ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ
وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ ، مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ
تَنْبِتُوا شَجَرَهَا ؟ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ . أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ
قَرَارًا ، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا ، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيًّ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ
حَاجِزًا ؟ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . أَمَّنْ يَجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا
دَعَاهُ ، وَيَكْشِفُ السُّوءَ ، وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ؟ إِلَهٌ مَعَ اللَّهِ ؟ قَلِيلًا
مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ . وَعَرَضَتْ السُّورَةُ إِلَى مَا يَخْتَصُّ بِجَانِبِ الْبَعْثِ وَإِنْكَارِ
الْقَوْمِ لَهُ وَسَخَرِيَّتِهِمْ بِهِ ، وَذَكَرَتْهُمْ بِعَاقِبَةِ أَسْلَافِهِمُ الْمَكْذِبِينَ ﴿ وَقَالَ
الَّذِينَ كَفَرُوا إِذَا كُنَّا تُرَابًا وَآبَاؤُنَا أَتْنَا مُخْرَجُونَ ؟ لَقَدْ وَعَدْنَا هَذَا نَحْنُ
وَأَبَاؤُنَا مِنْ قَبْلُ ، إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ . قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ



فانظروا كيف كان عاقبة المجرمين ﴿ ثم تسوق السورة بعض الأهوال
والمشاهد التي يراها الظالمون في ذلك اليوم الرهيب ، يوم الحشر الأكبر
حيث يفزعون ويضطربون ، ويأتون ربهم داخرين ذليلين ﴿ ويوم
يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ
اللَّهُ ، وَكُلُّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ . وترى الجبالَ تَحْسِبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ
السَّحَابِ ، صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ ، إنه خيرٌ بما تفعلون ﴿ ثم
تختتم السورة الكريمة ببيان انقسام الناس إلى فريقين : فريق السعداء
الآمنين من عذاب الله ، وفريق الأشقياء الذين يُكَبُّونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ
فِي جَهَنَّمَ ، وتأمر الرسول ﷺ أَنْ يُعْلَنَ عِبَادَتُهُ لِلَّهِ ، واستمساكه
بِالْإِسْلَامِ ، وَأَنْ مَنْ اهْتَدَى فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَعَلَيْهَا ، وحسابُ الخلائقِ
إِلَى اللَّهِ تَعَالَى ﴿ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَهُمْ مِنْ فَزَعٍ يَوْمَئِذٍ
آمِنُونَ . وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَكُبَّتْ وَجُوهُهُمْ فِي النَّارِ ، هَلْ تُجْزَوْنَ إِلَّا
مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ رَبَّ هَذِهِ الْبَلَدَةِ الَّذِي حَرَّمَهَا وَلَهُ
كُلُّ شَيْءٍ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ . وَأَنْ أَتْلُوَ الْقُرْآنَ فَمَنِ اهْتَدَى
فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ ، وَمَنْ ضَلَّ فَقُلْ إِنَّمَا أَنَا مِنَ الْمُنْذِرِينَ . وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ
سِيرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿

(٢٨) سُورَةُ الْقَصَصِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَمَانِيْنَ وَمِائَتَانِ

سورة القصص من السور المكية التي تُعنى بأصول الدين من التوحيد ،
والرسالة ، والبعث والجزاء كسائر السور المكية ، وهي تتفق في
منهجها وهدفها مع سورتي النمل ، والشعراء كما اتفقت في جو
التزول ، ويُلاحظ أن اللاحقة منها تكمّل أو تُفصّل ما أُجمل في السورة
قبلها ، ولعلّ ما ذكرته سورة القصص من قصة موسى مع فرعون يتضح
في كثير منه أنه تتميم وتكميل لما أُجمل في السورتين قبلها . سُميت سورة
القصص لأن الله تعالى ذكر فيها قصص نبيّ الله موسى الكليم وأحواله
وأطواره ، من حين ولادته ، ونشأته إلى حين أن بُعث رسولاً إلى
نبي إسرائيل ، وحياته سلسلة متصلة الحلقات ، وفيها من غرائب
الأحداث ما يتجلى فيه بوضوح عناية الله بأوليائه وخذ لانه لأعدائه .
وقصة موسى مع فرعون ليست قصة نبيّ كريم مع جبار عظيم ، إنما
هي قصة تصوّر حقيقة واقعية أليمة ، تتكرر في كل زمان ومكان ،
وهي قصة الصراع بين الحق والباطل ، والمعركة الضارية بين جند
الرحمن وجند الشيطان ، تلك المعركة التي قامت بين أولياء الله وأعداء
الله منذ فجر هذا الوجود ، ومنذ أن ظهر على مسرح الحياة الأنبياء
 والمرسلون ، والدعاة والمصلحون ! !

تبتدئ السورة الكريمة ببيان منطق الطغيان الذي لا يفهم حجة ولا
برهاناً ، ولا يقيم وزناً لمنطق أو عدالة ، إنما طريقه البطش والإرهاب

والتعذيب والتنكيل ﴿طسم﴾ تلك آيات الكتاب المبين . نتلو عليك من
نبا موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون . إنَّ فرعونَ علَا في الأرضِ
وجعل أهلها شيعاً ، يستضعف طائفةً منهم يُدبِّع أبناءهم ويستحجي
نساءهم ، إنه كان من المفسدين ، ونريدُ أنْ نَمُنَّ على الذين استضعفوا
في الأرضِ ونجعلهم أئمةً ونجعلهم الوارثين . ونمكن لهم في الأرضِ
ونريَ فرعونَ وهامانَ وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون ﴿

وتنتقل الآيات الكريمة للحديث عن ميلاد موسى وخوف أمه عليه من
بطش فرعون فقد كان يقتل ذكور بني إسرائيل ، ولكنَّ الله العظيم
القدير طمأنها إلى أنه حافظ لهذا الطفل لأن له شأنًا عظيمًا ، وألمها أن
ترضعه حتى إذا خشيت من زبانية فرعون عليه وضعته في صندوق
ثم ألقت به في نهر النيل فسيرده الله إليها ﴿وأوحينا إلى أم موسى أنْ
أرضعيه ، فإذا خفتِ عليه فالقيه في اليم ، ولا تخافي ولا تحزني إنا
رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين﴾ وصدق وعدُّ الله مع أم موسى
فردَّه إليها واحتضنته لترضعه في بيت فرعون مع الإكرام لها والإنعام ،
ورعاه الله حتى نبت في بيت فرعون كريحانة زكية تنبت في تربة مليئة
بالأشواك والأقذار ﴿فالتقطه آلُ فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ،
إن فرعونَ وهامانَ وجنودهما كانوا خاطئين...﴾ إلى قوله تعالى
﴿فرددناه إلى أمه كي تقرَّ عينها ولا تحزن ، ولتعلم أن وعد الله حقٌّ
ولكن أكثرهم لا يعلمون﴾ وتتحدث الآيات الكريمة عن بلوغ موسى
سنَّ الشباب ، وقتله للقبطي الذي رآه يعتدي على الاسرائيلي ، ثم هربه
إلى أرض مدين ، ولم يكن قتله للقبطي إلا خطأ كما دلَّ عليه التعبير
القرآني ﴿ودخل المدينة على حين غفلةٍ من أهلها فوجدَ فيها رجلين
يقتلان ، هَذَا من شيعته وهذا من عدوه ، فاستغاثه الذي من شيعته
على الذي من عدوه فوَكَّرَه موسى فقصَّى عليه ، قالَ هذا من عملِ

الشیطان إِنَّهُ عَدُوٌّ مُضِلٌّ مُبِينٌ ﴿١﴾ وَالْوَكُورُ الضُّرْبُ يُجْمَعُ الْيَدُ وَهُوَ فِي الْعَادَةِ لَا يَقْتُلُ وَإِنَّمَا صَادَفَتْ قَضَاءً وَقَدَرًا فَكَانَتْ الْقَاضِيَةُ . ثُمَّ تَتَحَدَّثُ الْآيَاتُ عَنْ هَجْرَةِ مُوسَى إِلَى أَرْضِ مَدْيَنَ خَوْفًا مِنْ بَطْشِ قَوْمِ فِرْعَوْنَ ، وَرُوحِهِ بَابَنَةِ شَعِيبٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَتَكْلِيفِ اللَّهِ تَعَالَى لَهُ بِالْعُودَةِ إِلَى مِصْرَ لِدَعْوَةِ فِرْعَوْنَ وَقَوْمِهِ إِلَى الْإِيمَانِ ، ثُمَّ تُعَقِّبُ عَلَى عَتْوِ فِرْعَوْنَ وَطُغْيَانِهِ وَإِغْرَاقِ اللَّهِ لَهُ مَعَ جُنْدِهِ بِقَوْلِهِ ﴿وَاسْتَكْبَرَ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ وَظَنُّوا أَنَّهُمُ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ . فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ ، فَانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ . وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ . وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً ، وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٢﴾ .

مِنْ عَجَائِبِ الْأَقْدَارِ أَنَّ أُمَّ مُوسَى أَلْقَتْ وَلَدَهَا فِي الْبَحْرِ فَنَجَّاهُ اللَّهُ ، وَأَنَّ فِرْعَوْنَ كَانَ يَتَعَالَى وَيَتَعَاضَّمُ بِمُلْكِهِ وَبِالْأَنْهَارِ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِ وَيَقُولُ « أَلَيْسَ لِي مُلْكٌ مِصْرَ وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلَا تُبْصِرُونَ » ؟ فَأَهْلَكَهُ اللَّهُ بِالْغَرَقِ وَابْتَلَعَتْهُ الْبَحَارُ ، ثُمَّ نَجَّى اللَّهُ بَدَنَهُ فِي هَذَا أَكْبَرَ عِبَرَةٍ لِمَنْ أَرَادَ أَنْ يَذْكُرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا . . . ثُمَّ تَتَحَدَّثُ الْآيَاتُ عَنْ كِفَارِ مَكَّةَ ، وَوَقُوفِهِمْ فِي وَجْهِ الدَّعْوَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ ، وَتَبَيَّنَ أَنَّ مَسْلِكَ أَهْلِ الضَّلَالِ وَاحِدَ ، وَحُجَّتِهِمُ الزَّائِفَةُ وَاحِدَةٌ ، تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ فَتَشَابَهَتْ أَقْوَالُهُمْ ، أَنْكَرَ أَسْلَافَهُمْ دَعْوَةَ مُوسَى وَأَنْكَرُوا هُمْ دَعْوَةَ مُحَمَّدٍ ، فَلَا تَبْتَئِسْ يَا مُحَمَّدُ بِتَكْذِيبِهِمْ وَطُغْيَانِهِمْ فَسَنَةُ اللَّهِ لَا تَتَخَلَّفُ فِي إِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ ﴿٣﴾ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا ، فَتِلْكَ مَسَاكِينُهُمْ لَمْ تُسْكَنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ . وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى حَتَّى يَبْعَثَ فِي أُمَمٍ رَسُولًا يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا ، وَمَا كُنَّا مُهْلِكِي الْقُرَى إِلَّا وَأَهْلُهَا ظَالِمُونَ ﴿٤﴾ . وَتَنْتَقِلُ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ إِلَى الْحَدِيثِ عَنْ « قِصَّةِ قَارُونَ » وَهِيَ قِصَّةُ لَهَا ارْتِبَاطٌ وَثِيقٌ بِالْبَغْيِ وَالطُّغْيَانِ ، فَكَمَا يَكُونُ الطُّغْيَانُ بِالْجَاهِ وَالسُّلْطَانِ ،

كذلك يكون بالثروة والمال ، فهذا قارون الذي اتخذ نِعَمَ الله سبيلاً
لكيد عباد الله ، أنعم الله عليه بمالٍ تعجز الجماعة القوية عن حمل
خزائنه أو حمل مَفَاتِحِهَا ولكنه طغى وبغى فكانت عاقبته الهلاك والدمار
﴿إِنْ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ
مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ ، إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنْ أَلْفَ لَآ
يَحِبُّ الْفَرِحِينَ . وَابْتَغَ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ، وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ
مِنَ الدُّنْيَا ، وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ، وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنْ
أَلْفَ لَآ يَحِبُّ الْمُفْسِدِينَ . قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي ، أَوَلَمْ يَعْلَمْ
أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً ؟
وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴾ وكانت نتيجة هذا الطغيان الخسفُ
والهَوَانُ ﴿فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ
دُونِ اللَّهِ ، وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ ﴾ وهكذا تكون عاقبة من تكبرَ
وتجبرَ ، وطغى بماله واستعلى على عباد الله . وتختتم السورة الكريمة
بالإرشاد إلى أساس الخير والسعادة في الدنيا والآخرة ﴿تِلْكَ الدَّارُ
الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَاداً وَالْعَاقِبَةُ
لِلْمُتَّقِينَ ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ
شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ ، لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ .. ﴾

(٢٩) سُورَةُ الْعَنْكَبُوتِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأَهَا الْمَسِيحُ وَتَسْمِيَتُهُ

سورة العنكبوت مكية وموضوعها هو عقيدة في أصولها الكبرى « الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والبعث والجزاء ، والإيمان بالرسول والكتب » شأنها كسائر السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة والإيمان . سميت سورة العنكبوت لأن الله تعالى ضرب العنكبوت مثلاً للأصنام التي اتَّخَذَتْ آلهَةً مِنْ دُونِ اللَّهِ ، ومَثَلٌ لعبادها في اعتمادهم عليها بالعنكبوت الضعيفة التي احتتمت بيت من خيوط واهية ، لا يحتمل أدنى مسّة فضلاً عن أن يقاوم الرياح العاتية ، فهم في عبادتهم للأوثان والتجائم إليها كالتجاء العنكبوت إلى ذلك البيت الواهن ، والقرآن الكريم يعرض ذلك مثلاً مصوراً مجسّماً في قوله تعالى ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنْكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ولما كان المسلمون في مكة في أقصى أنواع المحنة والشدة لذلك جاء الحديث بالإسهاب عن الإيمان والفتنة وسنة الابتلاء في هذه الحياة حتى ليكاد يكون محور السورة وموضوعها الأساسي حول الابتلاء في الإيمان والعقيدة . ولهذا تبتدىء السورة بهذا البدء الواضح الصريح ﴿ أَلَمْ أَحْصِبِ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ . وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ﴾ . وتمضي الآيات الكريمة تتحدث عن فريق من الناس يحسبون

الإيمان كلمة تُقال باللسان ، فإذا نزلت بهم المحنة أو أصابتهم الشدة ظهرت حقيقتهم فانتكسوا وارتدوا على أديبارهم معلنين ولاءهم لأهل الكفر ، ولم يصبروا على الأذى في سبيل العقيدة والإيمان ، بل أظهروا التخاذل والاستسلام أمام المحنة والابتلاء ، واهتزت في ضميرهم العقيدة فأثروا السلامة في الدنيا على عذاب الآخرة ، كأنَّ عذاب الدنيا أشدَّ من عذاب الآخرة وفي أمثال هؤلاء يقول القرآن الكريم ﴿ ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أُؤذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ، ولئن جاء نصرٌ من ربك ليقولنَّ إِنَّا كنا معكم ، أو لئس الله بأعلم بما في صدور العالمين ؟ وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين ﴾ .

وتمضي السورة الكريمة تتحدث عن بلاء الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم وكفاحهم وجهادهم في سبيل نصره دين الله ، وما لا قوة من شدائد ومحن ، بدءاً بقصة نوح ، وإبراهيم ، ثم لوط وشعيب ، وتذكر قصص بعض الأمم المكذبين كعاد وثمود وقارون وفرعون وهامان ، وما حلَّ بهم من الهلاك والدمار كنتيجة حتمية للاستعلاء والطغيان ﴿ فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حاصباً ، ومنهم من أخذته الصيحة ، ومنهم من خسفنا به الأرض ، ومنهم من أغرقنا ، وما كان الله ليطلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾ وفي قصص الأنبياء تتمثل ألوان من الفتن التي اعترضت دعوة الإيمان في تاريخ البشرية الطويل ، ومن الصعاب والعقبات التي وقفت في طريق دعوة الأنبياء ، ففي قصة نوح تبتدئ ضخامة الجهد وضآلة الحصيلة ، فقد لبث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً ثم لم يؤمن معه إلا القليل ثم كانت النتيجة « فأخذهم الطوفان وهم ظالمون » وفي قصة إبراهيم مع قومه يبتدئ طغيان الضلال وسوء الجزاء ، فقد حاول هدايتهم

بكل وسيلة وجادهم بالحجة والبرهان ، وكانت النتيجة « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا اقتلوه أو حرِّقوه ، فأُتِجَاهُ الله من النار ، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يؤمنون » وفي قصة لوط يتبدَّى التبجح بالرديلة دون خجل أو حياء مع الاستهتار بصوت الإنذار « فما كان جواب قومه إلا أن قالوا ائتنا بعذاب الله إن كنتَ من الصادقين ... إلى قوله « إِنَّا منزلون على أهل هذه القرية رجزاً من السماء بما كانوا يفسقون » وفي قصة شعيب مع مدين يتبدَّى الفساد والتمرد على الحق والعدل ، والتكذيب بآيات الله « فكذبوه فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين » .

وبعد ذلك الاستعراض السريع لمحنة الأنبياء مع أقوامهم ، وذكر مصارع العتاة البغاة من الكفرة والظلمة على مدار القرون ، يضرب القرآن الكريم المثل للآلهة المزعومة التي عُبدت من دون الله ، سواء كانت من البشر أو الحجر ، فهي قوة هزيلة واهنة أمام قوة الواحد القهار « مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنْ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ الْبَيْتَ الْعَنْكَبُوتُ لَوْ كَانُوا يَعْمَلُونَ » وحقاً إنه لمثل رائع يبيِّن خسارة الذين عبدوا غير الله . ثم تمضي السورة الكريمة تُبَيِّنُ صدق الرسالة وصدق هذا القرآن الذي نزل على نبيٍّ أميٍّ لم يقرأ ولم يكتب ولم يتلقَّ علماً على أحدٍ من البشر ، ثم يأتي بكتاب معجزٍ للبشر وهو رَجُلٌ أميٌّ ، وذلك - بلا شك - أعظم البراهين على صحة نبوته وصدق دعواه ﴿ وكذلك أنزلنا إليك الكتاب ، فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون به ، ومن هؤلاء من يؤمنُ به وما يجحدُ بآياتِنَا إِلَّا الْكَافِرُونَ . وما كنتَ تتلو من قبله من كتابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بيمينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبْطِلُونَ . بل هو آياتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ، وما يجحدُ بآياتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴾ . وينتقل الحديث إلى الأدلة الناطقة بوجود الله ووحدانيته

في هذا الكون الفسيح ، حتى الكفرة يقرون بأن صانع هذا الكون هو
 الله جل وعلا ولكنهم مع هذا يعبدون الأصنام أو يعبدون الملائكة
 والجن ، ويجعلونهم شركاء لله في العبادة وهو تناقض عجيب ﴿ ولئن
 سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولنَّ
 الله ، فأنى يؤفكون ؟ الله ييسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له ،
 إن الله بكل شيء عليم . ولئن سألتهم من نزل من السماء ماء فأجبا به
 الأرض بعد موتها ليقولنَّ الله ، قل الحمد لله بل أكثرهم لا يعقلون ﴾
 ثم تقرّر السورة حقيقة الحياة الدنيا التي يغتر بها الكثيرون فيظنونها
 دارَ راحة وسعادة ، وما هي إلا دارُ عبورٍ إلى دارِ القرار لأنها زائلة
 فانية ﴿ وما هذه الحياة الدنيا إلا لهوٌ ولعب وإن الدار الآخرة لهي الحيوانُ
 لو كانوا يعلمون ﴾ وتختتم السورة الكريمة ببيان جزاء الذين وقفوا في
 وجه المحنة والابتلاء وجاهدوا بأنواع الجهاد النفسي مغريات الحياة
 واجتازوا الفتن والمشاق ﴿ والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا وإن الله
 لمع المحسنين ﴾

(٣٠) سُورَةُ الرُّومِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا السَّابِقُونَ

سورة الروم من السور المكية التي تنزلت في بدء الدعوة الإسلامية لمعالجة قضايا العقيدة في إطارها العام من الإيمان بالله ، والكتب ، والرسول ، والإيمان بالبعث والجزاء بعد الفناء . سُميت سورة الروم لأن الله تعالى ذكر فيها معجزة غيبية لم تكن قد حدثت بعد ، وهي انتصار دولة الروم على دولة الفرس في فترة سنوات قليلة بعد ذلك الانتصار الكاسح الذي حققه الفرس على الروم ، وقد كان الروم أهل كتاب ودينهم النصرانية ، وكان الفرس مجوساً يعبدون النار ولا يؤمنون بالله ، فلما انتصر الفرس على الروم فرح المشركون في مكة وشتموا بالمسلمين وقالوا : أنتم والنصارى أهل كتاب ونحن وفارس وثنيون ، وقد ظهر إخواننا على إخوانكم ولنظهرن عليكم فتزلت الآيات تبشّر بقرب النصر للروم وغلبتهم على الفرس غلبةً يفرح لها المؤمنون الذين يودون انتصار ملة الإيمان على ملة الكفر والطغيان ﴿ آلم . غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون . في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ وقد كان هذا الحدث العظيم أمراً غيبياً لأنه إخبار عن المستقبل وقد وقع كما أخبر عنه القرآن فانتصر الروم على الفرس وبذلك تحققت النبوءة وذلك من أعظم معجزات القرآن . تحدثت السورة الكريمة عن قضية الكفر والإيمان ، وعن حقيقة المعركة بين حزب الرحمن وحزب

الشیطان فالمعركة قديمةٌ بین الحق والباطل قدم هذه الحياة ، والحرب دائمة بین أولیاء الله وأعداء الله ما دام هناك خیرٌ وشرٌ ، وحقٌ وباطلٌ ، وما دام الشیطان یحشد جموعه لمحاربة دعوة الرسل الکرام ، وفي هذا یقرر القرآن الکریم مصیر المجرمین المکذبین والعاقبة الوحیمة التي نالتهم نتیجة الاستهزاء والتکذیب بآیات الله ﴿ أو لم یسیروا فی الأرض فینظروا کیف کان عاقبة الذین من قبلهم ، کانوا أشدَّ منهم قوةً ، وأثَّروا الأرضَ وغمَّروها أكثرَ ممَّا غمَّروها ، وجاءتهم رسلهم بالبینات فما کان الله لیظلمهم ولکن کانوا أنفُسهم یظلمون . ثم کان عاقبة الذین أساءوا السوءی أن کذبوا بآیات الله وکانوا بها یستهزئون ﴾ وفضلاً عن هذا المصیر المشنوم الذي وصل إلیه أولئك المکذبون المعاندون فإن القيامة تنتظرهم وهناك الجزاء الکامل العادل الذي لا یُقلت منه أهل الشقاء والضلال ، حین ینقسم الناس فریقین : فریق الأبرار وفریق الفجار ، ثم تكون نتیجة هؤلاء المکذبین الخلود فی النار ﴿ وיוםَ تقومُ الساعةُ یُبْلِسُ المجرمونَ . ولم یکن لهم من شرکائهم شفعاء وکانوا بشرکائهم کافرين . وיוםَ تقومُ الساعةُ یومئذٍ یفرقون . فأما الذین آمنوا وعملوا الصالحات فهم فی روضةٍ یُحْبَرُونَ . وأما الذین کفروا وکذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة فأولئك فی العذابِ مُحْضَرُونَ ﴾ وتلك نهاية المطاف ، وعاقبةُ المحسنین والمسیئین .

وتتحدث السورة الکریمة عن مشاهد الكون والحياة ، وعجائب قدرة الله فی آیاته المنبثة فی هذا العالم الواسع ، إقامةً للبرهان علی وجود الخالق العظیم ، ولفتاً للأنظار إلی آیات الله الواحد القهار ﴿ فسبحان الله حین تُمسون وحين تُصبحون . وله الحمد فی السموات والأرض وعشياً وحين تُظهرون . يُخْرِجُ الحیَّ من المیتِ ، وِیُخْرِجُ المیتَ من الحیِّ ، وِیُحْیِی الأرضَ بعد موتها وكذلك تُخرجون . ومن آیاته أنْ خلَقکم من

ترابٍ ثم إذا أنتم بشرٌ تنتشرون . ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً ، إن في ذلك لآياتٍ لقومٍ يتفكرون ﴿١﴾ وبعد سرد الآيات الباهرة الدالة على وجود الله ووحدانيته في الآفاق والأنفس ، والنبات والحيوان ، تتحدث السورة عن إمكان البعث بعد الموت ، والحياة بعد الفناء ، وأن الإعادة - بمنطق العقل - أهون من البدء ، وإن كان الكلُّ على الله هيناً ﴿٢﴾ وهو الذي يبدأ الخلق ثم يُعيدُه وهو أهونُ عليه ، وله المثل الأعلى في السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴿٣﴾ ثم تضرب مثلاً لتوضيح بطلان الشرك بمثل واقعي يدركه الصغير والكبير ، والعاقل والجاهل ، وهو أنهم لا يقبلون أن يشاركهم عبيدهم ومما ليكنهم في أموالهم التي رزقهم الله إياها مع أنهم أمثالهم في البشرية ، فكيف يقبلون إشراك الأوثان في العبادة والتوجه مع الرحمن مع أنَّ الفارق واضح والبون شاسع ؟ ﴿٤﴾ ضرب لكم مثلاً من أنفسكم هل لكم ممَّا ملكت أيمانكم من شركاء فيما رزقناكم فأنتم فيه سواء تخافونهم كخيفتكم أنفسكم ، كذلك نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٥﴾ .

وتتقل السورة الكريمة للحديث عن طبائع البشر ، وما هم عليه من التقلب في السراء والضراء ، والشدة والرخاء ، فإذا أصابتهم النعمة بطروا وتكبروا على الله ، وإذا نزلت بهم الشدة جزعوا والتجئوا إلى رحمة الله ﴿٦﴾ وإذا مسَّ الناسُ ضرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيئِينَ إِلَيْهِ ، ثم إذا أذاقهم منه رحمة إذا يَقِمْ مِنْهُمْ بَرِيحٌ يَشْرِكُونَ . ليكفروا بما آتيناهم فتمتعوا فسوف تعلمون . أم أنزلنا عليهم سلطاناً فهو يتكلم بما كانوا به يشركون . وإذا أذقنا الناسَ رحمةً فرحوا بها وإن تصبهم سيئةً بما قَدَّمْتُ أَيْدِيَهُمْ إِذَا هُمْ يَقْنَطُونَ أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ؟ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٧﴾ . وتتحدث الآيات عن بعثة الرسل الكرام

بالمعجزات الباهرات ، ولكنَّ أهل الزيف والضلال لا يؤمنون ولا
 يتدبرون ، ولا يكفون عن إيداء الرسل والصدِّ عن سبيل الله ، ثم
 تكون العاقبة ، بالانتقام من أهل الإجمام ﴿ ولقد أرسلنا من قبلك
 رُسُلًا إلى قومهم فجاءوهم بالبينات ، فانتقمنا من الذين أجمروا ،
 وكان حقًّا علينا نصرُ المؤمنين ﴾ ثم تمضي الآيات تتحدث عن رحمة الله
 لعباده بالمطر الذي تحيا به الأرض الميتة ، ويجعله مثلاً للإحياء بعد
 الإفناء ﴿ فانظرْ إلى آثار رحمة الله كيف يُحيي الأرضَ بعد موتِها ، إنَّ
 ذلكَ لمُحيي الموتى وهو على كل شيء قدير ﴾ وتتحدث الآيات بعد ذلك
 عن طغيان كفار مكة وأنه لا تنفعهم الآيات والنُّذر ، فمهما رأوا من
 الآيات لا يتعظون ولا يعتبرون لأنهم كالموتى لا يسمعون ولا يبصرون
 ﴿ ولئن أرسلنا ريحا فَرَأَوْهُ مُصْفَرًّا لَظَلُّوا من بعده يكفرون فانك لا تسمع
 الموتى ولا تسمع الصَّمَّ الدعاء إذا ولَّوْا مُدْبِرِينَ ، وما أنت بهادي الْعُمِّي عن
 ضلالتهم ، إن تسمعُ إلا من يؤمن بآياتنا فهم مسلمون ﴾ وتختتم السورة
 الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على ما يلقاه من الأذى حتى يأتي وعد الله
 ﴿ فاصْبِرْ إن وعدَ الله حقٌ ولا يستخفُّكَ الذين لا يوقنون ﴾ وهكذا نختم
 السورة بالأمر بالصبر كما بدأت بوعد الله للمؤمنين بالنصر لتتناسق
 البدء والختام .

(٣١) سُورَةُ لُقْمَانَ مَكِينًا
وَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا اللَّهَ

سورة لقمان من السور المكية التي تعالج موضوع العقيدة الإسلامية ، وتهتم بالتركيز حول دعائم الإيمان كما هو الحال في السور المكية ، وتعنى بإقامة الحجج والبراهين على وحدانية رب العالمين . سُميت سورة لقمان لأن الله تعالى ذكر فيها خبر لقمان الحكيم ، ووصاياه المجيدة الثمينة التي تضمنت فضيلة الحكمة ، ومعرفة سرّ الوجود الدالّ على وحدانية الربّ المعبود ، وهو عبدٌ حبشيّ وليس بنبيّ ولكن الله رزقه الحكمة والسداد والرشاد ، فكان ينطق بها ويعلمها الناس « ولقد آتينا لقمان الحكمة أن اشكر لله ، ومن يشكر فإنما يشكر لنفسه ، ومن كفر فإن الله غنيّ حميد » .

ابتدأت السورة الكريمة بذكر الكتاب الحكيم ، معجزة محمد الخالدة وحجته الباقية الدائمة ، الشاهدة بصدق ما جاء به من عند الله ، الذي أنزله الله هدايةً ورحمةً للمؤمنين ، ففيه النور والضياء ، والفوز والسعادة لمن تمسك بتعاليمه ، واسترشد بهدايته ، وسار على نهجه السديد . « آلم . تلك آياتُ الكتاب الحكيم . هدىً ورحمةً للمحسنين . الذين يقيمون الصلاةَ ويؤتون الزكاةَ وهم بالآخرة هم يوقنون . أولئك على هدىً من ربهم وأولئك هم المفلحون » وإلى جانب هؤلاء السعداء تتحدث الآياتُ الكريمة عن فريقٍ من الأشقياء ، جعلوا القرآن وراء ظهورهم ، واستبدلوا مزاميرَ الشيطان بآياتِ القرآن ، سيراً مع الهوى وتلبيةً

لنوازع النفس الخبيثة الأمارة بالسوء ، ولم يكتفوا بذلك بل عَمُوا
وصَمُوا عن سماع آياتِ الله ، وسخروا من كلام رب العالمين بأنواع
من السخرية والاستهزاء « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليُضِلَّ
عن سبيل الله بغير علم ويتَّخِذَهَا هُزُوًا ، أولئك لهم عذابٌ مهين .
وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِ آيَاتُنَا وَلَّى مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ، كَأَن فِي أُذُنِهِ قُورًا
فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ » .

وتتحدث السورة الكريمة عن دلائل القدرة الباهرة ، والإبداع العجيب ،
في هذا الكون الهائل ، الدقيق النظام ، المتناسق التكوين ، الذي يأخذ
بالقلب ، ويُبهر العقل ، ويواجه الإنسان مواجهةً جاهرة لا يملك معها
إلا التسليم بوحداية الخالق العظيم « خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ،
وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ ،
وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ . هَذَا خَلْقُ اللَّهِ
فَارُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ؟ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ » ثم
تتحدث السورة عن لقمان الحكيم ، وعن تلك الوصايا الرشيدة ، التي
هي أثر من آثار الحكمة التي يهبها الله لمن يشاء من عباده ، وهي دُرٌّ
وغير خرجت من فم لا ينطق إلا بالحكمة ، ومن أب لا يريد إلا
النصح والهداية والإرشاد لولده ، فجاءت نصيحة صادقة هادفة ،
تنمُّ عن عاطفة أبوية مُخْلِصة « وَإِذْ قَالَ لِقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ
لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ . وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ
أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ ، وَفَصَّالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ
المصير . وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا
وَصَاحِبَهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا ، وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ، ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ
فَأُنَبِّشُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وبعد التحذير من الإشراك بالله وعقوق
الوالدين ، يرشد ولده إلى جملة من الفضائل ومكارم الأخلاق فيقول

في بقية وصيته « يا بُنَيَّ إِنَّا إِن تَكُ مَثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ ، أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ ، وَأَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ . وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ ، وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاعْظُضْ مِنْ صَوْتِكَ ، إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ » . وبعد هذه الوصية الجامعة من لقمان الحكيم - الذي سميت السورة باسمه تخليداً لذكره وإشادةً بآثره ونصائحه - يأتي الحديث عن نِعَمِ اللَّهِ المستفيضة على عباده المستلزمة لعبادته وشكره ، ويُعَقَّبُها بذكر أهل الكفر والجحود ، الذين يجادلون في آيات الله ويحسدون نعم الله ، ويعبدون غيره تقليداً للآباء الذين عبدوا الأوثان ، ويبدو الجحود والإنكار - مع توالي نِعَمِ اللَّهِ - بشعاً شنيعاً قبيحاً ، تنفر منه الفطرة ويقشعر منه ضمير الإنسان الحيّ « أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً ، وَمَنِ النَّاسُ مِنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ . وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءُنَا ، أَوْ كُؤُوسَ مَا الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ؟ »

ثم تتحدث الآيات الكريمة عن علم الله الواسع الشامل ، الذي أحاط علمه بكل ذرة في الكون ، وتقرر قدرة الله التي لا تُحَدُّ ، وعلمه الذي لا ينفد ، ثم حكمته في الخلق والإيجاد ، والإحياء والإفناء ، فالكل على الله سهل يسير « اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ . وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . مَا خَلَقَكُمْ وَلَا يَعْثُكُمْ إِلَّا كَفْئُسٌ وَاحِدَةٌ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ » . ثم تصوّر الآيات

موقف الناس وهم في لُجَّة البحر ، والموج يغشاهم من كل جانب ، وهم على ظهر الفُلْكِ وقد غشيتهم الأخطار والأهوال ، وأحاطت بهم من كل جانب ، وهنا ينسى الناس آلهتهم وأصنامهم التي عبدوها من دون الله ، ولا يبقى لهم أملٌ إلا في الله العليُّ القدير ، يفزعون إليه مخلصين له الدين ، لينقذهم مما هم فيه من كرب وضيق « ألم تر أنَّ الفُلْكَ تجري في البحر بنعمة الله ليريكم من آياته ، إنَّ في ذلك لآياتٍ لكل صَبَّارٍ شكور . وإذا غشيهم موجٌ كالظلل دعَوْا الله مخلصين له الدين ، فلما نَجَّاهم إلى البرِّ فمنهم مُّقْتَصِدٌ ، وما يَجْحَدُ بِآياتِنَا إلا كُلٌّ خَتَّارٌ كَفُور » .

وتختتم السورة الكريمة ببيان ذلك اليوم الرهيب الذي لا ينفع فيه الوالد ولده ، ولا المولود والده ، ولا يفيد فيه حسبٌ ولا نسب إلا من أحسن عمله في الدنيا ، وأخلص العبادة لله « يا أيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوماً لا يَجْزِي والدٌ عن وَلَدِهِ ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئاً ، إنَّ وَعْدَ اللَّهِ حقٌّ ، فلا تَغُرَّنَّكُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا ولا يَغُرَّنَّكُم بِاللَّهِ الْغُرُور . إنَّ اللَّهَ عنده علم الساعة ، ويُنْزِلُ الْغَيْثَ ، ويعلم ما في الأرحام ، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً ، وما تدري نفس بأي أرض تموت ، إنَّ اللَّهَ عليمٌ خبير »

(٣٢) سُورَةُ السَّجْدَةِ وَكُنْهٌ
وَأَسْمَاءُهَا ثَلَاثُونَ

سورة السجدة من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة من الإيمان بالله ، واليوم الآخر ، والبعث والجزاء ، والمحور الخاص الذي تدور عليه السورة هو موضوع البعث بعد الموت الذي طال جدل المشركين حوله ، واتخذوه ذريعة لتكذيب رسول الله عليه الصلاة والسلام . سُميت السورة الكريمة سورة السجدة لأن الله تعالى ذكر فيها أوصاف المؤمنين الأبرار الذين إذا سمعوا آيات الله تتلى عليهم خرّوا سُجّداً لله ، تعظيماً لجلاله ، وتصديقاً بآياته ، وتذللاً وخضوعاً لما سمعوا من آيات القرآن « إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجّداً وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ ، وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ » .

تبتدىء السورة الكريمة بتمجيد القرآن العظيم ، الذي هو النعمة العظمى على العباد ، أنزله الباري جلّ وعلا منزهاً عن الشك والارتباب ، مصوناً عن التحريف والتبديل ، لا تحوم حول ساحته الشبهات والأباطيل ، ومع وضوح إعجازه ، وسطوع آياته ، وسموّ أحكامه وبيانه ، اتهمه المشركون بأنه من صنع محمد ومن افترائه وتأليفه ، فجاءت الايات الكريمة تردّد هذا البهتان بروائع الحجة والبرهان ﴿ أَلَمْ يَنْزِلُ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ، بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ ، لَتُنذِرَ قَوْماً مَا أَتَاهُمْ مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ ﴾ ثم تحدثت السورة عن دلائل القدرة والوحدانية ، على طريقة القرآن

من لفت الأنظار إلى وجود الواحد القهار بآثار قدرته في الكائنات
العلوية والسفلية ، وما أبدع في هذا الكون المنظور من جميل الصُّنع ،
وآثار القدرة الباهرة ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما
في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولي ولا
شفيع ، أفلا تتذكرون ؟ يدبر الأمر من السماء إلى الأرض ، ثم
يعرج إليه في يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون﴾ ثم تنتقل الآيات
للحديث عن خلق الإنسان الذي هو مظهر من مظاهر قدرة الله بهذا
التكوين العجيب ، والتصوير الفائق الجميل ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة ،
العزيز الرحيم . الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ، وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ
طِين . ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِين . ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ
رُوحِهِ ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ .
ولما كان إنكار المشركين للبعث مبنياً على أساس استبعادهم للحياة مرة
ثانية بسبب أن أجسامهم تبلى ، وأجزاءهم تتلاشى وتتمزق وتغيب في
مجاهل الأرض ، ذكر القرآن الكريم تلك الشبهة السخيفة التي تدل
على ضعف عقول المشركين ، فلو فكروا في بدء الخلق وأصل التكوين
لما استبعدوا ذلك على قدرة الله ، لأن الذي خلق من العدم ، قادر على
إعادة الإنسان بعد أن تفتت أجزأؤه وتصبح ذرات ورقاتاً ، فإن إعادة
بمنطق العقل السليم أسهل من البدء ، وإن كان الكل على الله سهلاً يسيراً
﴿وقالوا أئذا ضللنا في الأرض أئنا لفي خلق جديد ؟ بل هم بلبقاء ربهم
كافرون . قل يتوفاكم ملك الموت الذي وُكِّلَ بكم ، ثم إلى ربكم
ترجعون﴾ وتحدث السورة الكريمة عن الذل والهوان الذي يلقاه
المجرمون في أرض المحشر وقد نكسوا رءوسهم خجلاً وحياة من رب
العزة جلّ وعلا حين يقفون بين يديه للحساب ، ويتمنون العودة
للدنيا لإصلاح عملهم وتدارك ما فات ، ولكن هيهات ﴿ولو ترى

إِذِ الْمَجْرُمُونَ نَاكَسُوا رُءُوسَهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا
 نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ . وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هَدَايَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ
 مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ . فذُوقُوا بِمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ
 يَوْمِكُمْ هَذَا إِنَّا نَسِينَاكُمْ ، وَذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٠﴾
 وَمِنَ الْحَدِيثِ عَنْ أَهْلِ الشَّقَاوَةِ وَمَصِيرِهِمُ الْمَشْثُومِ يَنْتَقِلُ الْحَدِيثُ إِلَى
 أَهْلِ السَّعَادَةِ وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مِنَ النِّعَمِ مِمَّا لَا عَيْنٌ رَأَتْ ، وَلَا أُذُنٌ سَمِعَتْ ،
 وَلَا خَطَرٌ عَلَى قَلْبٍ بَشَرٍ ، فَقَدْ كَانُوا فِي الدُّنْيَا أَبْرَارًا تَتَجَافَى
 جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ طَاعَةً لِلَّهِ ﴿١٠١﴾ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا
 خَرُّوا سُجَّدًا ، وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ . تَتَجَافَى
 جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا ، وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ
 يُنفِقُونَ . فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا
 يَعْمَلُونَ . أَفَمَنْ كَانَ مُؤْمِنًا كَمَنْ كَانَ فَاسِقًا ؟ لَا يَسْتَوُونَ ﴿١٠٢﴾ وَتَنْتَقِلُ
 الْآيَاتُ لِلْحَدِيثِ عَنْ يَوْمِ الْحِسَابِ ، الَّذِي يَفْصِلُ اللَّهُ تَعَالَى فِيهِ بَعْدَ لَهُ
 بَيْنَ الْخَلَائِقِ فَلَا يُفَلَّتْ أَحَدٌ مِنَ الْجَزَاءِ ، وَلَا يُظْلَمُ أَحَدٌ شَيْئًا ، وَيَعْقِبُهُ
 بِالْآيَاتِ وَالنَّذْرِ فِي إِهْلَاكِ الظَّالِمِينَ الْمَكْذِبِينَ ، تَحْذِيرًا لِكُفَّارِ مَكَّةَ الَّذِينَ
 كَذَبُوا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَثَلَا يَحِلُّ بِهِمْ مَا حَلَّ بِمَنْ سَبَقَهُمْ ، فَلَقَدْ رَأَوْا
 مَصَارِعَ الْأَقْوَامِ وَسَكَنُوا دِيَارَهُمْ ، أَفَلَا يَعْتَبِرُونَ ؟ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ
 يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ . أَوَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ
 أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِينِهِمْ ؟ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ
 أَفَلَا يَسْمَعُونَ ﴿١٠٤﴾ وَتَخْتَمُ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ بِإِنْذَارِ الْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يَزَالُونَ
 مُتَمَرِّدِينَ ، يَهْزَعُونَ وَيَسْخَرُونَ مِنْ يَوْمِ الْحِسَابِ وَالْبَعْثِ وَالنُّشُورِ
 لَا عَقْدَاهُمْ بِاسْتِحَالَتِهِ ، وَتَأْمُرُ الرُّسُولَ ﷺ بِالصَّبْرِ عَلَى تَكْذِيبِ هَؤُلَاءِ
 الْمَكْذِبِينَ حَتَّى يَأْتِيَ الْيَوْمَ الْمَوْعُودُ ﴿١٠٥﴾ وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْفَتْحُ إِنْ كُنتُمْ
 صَادِقِينَ ؟ قُلْ يَوْمَ الْفَتْحِ لَا يَنْفَعُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِيمَانُهُمْ وَلَا هُمْ يُنْظَرُونَ .
 فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَانْتَظِرْ إِنَّهُمْ مُنْتَظَرُونَ ﴿١٠٦﴾ .

(٣٢) سُورَةُ الْأَحْزَابِ مَدَنِيَّةٌ
وَأَنبَاءُهَا ثَلَاثٌ وَسِتُّونَ

سورة الأحزاب من السور المدنية التي تتناول جانب التشريع وبخاصة في أمور الأسرة ، فقد تناولت حياة المسلمين الخاصة والعامة ، فشرعت الأحكام لهم بما يكفل سعادتهم في الدنيا والآخرة ، كما أنها أبطلت بعض العادات والتقاليد الموروثة التي كانت متفشية في المجتمع الجاهلي مثل التبني ، والظهار ، واعتقاد أن الرجل الذكيّ اللبيب له قلبان في جوفه ، كما تعرضت هذه السورة لغزوة الخندق وتحزّب المشركين وتألّبهم على المسلمين ، ثم تعرضت لموقف المنافقين وفضحت وكشفت أسرارهم وخفائهم ، وتناولت كذلك غزوة بني قريظة وإجلاءهم من ديارهم ، وتناولت بعض الآداب الاجتماعية كأداب الدعوة إلى الوليمة ، وآداب الستر والحجاب ، وعدم التبرج ، وآداب احترام الرسول الأعظم ﷺ ، إلى آخر ما هنالك من آداب اجتماعية فاضلة . سميت السورة الكريمة «سورة الأحزاب» لأن المشركين تحزّبوا على المؤمنين وضربوا حصاراً على المدينة المنورة ، واجتمعوا من كل ناحية ليستأصلوا النبي ﷺ وصحبه ، وهم كفار مكة ، وغطفان ، وبنو قريظة ، وأوباش العرب الذين تمالّثوا وتحزّبوا جميعاً على حرب المسلمين ، ولكن الله تعالى ردّ كيدهم في نحورهم ، وهزم جموعهم بالريح فكانت آية باهرة ، ومعجزة ظاهرة على تأييد الله لرسوله ولعباده المؤمنين بالنصرة عليهم بدون قتال ، ومن أجل ذلك سميت سورة

الأحزاب إشارة لقوله تعالى ﴿وَمَا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ﴾ قالوا هذا
 ما وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، وما زادهم إلا إيماناً
 وتسليماً ﴿وقد اشتهرت هذه الغزوة بـ « غزوة الخندق » لأن المسلمين
 حفرُوا خندقاً حول المدينة المنورة تحصيناً لهم من تلك الجموع الكثيرة
 وكان ذلك بإشارة سلمان الفارسي على النبي عليه الصلاة والسلام .
 ابتدأت السورة الكريمة بخطاب النبي ﷺ بالأمر بتقوى الله ، والالتزام
 بشريعته المطهرة ، والتوكل عليه وحده فهو نعم الولي والناصر ﴿يا
 أيها النبي اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ، إن الله كان عليماً حكيماً .
 واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيراً . وتوكل على
 الله ، وكفى بالله وكيلاً﴾ ثم تناولت السورة بعض العادات الجاهلية
 التي كانت ديناً متوارثاً فأبطلتها ، وطهرت المجتمع الإسلامي من رواسب
 المجتمع الجاهلي مثل « فكرة التبني » التي شاعت حينذاك وهي أن يتبنى
 الرجل ولد غيره ويلحقه بنسبه دون أن يكون من صلبه ، ومثل اعتقادهم
 بأن المرأة التي يظاهر منها الرجل تصبح أمّاً له لا يجوز نكاحها بحال ،
 ومثل اعتقادهم بأن الرجل اللبيب له قلبان في صدره ، وكل هذا من
 خرافات أهل الجاهلية ﴿ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه ، وما
 جعل أزواجكم اللائي تظاهرون منهن أمهاتكم ، وما جعل أدعياءكم
 أبناءكم ذلك قولكم بأفواهكم ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل﴾ .
 وانتقلت السورة للحديث عن « غزوة الأحزاب » وصورتها تصويراً
 دقيقاً بتألب قوى الشر والبغي على المسلمين ، وكشفت عن خفايا
 المنافقين الذين كانوا - وما زالوا - مصدر شر وبلاء على الإسلام
 والمسلمين ، ففضحتهم وحذرت من طرقتهم في التخذيل والتشيط ،
 وأطالت الحديث عنهم حتى لم تبق لهم سيرة برأ ولم تخف لهم أمراً ﴿يا أيها
 الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءكم جنود فأرسلنا عليهم

ربحاً وجنوداً لَمْ تَرَوْهَا ، وكان الله بما تعملون بصيراً . إذ جاءوكم من
 فوقكم ، ومن أسفل منكم ، وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب
 الحناجر ، وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالاً
 شديداً . وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله
 ورسوله إلا غروراً... ﴿ إلى قوله تعالى ﴿ ورد الله الذين كفروا
 بغيظهم لم ينالوا خيراً ، وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً ﴾
 وتكميلاً لغزوة الأحزاب تتحدث السورة الكريمة عن « غزوة بني
 قريظة » وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع رسول الله وأعانوا عليه
 المشركين فغزاهم رسول الله ﷺ حتى أجلاهم عن ديارهم ﴿ وأنزل
 الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم - أي حصونهم -
 وقذف في قلوبهم الرعب ، فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم
 أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطئوها وكان الله على كل شيء قديراً)
 وتحدث السورة الكريمة عن آداب الأسيرة بدءاً بأسرة القائد الكريم
 والنبي العظيم محمد عليه الصلاة والسلام فقد خبرت الآيات زوجات
 النبي الطاهرات بالصبر على شظف العيش وضيق الحال مع رسول الله
 ﷺ وبين فراقهن ليستمتعن بنعيم الدنيا ، وأمرت بعد ذلك بالاستقرار
 في البيوت وعدم التبرج الممقوت ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك إن
 كنتم ترذون الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعنن وأسرحنن سراحاً
 جميلاً . وإن كنتم ترذون الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد
 للمحسنات منكن أجراً عظيماً ﴾ روي أن النبي ﷺ لما نزلت عليه
 آية الخيار بدأ بعائشة رضي الله عنها فقال لها : إني ذاكر لك أمراً
 ما أحب أن تعجلي فيه حتى تستأمري أبويك ؟ قالت : وما هو ؟
 فتلا عليها ﴿ يا أيها النبي قل لأزواجك ﴾ الآية قالت عائشة : أفيك
 أستأمر أبوي ؟ بل أختار الله تعالى ورسوله والدار الآخرة ، ثم خير

نساء كلهن فقلن مثل ما قالت عائشة رضي الله عنهن أجمعين ، ونزلت
 الآيات الكريمة في شأنهن إلى قوله تعالى ﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ
 تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَةِ الْأُولَى ، وَأَقِمْنَ الصَّلَاةَ ، وَآتِينَ الزَّكَاةَ ، وَأَطِعْنَ اللَّهَ
 وَرَسُولَهُ ، إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ
 تَطْهِيرًا ﴾ وتحدثت السورة عن آداب دخول بيوت النبي ﷺ وعن
 آداب الدعوة إلى تناول طعام الوليمة ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَدْخُلُوا
 بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرِ نَاطِرِينَ إِنَّهُ ، وَلَكِنْ
 إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلَا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ ، إِنْ
 ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِ مِنْكُمْ وَاللَّهُ لَا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ ، وَإِذَا
 سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ
 وَقُلُوبِهِنَّ ، وَمَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ، وَلَا أَنْ تُنْكِحُوا أَزْوَاجَهُ
 مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا ، إِنْ ذَلِكُمْ كَانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيمًا ﴾ ولما كانت فتنة المجتمع
 بتبرج النساء فتنة عظيمة جاء الأمر الإلهي للرسول ﷺ بأمر نساءه
 وسائر نساء المؤمنين بالحجاب الشرعي صيانة للمجتمع من عوامل
 التحلل والانحيار ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لَأَزْوَاجَكُمْ وَبَنَاتَكُمْ وَنِسَاءَ الْمُؤْمِنِينَ
 يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ، ذَلِكَ أَذْنَى أَنْ يُعْرِفْنَ فَلَا يُؤْذِينَ وَكَانَ اللَّهُ
 غَفُورًا رَحِيمًا ﴾ وتختتم السورة الكريمة بالحديث عن الساعة وأهوالها ،
 وشدايدها ، وعن الكافرين والمنافقين وهم ينالون عذاب جهنم ويصلون
 سعيرها ﴿ يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا
 الرَّسُولَ . وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكِبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَ . رَبَّنَا
 آتِنَاهُمْ مِنْ الْعَذَابِ وَالْعَنِيمِ لَعْنًا كَبِيرًا ﴾ إلى نهاية السورة الكريمة .

(٣٤) سُورَةُ سُورٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْقُرْآنُ وَخَمْسُونَ

سورة سبأ من السور المكية التي تهتم بموضوع العقيدة الإسلامية وتتناول أصول الدين من إثبات الوجدانية ، وإثبات النبوة ، وتقرير الإيمان باليوم الآخر ، والبعث والنشور كسائر السور المكية . سميت سورة سبأ لأن قصتها تضمنت آية عظيمة وفيها أعظم العبر على قدرة الله جل وعلا في الانتقام ممن جحد بآياته وكذب رسله بتبديل النعمة بالنقمة ، والسراء بالضراء ، فإن « سبأ » وهم ملوك اليمن وأهلها كانوا في نعمة وغبطة ، وهنا وسرور في بلادهم وعيشهم ، وما أغدق الله عليهم من النعم في الأرزاق والزروع والثمار ، فقد كانت مساكنهم حداثق وجنات ، فيها من جميع أنواع الفواكه والثمار ، والخضرة والنضرة ما يزيد النفس بهجة ، والقلب سروراً وحبوراً ، فلما كذبوا الرسل أهلكتهم الله بإرسال السيل المدمر ، حتى تفرقوا وتشتتوا في البلاد شذر مذر وفي ذلك يقول الله جل ثناؤه ﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَاءٍ فِي مَسْكِنِهِمْ آيَةٌ ، جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ ، كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ، بَلَدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ . فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ، وَبَدَّلْنَاهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيلٍ . ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِمَا كَفَرُوا ، وَهَلْ نَجَازِي إِلَّا الْكَافِرِينَ ؟ ﴾

تبتدىء السورة الكريمة بتمجيد الله جل وعلا الذي أحكم شئون العالم ودبره بحكمته ، فهو الخالق المالك المتصرف الذي لا يغيب عن علمه

مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ، وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ الْبَرَاهِينِ عَلَى وَحْدَانِيَةِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الْآخِرَةِ ، وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ . يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ ، وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ، وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ، وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ . ثُمَّ تَنْتَقِلُ السُّورَةُ إِلَى قَضِيَّةٍ هَامَةٍ وَهِيَ انْكَارُ الْمُشْرِكِينَ لِلْآخِرَةِ وَتَكْذِيبُهُمْ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ ، وَتَأْمُرُ الرَّسُولَ ﷺ أَنْ يُقَسِّمَ بِرَبِّهِ الْعَظِيمِ عَلَى وَقُوعِ الْمَعَادِ بَعْدَ فَنَاءِ الْأَجْسَادِ ، وَهِيَ إِحْدَى آيَاتِ ثَلَاثِ أُمَرٍ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ أَنْ يُقَسِّمَ بِجَلَالِ اللَّهِ وَعَظَمَتِهِ عَلَيْهَا تَأْكِيداً لِلْخَبَرِ ، مَعَ أَنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ الصَّادِقُ الْمَصْدُوقُ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِينَا السَّاعَةُ ، قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ، عَالَمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ - أَيُّ لَا يَغِيبُ عَنْ عِلْمِهِ - مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ، وَلَا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ ﴾ وَتَأْكِيداً لِلْمَوْضُوعِ عَقِيدَةِ الْبَعْثِ يَذْكُرُ الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ شَبَهَةَ الْمُشْرِكِينَ وَيرُدُّ عَلَيْهَا بِالْحُجَّةِ الدَّامِغَةِ ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَى رَجُلٍ يُنْبِئُكُمْ إِذَا مُرِّقْتُمْ كُلَّ مُمَرِّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ؟ أَفَتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِباً أَمْ بِهِ جِنَّةٌ ؟ بَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ . أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَى مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ، إِنَّ نَشْأَتَهُمْ نَحْصِفُ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نَنْسُقُ عَلَيْهِمْ كَيْسَافاً مِنَ السَّمَاءِ ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴾ .

وَتَنْتَقِلُ السُّورَةُ لِلْحَدِيثِ عَنْ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَتَخْصُ بِالذِّكْرِ « دَاوُدَ » وَوَلَدَهُ « سُلَيْمَانَ » عَلَيْهِمَا السَّلَامُ وَمَا سَجَّرَ اللَّهُ لهُمَا مِنْ أَنْوَاعِ النِّعَمِ الْجَلِيلَةِ ، كَتَسْخِيرِ الرِّيحِ لِسُلَيْمَانَ وَتَسْخِيرِ الْجِنِّ لَهُ لِيَقُومُوا بِالْأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ الَّتِي يَعْجِزُ عَنْهَا الْبَشَرُ ، وَتُرْكِزُ عَلَى نَاحِيَةِ « الْأُمُورِ الْغَيْبِيَةِ » الَّتِي كَانَ الْإِعْتِقَادُ السَّائِدُ أَنَّ الْجِنَّ يَعْلَمُونَهَا فَتَبْطُلُ ذَلِكَ الْإِعْتِقَادُ الْفَاسِدُ ،

وتبين أن الغيب خاصٌ بالله جل وعلا وحده ﴿ولسليمان الريح غدوها شهرٌ ورواحها شهرٌ ، وأسألنا له عين القطر ، ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير . يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات ، إعملوا آل داود شكراً ، وقليل من عبادي الشكور . فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته - أي عصاه التي كان يتوكأ عليها - فلما خر تبينت الجن أن لو كانوا يعلمون الغيب ما لبثوا في العذاب المهين ﴾ .

وتتحدث السورة عن المشركين وتقيم الأدلة والبراهين على أن الله تعالى هو الخالق الرازق لا تلك الأصنام التي لا تسمع ولا تنفع ولا تستجيب لداعيها ﴿قل من يرزقكم من السموات والأرض ؟ قل الله ، وإنا أو وإياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين . قل لا تسألون عما أجرنا ولا نسأل عما تعملون . قل يجمع بيننا ربنا ثم يفتح بيننا بالحق ، وهو الفتاح العليم . قل أروني الذين ألحقتم به شركاء ؟ كلا بل هو الله العزيز الحكيم ﴾ . وتتحدث السورة عن رسالة محمد عليه الصلاة والسلام فتثبت أنه مرسل من عند الله إلى جميع الخلق ، وترد على استهزائهم بالحشر والنشر بأنه آت لا محالة ، وله وقت محدود لا يتقدم عليه ولا يتأخر ﴿وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ؟ قل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ .

ولما كان تكذيبهم برسالة محمد عليه السلام يستلزم تكذيبهم للقرآن العظيم المنزل عليه ، ذكر تعالى قول المشركين الصريح الواضح في عدم الإيمان بهذا القرآن ولا بما أخبر عنه من أمور الحساب والجزاء والبعث

والنشور ، وذكر حالهم المفزع المخزي يوم الدين ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ، ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم ، يرجع بعضهم إلى بعض القول ، يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين . قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين ﴾ وتسلياً لرسول الله ﷺ عما يلقاه من المشركين تذكر السورة تكذيب الأمم لرسولهم ، فليس محمداً أول رسول يلقى مثل هذا الاستهزاء والتكذيب ، وتذكر كذلك سبب الطغيان الذي دفعهم إلى عدم الإيمان ، وهو اغترارهم بما منحهم الله من المال والبنين ، ظناً منهم أن كثرة المال دليل على رضى الله عنهم وأنهم على حق ونور وبصيرة ﴿ وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون . وقالوا نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين . قل إن ربي يسقط الرزق لمن يشاء ويقدر ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً فاولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون ﴾ .

وتختم السورة الكريمة بدعوة المشركين إلى الإيمان بالله الواحد القهار ، وإخلاص العباداة والتوجه له وحده ، وأن يتفكروا في شأن هذا الرسول الذي بُعث منهم ، وهم يعرفون سيرته وحياته ، وصدقه وأمانته ، فليس هو بمتهم وليس به مس من الجنون ﴿ قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدي عذاب شديد . قل ما سألتكم من أجر فهو لكم ، إن أجري إلا على الله وهو على كل شيء شهيد ... إلى نهاية السورة الكريمة ﴿ وحيل بينهم وتبين ما يشتهون كما فعل بأشياعهم من قبل ، إنهم كانوا في شك مريب ﴾

(٢٥) سُورَةُ فَاطِرٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأَ النَّاسَ بِخَيْرٍ وَأَزْهَقَ

سورة فاطر من السور المكيّة التي تُعنى بأصول العقيدة الإسلامية « الإيمان بالله ، وباليوم الآخر ، والملائكة ، والكتب ، والرسل » وسائر شئون الإيمان كما هو الحال في السور المكية ، وهي ختامُ السور المفتحة بالحمد ، التي فصّلت فيها أصولُ النّعم على العباد من ربّ الأرباب ، وهي سورة « الفاتحة » والأنعام ، والكهف ، وسبأ ، وفاطر » وهي خمسُ سور في القرآن ليس غير . سُميت بسورة فاطر لذكر هذا الاسم الجليل ، والنّعت الجميل في طليعتها ، ولما فيها من الوصف الدالِّ على عظمة ذي الجلال ، وعجيب صنعه ، وباهر قدرته ، فقد خلق الملائكة خلقاً عظيماً ، وجعلهم ذوي أجنحةٍ متنوعة في العدد ، يطفرون بها ليلبغوا ما أمروا به سريعاً ﴿ الحمد لله فاطر السموات والأرض ، جاعل الملائكة رُسلاً أولي أجنحةٍ مثنى ، وثلاث ، ورباع ، يزيدُ في الخلق ما يشاء ، إن الله على كل شيء قدير ﴾ . وتذكّر السورة بنعم الله على العباد ، فما من نعمةٍ إلّا والله مُسديها ، ولا من فضلٍ وإحسانٍ إلّا وهو من مَنّ الرحمن ، ولا من خلقٍ وتقديرٍ إلّا وهو من صنع العليّ القدير ﴿ ما يفتح الله للناس من رحمةٍ فلا ممسك لها ، وما يُمسك فلا مُرسل له من بعده وهو العزيز الحكيم . يا أيها الناس ذكروا نعمة الله عليكم ، هل من خالقٍ غير الله يرزقكم من السماء والأرض ؟ لا إله إلّا هو فأنى يُؤفكون ؟ ﴾ .

وتحذّر السورة من الاغترار بهذه الحياة العاجلة الفانية ، ومن العدو الأكبر إبليس اللعين الذي قعد للناس بالمرصاد ليصدّهم عن دين الله ويجعلهم من حزبه ﴿ يا أيها الناس إنّ وعد الله حقّ فلا تغرّنكم الحياة الدنيا ، ولا يغرّنكم بالله الغرور . إنّ الشيطان لكم عدوّ فاتخذوه عدوّاً ، إنّما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير ﴾ .

وتقيم السورة الأدلة والبراهين على البعث والنشور في صفحات هذا الكون المنظور بالأرض تحيا بعد موتها بنزول المطر ، وبخروج الزرع والثمر ، وهذا من أظهر الآيات وأوضحها على إمكان البعث بعد الموت ﴿ والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً ، فسقناه إلى بلدٍ ميّتٍ ، فأحيينا به الأرض بعد موتها ، كذلك النشور ﴾ .

ثم تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في خلق الإنسان في أطوار ، وعن المياه في الأنهار والبحار ، وعن إيلاج الليل في النهار ، وتسخير الشمس والقمر عبرة لأولي النّهي والأبصار ﴿ والله خلّقكم من ترابٍ ، ثمّ من نطفةٍ ، ثمّ جعلكم أزواجاً ، وما تحمّل من أنثى ولا تضع إلا بعلمه ، وما يعمّر من معمرٍ ولا ينقص من عمره إلا في كتابٍ ، إنّ ذلك على الله يسير . وما يستوي البحران : هذا عذب فرات سائغ شرابه ، وهذا ملح أجاج ، ومن كلّ تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون بولج الليل في النهار ، وبولج النهار في الليل ، وسخر الشمس والقمر كلّ يجري لأجل مسمى ، ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه ما يملكون من قِطْمير ﴾ ثم يبيّن لهم قيمة الآلهة المزعومة التي لا تسمع الدعاء ، ولا تستجيب النداء ﴿ إنّ تدعوهم لا يسمّعوا دعاءكم ، ولوّ سمّعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة يكفّرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير ﴾ .

وتتحدث السورة عن الفارق الهائل بين المؤمن والكافر ، والبر والفاجر ،
وتضرب الأمثال بالأعمى والبصير ، والظلام والنور ، والحي والميت
ليظهر لذي البصائر المؤمن الذي يسير على نور من ربه ، والكافر الذي
يتخبط في ظلماته ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا
النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوي الأحياء ولا الأموات ،
إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير ﴾ .
ومن العبر والعظات إلى الدلائل الواضحات على وحدانية الله العليّ
القدير ، تتحدث السورة عن أنواع الثمار المختلفة الألوان ، من
أصفر ، وأحمر ، وأخضر ، وأبيض مع اختلاف الطعوم والروائح ،
وكُلُّها تُسقى بماء واحد ، ثم الاختلاف الواضح بين طبقات الأرض ،
وبين سائر المخلوقات من البشر والدواب والأنعام ، المختلفة الأشكال
والأجناس والصُور ، وكُلُّها شاهدة بوجود الله ، ناطقة بعظمته وجلاله
﴿ ألم تر أن الله أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به ثمراتٍ مختلفاً ألوانها ،
ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ ألوانها وغيابٍ سَوْدٌ . ومن
الناس والدواب والأنعام مختلفٌ ألوانه كذلك ، إنما يخشى الله من
عباده العلماء ، إن الله عزيزٌ غفور ﴾ .

وتتحدث السورة بعد ذلك عن ميراث الأمة المحمدية لأشرف الرسالات
السماوية ، بإنزال هذا الكتاب المجيد الجامع لفضائل الكتب ، ثم
انقسام الناس أمام هذه الوراثة الربانية إلى ثلاثة أنواع : المقصّر ،
والمحسن ، والسابق بالخيرات . وكلهم من هذه الأمة المحمدية التي
ورثها الله أشرف الرسالات السماوية ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا
من عبادنا ، فمنهم ظالمٌ لنفسه ، ومنهم مُقْتَصِدٌ ، ومنهم سابقٌ بالخيرات
بإذن الله ، ذلك هو الفضل الكبير . جناتٌ عدنٌ يدخلونها يُحَلَّون فيها
من أساورٍ من ذهبٍ ولؤلؤاً ، ولباسُهُم فيها حرير ﴾ وفي مقابل هؤلاء

السعداء الأبرار يأتي الحديث عن الأشقياء الفجار ، للموازنة بين
القريقين أهل الجنة وأهل النار ﴿والذين كفروا لهم نار جهنم لا يُقضى
عليهم فيموتوا ، ولا يُخَفَّفُ عنهم من عذابها ، كذلك نجزي كلَّ
كفور . وهم يصطرخون فيها ربَّنَا أخرجنا نعمل صالحاً غيرَ الذي كنَّا
نعمل ، أَوْ لَمْ نَعْمَرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ ، وجاءكم النذيرُ
فذوقوا فما للظالمين من نصير﴾ وتختتم السورة الكريمة بفضل الله على
العباد بإمها لهم حتى يتداركوا في هذه الحياة مافات ، وهذا من نعم الله
تعالى عليهم كما ذكَّروهم بنعمه الفائضة في أول السورة الكريمة ليتناسق
البدء مع الختام ﴿ولو يؤاخذ الله النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا
ظَهْرُهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى ، فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ
فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا﴾

(٣١) سُورَةُ يَسْنَ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَلَاثُ مِائَةٍ ثَمَانُونَ

سورة يس من السور المكية التي نزلت في العهد المكي وعالجت موضوع العقيدة الإسلامية بشكل دقيق من إثبات الوحدانية ، وإثبات الرسالة ، وإثبات البعث والنشور ، وقد تناولت أموراً أساسية ثلاثة وهي : « الحديث عن كفار مكة المكذبين بالقرآن العظيم ، والحديث عن أهل القرية الذين كذبوا الرسل عليهم السلام ، والأدلة والبراهين على وجود الله ووحدانيته » وكل ذلك من المقاصد الأساسية لتثبيت العقيدة الإسلامية الصافية النقية ، روى الإمام الترمذي عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ قَلْبًا وَقَلْبُ الْقُرْآنِ يَسْنَ » وفي رواية البزار « لَوِدِدْتُ أَنَّهَا فِي قَلْبِ كُلِّ إِنْسَانٍ مِنْ أُمَّتِي » .

سُميت سورة « يس » لأن الله تعالى افتتح السورة الكريمة بها ، وفي الافتتاح بها إشارة إلى إعجاز القرآن الكريم .

تبتدىء السورة الكريمة بالقسم بالقرآن العظيم على صدق رسالة محمد عليه السلام ، فهو المبعوث من رب العزة جلّ وعلا رحمةً للعباد ، ليرشدهم إلى طريق السعادة والرشاد ﴿ يَسْ وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ . إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ . عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . تَنْزِيلَ الْغَزِيرِ الرَّحِيمِ . لَتُنذِرَ قَوْمًا مَا أُنذِرَ آبَاؤُهُمْ فَهُمْ غَافِلُونَ ﴾ وتتحدث السورة عن كفار مكة الذين تمادوا في الغي والضلال ، وكذبوا سيد الخلق محمد بن عبد الله فحق عليهم عذاب الله وانتقامه ﴿ لَقَدْ حَقَّ الْقَوْلُ عَلَى أَكْثَرِهِمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ .

إِنَّا جَعَلْنَا فِي أَعْنَاقِهِمْ أَغْلَالًا فَهِيَ إِلَى الْأَذْقَانِ فَهُمْ مُقْمَحُونَ . وجعلنا من
 بين أيديهم سداً ، ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴿ وتسوق
 السورة قصة أصحاب القرية وهي ﴿ انطاكية ﴾ الذين كذبوا الرسل
 لتحذّر من عاقبة التكذيب بالوحي والرسالة ، على طريقة القرآن في
 استخدام القصص للعظة والاعتبار ، ليكون ذلك إنذاراً لكفار مكة ،
 ولقد همّ أصحاب القرية بقتل رسلهم ، فجاءهم رجل ناصح أمين
 من أقصى المدينة ، يذكرهم العاقبة الوخيمة في العدوان على رسل الله
 فقتلوه . قال ابن عباس : هو « حبيب النجار » نصح قومه فقتلوه فأدخله
 الله الجنة وأهلك قومه بالصيحة فلم يبق منهم عين تطرف ﴿ واضرب
 لهم مثلاً أصحاب القرية إذ جاءها المرسلون . إذ أرسلنا إليهم اثنين
 فكذبوهما فعزّزنا بثالث فقالوا إنا إليكم مرسلون ... إلى قوله تعالى
 ﴿ قبل ادخل الجنة قال يا ليت قومي يعلمون بما غفر لي ربي وجعلني من
 المكرمين . وما أنزلنا على قومه من بعده من جندٍ من السماء وما كنا
 منذرين . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون ﴾ وتحدث
 السورة الكريمة عن دلائل القدرة والوحدانية ، متزعةً من المشاهد
 الكونية المتنوعة : مشهد الأرض الميتة تدبُّ فيها الحياة ، ومشهد الليل
 ينسلخ منه النهار فإذا هو ظلام دامس ، ومشهد الشمس تجري لمستقر
 لها ، ومشهد القمر يتدرّج في منازلها ، ومشهد الفلك المشحون بحمل
 ذرية البشر الأقدمين ، ومشهد الأنعام المسخرة تحمّل الأثقال ، ومشهد
 النطفة يجعل الله منها بشراً سوياً .. كلُّ ذلك تعرضه الآيات للدلالة
 على وحدانية الله الواحد القهار ﴿ وآية لهم الأرض الميتة أحييناها
 وأخرجنا منها حَباً فمنه يأكلون . وجعلنا فيها جناتٍ من نخيلٍ وأعناب
 وفجرنا فيها من العيون . ليأكلوا من ثمره وما عملته أيديهم أفلا
 يشكرون . سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن

أنفسهم وممّا لا يعلمون . وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فإذا هم مظلمون .
والشمس تجري لمستقرّها ذلك تقدِيرُ العزيزِ العليم . والقمر قدرناه
منازل حتى عاد كالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لا الشمس ينبغي لها أن تدرك
القمر ، ولا الليل سابقُ النهار وكلّ في فلكّ يسبحون ﴿١﴾ . وتحدث
السورة عن القيامة وأهوالها ، وما يكون بين يدي الساعة من أهوالٍ
وشدائد ، وعن نفخة الفزع والناس في أسواقهم يتشاجرون ويختصمون ،
ثم عن نفخة الصّعق التي يموت بها جميع الأحياء ، ثم نفخة البعث
والنشور التي يقوم الناس فيها من القبور للحساب والجزاء ﴿٢﴾ ويقولون
متى هذا الوعدُ إن كنتم صادقين . ما ينظرون إلا صيحةً واحدةً تأخذهم
وهم يَخِصِّمُونَ . فلا يستطيعون توصيةً ولا إلى أهلهم يرجعون . ونفخ
في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون . قالوا يا ويلنا من
بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا ؟ هذا ما وعدَ الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت
إلا صيحةً واحدةً فإذا هم جميع لدينا محضرون . فالיום لا تظلم
نفسٌ شيئاً ، ولا تُجزون إلا ما كنتم تعملون ﴿٣﴾ .

وتحدث السورة عن أهل الجنة وأهل النار ، وعن مآل كلٍّ من
الفريقين ، هؤلاء في النعيم وأولئك في الجحيم ، وتميّز بينهم يوم القيامة كما
كانوا في الدنيا متميزين إلى مؤمنين ومجرمين ﴿٤﴾ إن أصحاب الجنة اليوم
في شغلٍ فاكهون . هم وأزواجهم في ظلالٍ على الأرائك متكئون .
لهم فيهم فاكهة ولهم ما يدعون . سلامٌ قولاً من رب رحيم . وامتازوا
اليوم أيها المجرمون . ألم أعهد إليكم يا بني آدم ألا تعبدوا الشيطان
إنه لكم علوّ مبين . وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم ؟ ولقد أضل
منكم جبلاً كثيراً - أي خلقاً كثيراً - أفلم تكونوا تعقلون ؟ هذه جهنم
التي كنتم توعدون ﴿٥﴾ . وبعد أن تقطع السورة أشواطاً عديدة من تذكير
العباد بنعم الله جلّ وعلا عليهم ، ومن أجلّها نعمة بعثة الهادي البشير ،

والسراج المنير رحمة للإنسانية جمعاء ، يأتي الحديث عن القضية التي يشتد عليها التركيز في هذه السورة ، وهي قضية « البعث والنشور » في صورة حوار ، ردّاً على ذلك الكافر الذي جاء إلى رسول الله ﷺ بعظم رميم وهو يفته ويندروه في الهواء ويقول : يا محمد أتزعم أن الله يبعث هذا ، يأتي الجواب مفتحاً ، مسكتاً ، معجزاً ﴿ أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ؟ وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيي العظام وهي رميم ؟ قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم .. إلى قوله تعالى ﴿ فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴾

(٣٧) سُورَةُ الصَّافَّاتِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبِئَا الْمَلَائِكَةَ وَالنَّبِيَّاتِ

سورة الصافات من السور المكية التي تتناول أصول العقيدة الإسلامية من التوحيد ، والبعث والجزاء ، والوحي والرسالة ، وتهدف إلى تقرير الدعائم والأركان التي شيدت عليها عقيدة الإيمان في أصوله الراسخة المتينة . سُميت السورة الكريمة « سورة الصافات » تذكيراً للعباد بمراتب الملائكة الأطهار ووظائفهم التي كلفوا بها ، فهم مع جلال خلقهم ، وعظيم قدرهم ، لا ينفكون عن عبادة الله « يسبحون الليل والنهار لا يفترون » يصطفون للعبادة كاصطفاف المؤمنين في الصلاة ، وهم خاشعون خاضعون في مقام العبودية لمالك الملك ، العزيز الجبار ، الذي دانت له الخلائق وخضعت لجلاله الرقاب بما فيهم الملائكة الأعلى ، حملة العرش والملائكة الأبرار . ابتدأ تعالى السورة الكريمة بالقسم بهذه الطوائف من الملائكة ، الصافات قوائمها في الصلاة أو أجنحتها في ارتقاب أمر الله ، الزاجرين للسحاب يسوقونه إلى حيث شاء الله ، التالين لآيات الله على أنبيائه وأوليائه ، أقسم بذلك على وحدانيته وعظيم سلطانه ﴿ وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۖ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۖ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۚ إِنَّ إِلَهُكُمْ لَوَاحِدٌ ۚ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۚ ۝ وَهُوَ قَسْمٌ يَتَجَلَّى فِيهِ عِظَمُ مَكَانَةِ التَّوْحِيدِ ، وَعِظَمُ شَأْنِ الْمَلَائِكَةِ فِيهَا وَكُلِّ إِلَهُيهِمْ مِنْ أَعْمَالِ هَامَةٍ ، فِيهَا تَدْيِيرُ لَأُمُورِ الْكَوْنِ الْعُلُويَّةِ وَالسُّفْلِيَّةِ وَتَنْتَقِلُ الْآيَاتُ بَعْدَ ذِكْرِ الْمَلَائِكَةِ إِلَى ذِكْرِ الْجَنِّ ، وَتَعْرِضُهُمْ لِلرَّجْمِ

بالشُّهْب الثَّاقِبَة ، رَدًّا لِمَزَاعِمِ الجَاهِلِيَّةِ فِي تِلْكَ الْأَسَاطِيرِ الْوَاهِيَةِ ، وَهِيَ
اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ هُنَاكَ قَرَابَةً بَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَبَيْنَ الْجِنِّ ، وَأَنَّ الْجِنَّ يَعْلَمُونَ
الْغَيْبَ لِمَكَانَتِهِمْ عِنْدَ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ مِنَ التَّرَاوُجِ بَيْنَ اللَّهِ وَالْجِنَّةِ وَلَدَتِ الْمَلَائِكَةُ
كَمَا قَالَ تَعَالَى فِي هَذِهِ السُّورَةِ ﴿ وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا ﴾ فَأَبْطَلَ
اللَّهُ تِلْكَ الْأَسَاطِيرَ الْمُتَهافتَةَ بَيَانًا أَنَّهُ لَوْ كَانَ كَمَا زَعَمُوا لَمَا طُورِدَ الشَّيَاطِينُ
هَذِهِ الْمَطَارِدَةُ بِرَجْمِهِم بِالشُّهْبِ الثَّاقِبَةِ ﴿ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةِ
الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ . لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى
وَيُقَذَّفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ . دَحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ
الْخُطْفَةَ فَاتَّبَعَهُ شَهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ وَفِي مَعْرِضِ الْحَدِيثِ عَنِ الْقِيَامَةِ وَأَهْوَالِهَا
تَتَحَدَّثُ الْآيَاتُ عَنْ كِفَارِ مَكَّةَ وَإِنْكَارِهِمْ لِلْبَعْثِ ، وَاسْتِعَادَهُمْ لِلْحَيَاةِ
مَرَّةً ثَانِيَةً بَعْدَ أَنْ يَصْبَحُوا رِفَاتًا وَعِظَامًا ، وَلِهَذَا يَتَهَمُونَ الرَّسُولَ بِالسَّحَرِ
وَالشَّعْوَذَةِ ، وَيَقَابِلُونَهُ بِالسَّخَرِيَّةِ وَالتَّهْكِيمِ ﴿ بَلْ عَجِبْتَ وَيَسْخَرُونَ .
وَإِذَا ذُكِّرُوا لَا يَذْكُرُونَ . وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخَرُونَ - أَيِ يِبَالِغُونَ
فِي السَّخَرِيَّةِ - وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ . أَثَذَا مَتْنًا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا
أَثْنَاءَ الْمَبْعُوثِينَ . أَوْ أَبَاؤُنَا الْأَوَّلُونَ ؟ قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُونَ . فَإِنَّمَا هِيَ
زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنْظُرُونَ ﴾ وَتَتَنَاوَلُ السُّورَةُ الْكَرِيمَةُ - تَأْكِيدًا
لِقَضِيَّةِ الْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ وَالْحِسَابِ - قِصَّةَ الْمُؤْمِنِ الَّذِي كَانَ لَهُ مِنَ الدُّنْيَا
جَلِيسٌ مَكْذُوبٌ ، يَنْكُرُ الْآخِرَةَ يَكْذِبُ بِالْبَعْثِ وَالْجَزَاءِ ، وَكَانَ فِي
الدُّنْيَا يَسْخَرُ مِنْ ذَلِكَ الْمُؤْمِنِ وَيُوبِخُهُ عَلَى إِيمَانِهِ وَتَصَدِيقِهِ ، وَبَيْنَا ذَلِكَ
الْمُؤْمِنُ يَنْعَمُ فِي الْجَنَّةِ وَيَسْتَمْتَعُ بِمَا فِيهَا مِنَ الشَّرَابِ وَالنَّعِيمِ مَعَ إِخْوَانِهِ
أَهْلِ الْجَنَّةِ إِذْ تَذَكَّرَ جَلِيسَهُ فِي الدُّنْيَا وَتَطَلَّعَتْ نَفْسُهُ لِيَتَفَقَّدَ حَالَهُ وَيَعْرِفَ
مَصِيرَهُ ، فَدَعَا إِخْوَانَهُ إِلَى التَّطَلُّعِ مَعَهُ عَلَى حَالِ ذَلِكَ الشَّقِيِّ التَّعْيِيسِ
﴿ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ . قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ إِنِّي كَانَ لِي قَرِينٌ .
يَقُولُ أَتُنْكَلِ مِنْ الْمَصْدُقِينَ ؟ أَثَذَا مَتْنًا وَكُنَّا تَرَابًا وَعِظَامًا أَتُنَا لِمَدِينُونَ ؟

- أي مجازون ومحاسبون على الأعمال - قال هل أنتم مطلقون؟ فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال تالله إن كذبت لتردين. ولولا نعمة ربي لكنت من المحضرين. أفما نحن بميتين إلا موتتنا الأولى، وما نحن بمعدين؟ ﴿١﴾ وإلى هنا ينتهي الحوار ويقرر القرآن سعادة المؤمن بالفوز بأسمى المراتب، مع النعيم الخالد الدائم الراضي ﴿٢﴾ إن هذا هو الفوز العظيم. لمثل هذا فليعمل العاملون ﴿٣﴾.

وتستعرض السورة الكريمة طرفاً من قصص الأنبياء، تُعرض فيه قصة الهدى والضلال، منذ فجر البشرية الأولى، فهاهم أولئك المكذبون الضالون يواجهون رسلهم بمثل ما واجه به كفار مكة رسول الله ﷺ من العناد والتكذيب ﴿٤﴾ ولقد أرسلنا فيهم مُنذرين. فانظر كيف كان عاقبة المُنذرين. إلا عباد الله المخلصين. ولقد نادانا نوح فلنعم المجيبون. ونجيناه وأهله من الكرب العظيم. وجعلنا ذريته هم الباقين. وتركنا عليه في الآخرين. سلامٌ على نوح في العالمين. إنا كذلك نجزي المحسنين. إنه من عبادنا المؤمنين ثم أغرقنا الآخرين ﴿٥﴾ ثم تتلوها الآيات تستعرض قصة «إبراهيم وإسماعيل، وقصة موسى وهارون، وإلياس ولوط» وتقف عند قصة إبراهيم وقفةً طويلة تكشف فيها عن سرِّ اصطفاء الله عز وجل للخليل، ويتجلى فيها أعظم الدروس في الإيمان والصبر والطاعة، والاستسلام لحكم الله العلي القدير، فهذا هو الخليل يؤمر في المنام بذبح ولده وفلذة كبده، فما يتردد وما يتأخر، بل يسارع إلى تنفيذ أمر الله، وكأنما الأمر عنده جرعة ماء، ويمضي لتنفيذ ما أمر به في رضىً و يقيناً واطمئناناً، ويعرض الأمر على ولده لا ليستشيره في الأمر الذي هو حتم، بل ليختبر إيمانه وليرى مبلغ استسلامه وطاعته لله ﴿٦﴾ فلما بلغ معه السعي قال يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ قال يا أبتِ افعل ما تؤمر ستجدني

إن شاء الله من الصابرين ﴿ يا لروعة الإيمان ، ويا لنبل الطاعة ، ويا لعظمة
 الاستسلام ! ! الوالد والولد كل منهما يُسلم نفسه لله ، وإنه لحقاً
 درسٌ بليغٌ في التضحية بالنفس ، ابتغاءاً لمرضاة الله ، وخليقٌ بأن
 يكون إبراهيم خليلاً للرحمن ﴿ فلما أسلما وتلَّهُ للجبين - أي فلما
 استسلما وانقادا لأمر الله وصرعه بالأرض على جيئه ليذبحه - ونادياه
 أن يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين . إن هذا هو
 البلاء المبين . وفديناه بذبحٍ عظيمٍ ﴿ وبعد أن تتحدث السورة عن بقية
 الرسل الكرام ، تُعقبُ بهذا القاطع في نصرة الله لأنبيائه وأوليائه ﴿ ولقد
 سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين . إنهم لهم المنصورون . وإن جندنا لهم
 الغالبون ﴿ وتختتم السورة الكريمة بتتزيه الله سبحانه عما لا يليق من صفات
 العجز والنقص ، واختصاصه بالعزة والجلال ، وبالسلام على رسله
 الكرام ، وبإعلان الحمد لله الواحد الأحد وهو الختام المناسب لموضوع
 السورة ﴿ سبحان ربك ربَّ العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين .
 والحمد لله رب العالمين ﴿



سورة «ص» من السور المكية التي نزلت قبل هجرة الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهدفها نفس هدف السور المكية من ترسخ العقيدة ، والدعوة إلى وحدانية الله ، والإيمان بالبعث والجزاء ، والتصديق بالوحي والرسالة . والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو إثبات صدق القرآن ، وصحة رسالة محمد عليه الصلاة والسلام التي كابر فيها المشركون من كفار مكة .

تبتدىء السورة الكريمة بالقسم بحرف من حروف الهجاء المؤلف منه هذا الكتاب المعجز ، المنزل على النبي الأمي ، الذي تحدى الله به الخلائق أجمعين ﴿ص . والقرآن ذي الذكر﴾ أي والقرآن المجيد المشتمل على المواعظ البليغة ، والأخبار العجيبة كما يشتمل على التشريع والقصص والتهديب ، والجواب محذوف لدلالة السياق عليه تقديره : إن هذا القرآن لحق ، وإن محمداً لصادق . ولقد بالغ المشركون في المكابرة والعناد ، واستبعدوا أن ينزل الوحي على رجل فقير ، هو يتم أبي طالب فأنكروا الوحي وكذبوا الرسول ﴿وعجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم . وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟ إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملائمة منهم أن امشوا واصبروا على آفتكم إن هذا لشيء يراد﴾ ولفظ «عجاب» يدل على المبالغة في العجب ، ويوحي بشدة العجب وكثرته وضخامته .. روي أن قريشاً

اجتمعوا وجاءوا إلى «أبي طالب» فقالوا له : إن ابن أخيك يعيب ديننا ، ويسبُّ آلهتنا ، ويُسفِّه أحلامنا ، فلو بعثت إليه فنيته وكففته عنا ، فبعث إليه فلما جاءه رسول الله ﷺ قال : يا ابن أخي ، ما بال قومك يشكونك ! يزعمون أنك تشتم آلهتهم وتسفِّه أحلامهم ! فقال يا عم : أريد كلمة واحدة يقولونها ، تدين لهم بها العرب ، وتؤدي لهم بها العجم الجزية ، فقال أبو جهل : كلمة واحدة ؟ نعم وأبيك نعطيكمها وعشر كلمات معها ! ! قل ما هذه الكلمة ؟ فقال ﷺ قولوا : « لا إله إلا الله » فقاموا فرعين ينفضون ثيابهم وهم يقولون ﴿ أَجْعَلُ الْآلِهَةَ إلهًا واحدًا ؟ إن هذا لشيءٌ عَجَاب ﴾ وتنتقل السورة لتضرب الأمثال لأولئك المتكبرين المتجبرين من كفار قريش ، بمن سبقهم من الأمم العاتية التي كذبت رسل الله على مدار القرون ، وما حلَّ بهم من هلاكٍ ودمار ﴿ كَذَبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ ، وَعَادُ وَفِرْعَوْنُ ذُو الْأَوْتَادِ . وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ ، أُولَئِكَ الْأَحْزَابِ . إِنْ كُلُّ إِلَّا كَذَّبَ الرَّسُلَ فَحَقَّ عِقَابُ . وما ينظر هؤلاء إلا صيحة واحدة ما لها من فواق ﴾ وتذكر السورة قصص بعض الأنبياء تسليةً لرسول الله عليه الصلاة والسلام ، وتخفيفاً لآلامه وأحزانه ، فتتحدث عن نبي الله « داود » وولده سليمان الذي جمع الله له بين « النبوة » و « الملك » وسخر له الإنس والجن ، والريح والشياطين ، وتذكر ما نال كلا منهما من الفتنة والابتلاء ، وتأمّر الرسول بالصبر على ما ناله من أذى قريش ﴿ إصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ ، واذكر عبدنا داود ذا الأيد - أي ذا القوة في العبادة والطاعة والدين - إنه أواب . إنا سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإبكار . والطير محشورة كلُّ له أواب . وشددنا ملكه وآتيناه الحكمة وفصل الخطاب ﴾ ومع هذا كله فقد تعرّض داود للفتنة والابتلاء ، وكانت عين الله ترعاه وتقود خطاه ، ويد الله تكشف

له ضعفه وخطاه ، وتجنبه خطر الطريق ليتوقاه ﴿ وهل أتاك نبأ الخصم إذ تسوروا المحراب إذ دخلوا على داود ففزع منهم ، قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ، فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ وبيان هذه الفتنة أن « داود » عليه السلام خصص بعض وقته للتصرف في شئون الملوك ، وللقضاء بين الناس ، وخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسيحاً لله في المحراب ، وكان إذا دخل المحراب للعبادة لم يدخل إليه أحد حتى يخرج هو إلى الناس ، وفي ذات يوم فوجيء بشخصين يتسوران المحراب ففزع منهم ، فما يتسور المحراب هكذا مؤمن ولا أمين ! فبادرا يطمئنانه ﴿ قالوا لا تخف خصمان بغى بعضنا على بعض ﴾ أي وجئنا للتقاضي أمامك ﴿ فاحكم بيننا بالحق ولا تشطط ﴾ أي لا تجر ولا تظلم في الحكم ﴿ واهدنا إلى سواء الصراط ﴾ أي وأرشدنا إلى طريق الحق والعدل ، ثم بدأ أحدهما فعرض خصومته ﴿ إن هذا أخي له تسع وتسعون نعجة ، ولي نعجة واحدة فقال أكفلنيها وعزني في الخطاب ﴾ أي اجعلها لي وفي ملكي وكفالتني ، وغلبني في الكلام والخصومة . والقضية تحمل ظلماً صارخاً - كما عرضها أحد الخصمين - فاندفع داود يقضي على إثر سماعه لتلك المظلمة ، ولم يوجه إلى الخصم الآخر حديثاً ، ولم يسمع له حجة ، ولكنه مضى يحكم ﴿ قال لقد ظلمك بسؤال نعجتك إلى نعاجه ، وإن كثيراً من الخلطاء ليبغي بعضهم على بعض ﴾ وعند هذه المرحلة اختفى عنه الرجلان فقد كانا ملكين جاء للامتحان ، امتحان النبي الملك ، الذي ولّاه الله أمر الناس ليقضي بينهم بالحق والعدل ، وليتبين الحق قبل إصدار الحكم ، وقد اختارا أن يعرضا عليه القضية في صورة صارخة مثيرة ، ولكن القاضي عليه ألا يستأر وألا يتعجل قبل أن يسمع حجة الآخر ، عند هذا تنبه داود إلى أنه الابتلاء ﴿ وظنّ

داود أنما فتناه فاستغفر ربه وخرّ راكعاً وأناب ﴿ هذه خلاصة القصة
 كما عرضها القرآن ، أمّا ما ذكره بعض المغرّمين بالقصص الاسرائيلية
 فكذبٌ وبهتان ، حتى قال عليّ كرم الله وجهه « من حدّث بحديث
 داود على ما يرويه القصّاص جلدته مائة وستين جلدة ، وذلك حدّ
 القرية على من قذف نبياً من أنبياء الله » ثم تشير السورة الكريمة إلى هذا
 الكون المنظور ، وما غيد من بدائع الصنعة ، ودلائل القدرة والوحدانية ،
 وأنه لا بدّ من حياة بعد هذه الحياة ينال فيها الظالم جزاءه ، والمحسن ثوابه
 ﴿ وما خلقنا السماء والأرض وما بينهما باطلاً ، ذلك ظنّ الذين كفروا ،
 فويلٌ للذين كفروا من النار . أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات
 كالمفسدين في الأرض ؟ أم نجعل المتقين كالفجار ؟ ﴾ وتختتم السورة
 الكريمة - بعد عرض قصة سليمان وأيوب ، وإسحق ويعقوب ،
 وإسماعيل وذئ الكفل - ببيان وظيفة الرسول ﷺ (قل ما أسألكم
 عليه من أجر وما أنا من المتكلفين . إن هو إلا ذكر للعالمين . ولتعلمن نبأه
 بعد حين)

(٣٩) سُورَةُ الزُّمَرِ الْمَكِّيَّةِ
وَأَنبِئَانَهَا جَنَسٌ وَسَيَّبَعُونَ

سورة الزُّمَرِ من السور المكية التي تُعنى بجانب العقيدة وركائز الإيمان ، وتكاد السورة الكريمة أن تكون مقصورةً على علاج « قضية التوحيد » تلك القضية التي كانت الهدف الأول لأهداف السور المكية لأنها أصلُ الإيمان ، وأصلُ كلِّ عملٍ صالح . سميت « سورة الزُّمَرِ » لأن الله تبارك وتعالى ذكر فيها زمرة السعداء من أهل الجنة ، وزمرة الأشقياء من أهل النار ، وذكر حال كلٍّ من الفريقين يوم القيامة ، حيث يُساق المؤمنون الأبرار إلى الجنة أفواجاً أفواجاً مع الإحترام والإجلال والتكريم ، ويُساق الكفار الفجار إلى الجحيم أفواجاً أفواجاً مع الذلّة والهوان والصغار .

تبتدىء السورة الكريمة بإثبات صدق الوحي ، وصدق القرآن المنزل على خاتم الأنبياء محمد عليه الصلاة والسلام ، وتأمر الرسول بإخلاص الدين لله ، وتترهبه عن الشرك في كل صورة من صوره ﴿ تتريلُ الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصاً له الدين ، ألا لله الدين الخالص ﴾ والخالص هو الصافي من شوائب الشرك والرياء ، وتذكر شبهة المشركين في عبادتهم لغير الله من الأوثان والأصنام وهي الأسطورة التي كانوا يواجهون بها دعوة التوحيد ﴿ والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا

إلى الله زُلْفَى ، إِنَّ الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون ، إن الله لا يهدي من هو كاذبٌ كفارٌ ﴿١﴾ ثم تكشف الآيات الكريمة عن سُخْفِ ذلك التصور وتهافته ﴿٢﴾ لو أراد الله أن يتخذ ولدًا لاصطفى مما يخلق ما يشاء ، سبحانه هو الله الواحد القهار ﴿٣﴾ . وبعد ذلك تذكر الأدلة والبراهين ، على وحدانية رب العالمين ، في إبداع السموات والأرض ، وفي ظاهرة الليل والنهار ، وفي تسخير الشمس والقمر ، وفي خلق الإنسان في أطوار في ظلمات الأرحام ، وكلُّها براهين ساطعة على قدرة الله ووحدانيته ﴿٤﴾ خلق السموات والأرض بالحق ، يكوِّر الليل على النهار ويكوِّر النهار على الليل ، وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمى ، ألا هو العزيز الغفار . خلقكم من نفسٍ واحدة ، ثم جعلَ منها زوجها ، وأنزل لكم من الأنعام ثمانية أزواج ، يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلقٍ في ظلماتٍ ثلاث ، ذلكم الله ربكم له الملك ، لا إله إلا هو فأتى تصرفون ﴿٥﴾ وتتوالى الآيات يظللها جوُّ الآخرة ، ظلُّ الخوف من عذابها والرجاء في ثوابها ، وتبدأ بتوجيه الرسول عليه السلام إلى إعلان كلمة التوحيد الخالصة في صراحةٍ وإذعانٍ وإيمانٍ حتى لا يلتبس على أحد طريق الهدى ، وطريق الضلال ﴿٦﴾ قل إني أُمِرْتُ أَنْ أعبد الله مخلصاً له الدين ، وأُمِرْتُ أَنْ أَكون أول المسلمين . قل إني أخاف إن عصيتُ ربي عذاب يومٍ عظيمٍ ﴿٧﴾ . ومرةً أخرى يكرر هذا الإعلان ، ثم يعرض مشهد الخسران المبين للكفرة المجرمين ﴿٨﴾ قل الله أعبد مخلصاً له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه ، قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم وأهليهم يوم القيامة ، ألا ذلك هو الخسران المبين . لهم من فوقهم ظُلُلٌ من النار ومن تحتهم ظلل ، ذلك يحَوِّف الله به عباده يا عباد فاتقون ﴿٩﴾ وتذكر القرآن العظيم الذي أنزله الله عز وجل للتدبر والتفكير ، وضرب فيه الأمثال والعبر ليتعظ الناس ويعتبروا ﴿١٠﴾ ولقد ضربنا للناس

في هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون . قرآنًا عربيًّا غير ذي
 عَوَجٍ لعلهم يتقون ﴿ ثم تعقَّب بذكر مثل يوضح الفارق الكبير بين
 من يعبد الله ، وبين من يعبد أرباباً سواه وهو مثل يصوِّر حقيقة التوحيد ،
 وحقيقة الشرك بأوضح بيان ، إنه مثل العبد المملوك الذي يملكه شركاء
 متخاصمون ، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ، ولا يستقر على
 طريق ، ولا يملك أن يرضي أهواءهم المتنازعة المتعارضة ، والعبد
 الذي يملكه سيد واحد ، يسيره على نهج واحد فهو مستقر مستريح
 ﴿ ضربَ الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون - أي متنازعون
 متخاصمون - ورجلاً سلكاً لرجل ، هل يستويان مثلاً ؟ الحمد لله بل
 أكثرهم لا يعلمون . إنك ميتٌ وإنهم ميتون . ثم إنكم يوم القيامة
 عند ربكم تختصمون ﴿ وبعد هذا البيان الواضح لحال من يشرك بالله ،
 وحال من يؤمن به ويوحِّده ، يأتي الحديث عن الظلمة التي تفتعل في
 قلوب المشركين ، فهم ينقبضون من اسم الله ويَهْشُونَ ويَشْهَوْنَ إذا سمعوا
 ذكر طواغيتهم وأوثانهم ﴿ وإذا ذُكر الله وحده اشمأزت قلوبُ
 الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذُكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون .
 قلِ اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ، أنت تحكم
 بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون ﴿ وتتعاقب الآياتُ الكريمة تدعو
 العبادَ أن يعودوا إلى ربهم غير قانطين ولا يائسين ، فهو تعالى الرؤوف
 الرحيم ، الذي يفتح أبواب رحمته أمام التائبين ، ويقبل توبة الخاطئين
 ﴿ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله ،
 إن الله يغفر الذنوب جميعاً ، إنه هو الغفور الرحيم ﴿ وتكشف السورة
 عن عظمة الله وجلاله في يوم الحشر الأكبر ، حيث لا يكون إلا
 العدل الإلهي والقسطاس المستقيم ، وتشرق الأرض بالأنوار في ساحة
 العَرْض على الملك الجبار ﴿ وأشرقَت الأرض بنور ربها ووضع الكتابُ ،

وجيء بالنبيين والشهداء ، وقضي بينهم بالحق وهم لا يظلمون . ووفيت كل
نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون ﴿١٦٣﴾ . وتختتم السورة الكريمة بمشهد
يغمر النفس بالروعة والرغبة والجلال ، وهو موقف الفصل بين
المتقين والفجار ، فالمتقون يساقون إلى الجنة أفواجاً ، والوجود كله
يتجه إلى ربه بالحمد في خشوع واستسلام ﴿١٦٤﴾ وسيق الذين اتقوا ربهم
إلى الجنة زمراً ، حتى إذا جاءوها وفتحت أبوابها وقال لهم خزنتها سلام
عليكم طمتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده
وأورثنا الأرض نتبوا من الجنة حيث نشاء فنعم أجر العاملين . وترى
الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم وقضي بينهم بالحق
وقيل الحمد لله رب العالمين ﴿١٦٥﴾ .

(٤) سُورَةُ الْفُرْقَانِ
وَأَيُّهَا الْمَاهِجِينَ وَشَاهِدُونَ

سورة غافر من السور المكية التي تهتم بقضايا العقيدة ، وتُعنى ببناء صرح الإيمان ، شأن سائر السور المكية التي تعالج قضية التوحيد ، وقضية البعث ، وقضية الوحي والرسالة ، ولكن هذه القضايا الأساسية لم تكن موضوعَ السورة البارز ، إنما كان موضوعُها المعركة بين الحق والباطل ، وبين الهدى والضلال ، وبين الإصلاح في الأرض والعلو والطغيان ، ولهذا جاء جوُّ السورة مشحوناً بطابع العنف والشدة ، وكأنه جوُّ معركةٍ رهيبية يكون فيها الطعن والنزال ثم تُسفر عن مصارع الطفلة فإذا بهم حطام وركام .

تبتدىء السورة الكريمة بإثبات صدق القرآن ، ومع وضوحه وسطوعه فقد جادل فيه المجادلون ، وكابر فيه المكابرون ، شأن الطفلة في كل زمان ومكان ﴿ حَمَّ . تتزِيلُ الْكِتَابَ مِنْ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . غَافِرِ الذَّنْبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ شَدِيدِ الْعِقَابِ ، ذِي الطَّوْلِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ إِلَهُ الْمَصِيرِ . ما يجادل في آياتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُرُكَ تَقْلُبُهُمْ فِي الْبِلَادِ ﴾ وتعرض السورة لمصارع الغابرين ، وقد أخذهم الله أخذَ عزيزٍ مقتدر ، فلم يُقَلِّتْ مِنْهُمْ أَحَدٌ ﴿ كَذَبَتْ قُلُوبُهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَالْأَحْزَابُ مِنْ بَعْدِهِمْ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتَهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ ؟ وكذلك حقت كلمة ربك على الذين كفروا أنهم أصحاب النار ﴾ وفي ثنايا هذا الجوّ الرهيب ، يأتي مشهد

حملة العرش في دعائهم الخاشع المنيب ﴿الذين يحملون العرش ومن حوله يسبحون بحمد ربهم ويؤمنون به ، ويستغفرون للذين آمنوا ، ربنا وسعت كل شيء رحمةً وعلماً فاغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم . ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ، ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، إنك أنت العزيز الحكيم . وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته ، وذلك هو الفوز العظيم .﴾ وتتحدث السورة الكريمة عن مشاهد الآخرة وأهوالها ، فإذا الناس بارزون أمام الملك الديان ، وإذا القلوب لدى الحناجر تكاد لشدة الفزع تنخلع ، وإذا العباد واقفون للحساب يغمرهم رهبة وخشوع ، ويحيم عليهم الجلال والصمت ﴿لينذر يوم التلاق . يوم هم بارزون لا يخفي على الله منهم شيء ، لمن الملك اليوم ؟ لله الواحد القهار . اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب . وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، ما للظالمين من حميم ولا شفيع يطاع﴾ ويأتي الحديث عن قصة فرعون الطاغية مع موسى وهارون ، تمثل موقف الطغيان من دعوة الحق ، فرعون يريد بكبريائه وجبروته أن يقضي على موسى ودعوته خشيةً من انتشار دينه بين الأقوام ﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه ، إني أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ وهذا هو منطق الطغيان في كل زمان ومكان ، وأما موسى فيلتجئ إلى الحصن الحصين والركن الركين ، ويلوذ بجناب الله ليدفع عنه شر الطاغية المتجبر ﴿وقال موسى إني عدتُ بربي وربكم من كل متكبر لا يؤمن بيوم الحساب﴾ ويبرز في ثنايا هذه القصة حلقة جديدة لم تعرض في قصة موسى من قبل ، وهي ظهور رجل مؤمن من آل فرعون يخفي إيمانه ، يصدع بكلمة الحق في تلطفٍ وحذر ، ثم في صراحةٍ ووضوح

﴿وقال جلُّ من آل فرعون يكم إيمانه ، أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله ؟ وقد جاءكم بالبينات من ربكم ، وإن يك كاذباً فعليه كذبه وإن يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم ، إن الله لا يهدي من هو مسرفٌ كذاب ؟﴾ ومرة أخرى يذكرهم ذلك المؤمن عذاب الله وانتقامه ، فما يكون من فرعون إلا الاستبداد بالرأي والتجبر والطغيان ﴿قال فرعون ما أريكم إلا ما أرى ، وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾ ويكرر المؤمن النصيحة ويحذّر قومه عذاب الله وبطشه ، ويكشف لهم عن حقيقة الحياة الدنيا الزائلة ﴿وقال الذي آمن يا قوم اتبعوني أهدكم سبيل الرشاد . يا قوم إنما هذه الحياة الدنيا متاع ، وإن الآخرة هي دار القرار﴾ ثم يكرر الموعظة والنصيحة مرة أخرى ﴿ويا قوم مالي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار ، تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار . لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في الدنيا ولا في الآخرة ، وأن مردنا إلى الله وأن المسرفين هم أصحاب النار . فستذكرون ما أقول لكم وأفوض أمري إلى الله ، إن الله بصير بالعباد﴾ . وتنتهي القصة بهلاك فرعون الطاغية مع أنصاره وأعوانه ، وبنجاة المؤمن من ذلك الكرب الشديد الذي كاد يقع عليه ﴿فوقاه الله سيئات ما مكروا وحاق بآل فرعون سوء العذاب . النار يُعْرَضُونَ عليها غدواً وعشياً ، ويوم تقوم الساعة أدخلوا آل فرعون أشدَّ العذاب﴾ .

وينتقل السياق إلى الحديث عن المجرمين ، وهم بين أطباق جهنم يتلظّون سعيها ، وقد ثار بينهم الخصام والجدال على أشده ، فالضعفاء يُلقون باللائمة على الكبراء الذين كانوا سبباً في إضلالهم . يسبونهم ويلعنونهم ، وأولئك يتبرعون منهم ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تَبَعاً ، فهل أتم مغنون عنا نصيباً

من النار؟ قال الذين استكبروا إنا كلُّ فيها ، إن الله قد حكم بين العباد ﴿١﴾
ثم يُعرض السياق مشهدهم في النار أذلاء ضارعين ، يدعون خزنة
جهنم فلا يُستجاب لهم ﴿٢﴾ وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم
يخفف عنا يوماً من العذاب . قالوا أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟
قالوا بلى ، قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال ﴿٣﴾ ثم تعرض
السورة الكريمة إلى بعض الآيات الكونية الدالة إلى عظمة هذا الكون ،
والشاهدة بوجدانية الخالق المبدع ، الذي يشركون به ويكفرون بآياته
ودلائل قدرته ، وتضرب مثلاً للمؤمن والكافر بالأعمى والبصير ،
فكما لا يتساوي البصير الذي يرى بعينه آثار عظمة الله ، مع الأعمى
الذي لا يرى ما حوله ولا يُبصر معالم الطريق ، فكذلك لا يستوي
المؤمن العاقل مع الكافر الغافل ﴿٤﴾ لخلق السموات والأرض أكبر من
خلق الناس ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . وما يستوي الأعمى
والبصير ، والذين آمنوا وعملوا الصالحات ولا المسيء ، قليلاً ما
تذكرون . إن الساعة لآتية لا ريب فيها ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٥﴾
وتحتم السورة الكريمة ببيان مصارع المكذبين ، والطغاة المتجبرين ،
ومشهد بأس الله يأخذهم بغتة فيستغيثون ويفزعون ، ولكن هيهات
أن تنفع التوبة والندام ، فقد كانوا مغترين بما عندهم من العلم والقوة ،
وها هم اليوم يعلنون الاستسلام ﴿٦﴾ أفلم يسيروا في الأرض فينظروا
كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، كانوا أكثر منهم وأشد قوة وآثراً
في الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . فلما جاءتهم رسلهم
بالبينات فرحوا بما عندهم من العلم وحق بهم ما كانوا به يستهزئون .
فلما رأوا بأسنا قالوا آمنا بالله وحده وكفرنا بما كنا به مشركين . فلم
يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا ، سنة الله التي قد خلت في عباده وخسر
هنالك الكافرون ﴿٧﴾

(٤) سُورَةُ فَصَّلَتْ مَكِينَةً
وَأَيَّاهَا أَنْجَ وَخَسِيئَتِ

سورة «فَصَّلَتْ» من السور المكية الكريمة التي تتناول جوانب العقيدة الصافية من الإيمان بالوحدانية ، وبالرسالة ، وبالبعث والجزاء ، وهي الأهداف الأساسية للسور المكية . سُميت السورة الكريمة «سورة فَصَّلَتْ» لأنَّ الله تعالى فَصَّلَ فيها الآيات ووضح فيها الدلائل على وحدانيته وقدرته ، وأقام البراهين الدالة على وجوده وعظمته ، وخلقه لهذا الكون البديع الذي ينطق بحلال الله وعظمته ، ويشهد بوحدانيته في كل ما أبدعته يد الخالق المدبر الحكيم .

تبتدىء السورة الكريمة : بتمجيد شأن القرآن ، المنزل من عند الرحمن ، بالحجج الواضحة والبراهين الساطعة الدالة على صدق محمد فيما جاء به عن الله عز وجل ، ومع وضوح القرآن وسطوع آياته وأحكامه كابر فيه المكابرون ، وكذَّبَ به المشركون ﴿حَمَّ﴾ تنزيل من الرحمن الرحيم . كتاب فَصَّلَتْ آياته قرآنًا عربيًّا لقوم يعلمون . بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون . وقالوا قلوبنا في أكنةٍ ممَّا تدعونا إليه ، وفي آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجابٌ فاعملْ إِنَّا عاملون ﴿﴾ وتحدث الآيات الكريمة عن أمر الوحي والرسالة فتقرر حقيقة الرسول وأنه بشرٌ أوحى الله إليه ، واصطفاه من بين البشر ليكون هادياً وداعياً إلى دينه الحق ، وصراطه المستقيم ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ ، وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ .

الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون ﴿١﴾ .
وتنتقل السورة الكريمة للحديث عن مشهد الخلق الأول للأرض والسماء ،
وتفصيل ذلك الخلق البديع تفصيلاً دقيقاً محكماً ، يلفت أنظار المعرضين
عن آيات الله المنبثة في هذا الكون الفسيح ، بطريقة تبلغ أعماق القلوب
وتهزها هزاً ، فالكون كله شاهد بعظمة الله وهم يكفرون بالله الواحد
الأحد ﴿٢﴾ قل أنكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون
له أنداداً ، ذلك رب العالمين . وجعل فيها رواسي من فوقها ، وبارك
فيها ، وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى
السماء وهي دخانٌ فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا
طائعين ﴿٣﴾ وتعرض بعد ذلك إلى التذكير بمصارع المكذبين ، وتضرب
على ذلك الأمثلة بعادٍ وثمود ، وما حلَّ بهم من الهلاك والدمار حين
كذبوا رسل الله ﴿٤﴾ فإن أعرضوا فقل أنذرهم صاعقةً مثل صاعقة عادٍ
وثمود ، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا الله ،
قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة ، فإنا بما أرسلتم به كافرون . فأمّا عاد
فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا : من أشدُّ منا قوة ؟ أو لم
يروا أن الله الذي خلقهم هو أشدُّ منهم قوة ؟ وكانوا بآياتنا يمحذون .
فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحساتٍ لنذيقهم عذاب الخزي في
الحياة الدنيا ، ولعذاب الآخرة أخزى وهم لا ينصرون . وأما ثمود
فهدى بناهم فاستحبوا العمى على الهدى فأخذتهم صاعقة العذاب الهون
بما كانوا يكسبون . ونجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون ﴿٥﴾ . ويعقب هذا
الإنذار منظرٌ مفرعٌ رهيب ، منظر الكفرة الفجرة في الآخرة وهم
يساقون كالقطيع إلى نار جهنم يعلوهم الذل والهوان ، وتشهد عليهم
جوارحهم بما اقترفوا من جرائم وآثام ، وإنها لفاجأة مذهلة في
موقف عصيب حين تنطق أيديهم وأرجلهم ، وأسماعهم وأبصارهم

ونفضحهم على رموس الأشهاد فلا يستطيعون التكذيب والإنكار ﴿وبوم يُحشَرُ أعداءُ الله إلى النار فهم يُوزعون﴾ . حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلودهم بما كانوا يعملون . وقالوا لجلودهم لم شهدتم علينا ؟ قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء ، وهو خلقكم أول مرة وإليه تُرجعون ﴿وبعد الحديث عن المجرمين يأتي الحديث عن المؤمنين المتقين ، الذين استقاموا في الدنيا على طاعة الرحمن ، فهم اليوم في أمان وأمان في جوار رب كريم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين ﴿إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا ، وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون . نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ، ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون . نزلاً من غفور رحيم﴾ .

وتحدث السورة عن الآيات الكونية التي هي معروضة للانظار ، يراها العالم والجاهل والمؤمن والكافر ، في كل صباح ومساء ، إنها آيات الله الناطقة بعظمته : الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والأرض الخاشعة التي تنتظر نزول المطر لتعود لها الحياة ، ثم هي بعد ذلك تهتز وتحرك وتنبت من كل زوج بهيج لتشارك العابدين في تمجيد الله ، والملائكة الذين يسبحون الليل والنهار لا يفترون ، والكون كله في جور عبادة وخشوع وخضوع ﴿ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون . فإن استكبروا فالذين عند ربك يسبحون له بالليل والنهار وهم لا يسأمون . ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة ، فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، إن الذي أحياها لمحي الموتى ، إنه على كل شيء قدير﴾ .

وأمام مشهد هذه الآيات الكونية ذات الأثر العميق الذي يهز الشعور

والوجدان يأتي التهديد والوعيد لمن يُلحدون في هذه الآيات الظاهرة الباهرة ، أو يتعمدون عنها فيكفرون بها أو يغالطون ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُلحدون في آياتنا لا يَخْفون علينا ، أفمن يُلْقَى في النار خيراً أم من يأتي آمناً يوم القيامة ؟ اعملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير ﴾ ويستطرد السياق إلى المكذبين بالآيات القرآنية بعد الحديث عن الكافرين بالآيات الكونية ، ولا عجب فمن عمي عن آيات الله في هذا الكون المنظور ، فلن يكون من السهل عليه أن يفسح عينيه ليبصر ضياء القرآن ، أو أن يفتح قلبه لهديته وإشراقه ، وسيظل بكابر في صحته وإعجازه حتى ولو كان بلسان عربي ونزل على رسول عربي ، لم يكن يعرف القراءة والكتابة ، وأعجز ببيانه الفصحاء والبلغاء ﴿ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بالذکر لما جاءهم وإنه لكتاب عزيز . لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . ما يُقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك . إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم ﴾ ثم يُعقّب على ذلك بأنه لو أنزله بلسان عجمي لاعترضوا عليه أيضاً وقالوا : لولا جاء عربياً فصيحاً ، وما هو إلا المرء والجدال والإلحاد ﴿ ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فُصِّلَت آياته ، أأعجمي وعربي ؟ قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء ، والذين لا يؤمنون في آذانهم وقر وهو عليهم عمى ، أولئك ينادون من مكان بعيد ﴾ وتختتم السورة الكريمة بوعد الله للبشرية أن يطلعهم على شيء من خفايا هذا الكون وعن خفايا أنفسهم ، وأن يريهم الآيات الباهرة التي تدل على قدرة الله العلي الكبير ليتأكدوا من صدق القرآن ﴿ سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد ؟ ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ألا إنه بكل شيء محيط ﴾

(٤٢) سُورَةُ الشُّورَى مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَلَاثٌ وَخَمْسُونَ

سورة الشوري من السور المكية التي تهتم ببناء العقيدة الإسلامية ،
وتعالج أصول الإيمان التي ينبغي أن يتحلّى بها المؤمنون وهي الاعتقاد
بوحداية الله جل وعلا ، والإيمان بالملائكة والرسل ، والبعث والجزاء ،
وغير ذلك من فروع الإيمان ، التي هي من أهداف السور المكية لبناء
الشخصية المسلمة على أساس متين من العقيدة الصافية ، والإيمان الصادق
الراسخ ، والمحور الذي تدور عليه السورة هو موضوع «الوحي
والرسالة» حتى ليكاد يقال إنه المحور الرئيسي الذي ترتبط به السورة
الكريمة .

سميت السورة الكريمة «سورة الشوري» تنويهاً بمكانة الشوري في
الإسلام ، وأهميتها في حياة الجماعة المسلمة ، وتنبيهاً للمؤمنين على أن
يقيموا حياتهم على هذا المنهج الفاضل الأمثل «منهج الشوري» الذي هو
أساس في تكوين الدولة الإسلامية كما قال تعالى في صفة المؤمنين
«وأمرهم شورى بينهم ، ومما رزقناهم ينفقون» .

تبتدىء السورة الكريمة بتقرير مصدر الوحي ومصدر الرسالة وهو
رب العالمين الذي بعث الأنبياء والمرسلين لهداية البشرية وإخراجها من
ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور المعرفة والإيمان ، وتوجه الأنظار
إلى قضية الإيمان بالمالك الواحد الديان ﴿حَمْدٌ . عَسَقَ . كَذَلِكَ يُوْحِي
إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا

في الأرض وهو العليُّ وهو العظيم ﴿ وتستطرد السورة إلى ذكر حال بعض
المشركين في الجحود بالله ورسله حتى إن السموات ليكدن يتفطرن من
هول تلك الفعلة الشنيعة التي جاء بها بعض المنحرفين من الإشرار بالله
وتكذيب رسله بعد وضوح الآيات والدلائل ﴿ تكادُ السمواتُ يتفطرن
من فوقهن ، والملائكةُ يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ،
ألا إن الله هو الغفور الرحيم والذين اتخذوا من دونه أولياء ، الله
حفيظ عليهم وما أنت عليهم بوكيل .

وتعود السورة الكريمة إلى الحديث عن الحقيقة الأولى « حقيقة الوحي
والرسالة » فتقرر أن القرآن هداية الله للبشرية ، أنزله بالحق على خاتم
المرسلين لينذر الخلائق أجمعين - أهل مكة ومن حولهم من أمم
الأرض - ذلك اليوم الرهيب الذي يجتمع فيه الخلق للحساب وينقسمون
إلى قسمين : سعداء ، وأشقياء ، وأن الظالمين ليس لهم ناصر ولا شافع
﴿ وكذلك أوحينا إليك قرآناً عربياً ، لتنذر أمم القرى ومن حولها ،
وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه ، فريق في الجنة وفريق في السعير .
ولو شاء الله لجعلهم أمة واحدة ، ولكن يدخل من يشاء في رحمته
والظالمون ما لهم من ولي ولا نصير ﴿ ثم تقرر السورة « وحدة الرسالة »
بعدما قررت في البدء « وحدة المصدر » وتبين أن الدين واحد ، أرسل
الله به جميع المرسلين ، وأن البشرية بحاجة إلى قيادة جديدة بعدما
آل أمرها إلى الفوضى والارتباك في أمر الدين ولذلك بعث الله خاتم
الرسول بهذه الرسالة الجديدة رسالة الإسلام ﴿ شرع لكم من الدين
ما وصي به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى
وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه ، كبر على المشركين ما تدعوهم
إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من يئيب . وما تفرقوا إلا من
بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، ولولا كلمة سبقت من ربك إلى أجل

مسمى لقضي بينهم ، وإن الذين أورثوا الكتاب من بعدهم لفي شكٍ منه مريب ﴿ ثم يأتي التعقيب المباشر لتحميل الرسول ﷺ أعباء الرسالة الجديدة لقيادة ركب الإنسانية إلى طريق السعادة وشاطئ الإيمان ﴿ فلذلك فادع واستقم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنتُ بما أنزل الله من كتاب ، وأمرتُ لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لا حجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير ﴾ .

ثم تبدأ جولة جديدة مع المكذبين بالقرآن والمنكرين للقيامة ، فلقد أوغلوا في الضلالة وأبعدوا حتى استعجلوا في قيام الساعة ، بينما المؤمنون خائفون لأنها موعد القضاء العدل ، والقول الفصل ﴿ الله الذي أنزل الكتاب بالحق والميزان ، وما يدريك لعل الساعة قريب ؟ يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق ، ألا إن الذين يمارون في الساعة لفي ضلال بعيد ﴾ .

وتنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن دلائل الإيمان في الأنفس والآفاق ، وعن آثار القدرة الإلهية في خلق هذا الكون العجيب ، فما المطر إلا آثار رحمته ، وما هذه المخلوقات إلا آثار قدرته ، وما هذه السفن الضخمة التي تمخر عُباب البحار ، كأنها جبال شاهقة تحمل فوق ظهرها الأرزاق والمتاع والبشر ، إلا آثارُ صنعه الباهر وحكمته الجليلة ﴿ وهو الذي يُنزل الغيث من بعد ما قنطوا وينشر رحمته ، وهو الولي الحميد . ومن آياته خلق السموات والأرض وما بثَّ فيهما من دابة ، وهو على جمعهم إذا يشاء قدير . وما أصابكم من مصيبة فبما كسبتْ أيديكم ويعفو عن كثير . وما أنتم بمعجزين في الأرض وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير . ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن بشأ يسكنِ الرياح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآياتٍ لكل صَبَّارٍ شكور .

أو يوبقهنَّ بما كسبوا وَيَعْفُ عن كثير.. ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من محيص ﴿١٠﴾. وتذكيراً لآيات الكريمة الناس بالاستجابة لدعوة الله وطاعة رسله قبل أن يفاجئهم ذلك اليوم العظيم الذي لا ملجأ يقيهم من عذاب الله ، ولا شافع لهم ولا نصير ﴿١١﴾ استجيبوا لربكم من قبل أن يأتي يوم لا مردَّ له من الله ، ما لكم من ملجأ يومئذٍ وما لكم من نكير . فإن أعرضوا فما أرسلناك عليهم حفيظاً ، إن عليك إلا البلاغ وإنا إذا أذقنا الإنسان منا رحمة فرح بها ، وإن تصبهم سيئة بما قدمت أيديهم فإن الإنسان كفور ﴿١٢﴾ .

وفي ختام السورة يعود السياق إلى الحقيقة الأولى « حقيقة الوحي والرسالة » لتكشف عن طبيعة هذا الاتصال بين الله والمختارين من عباده ﴿١٣﴾ وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم ﴿١٤﴾ ثم تختم السورة الكريمة بذكر حقيقة الرسالة المحمدية وأنها رحمة وهداية من الله ﴿١٥﴾ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ، ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا ، وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم . صراط الله الذي له ما في السموات وما في الأرض ألا إلى الله تصير الأمور ﴿١٦﴾ وهكذا يتناسق السياق في البدء والختام .

(٥٣) سُورَةُ الزَّخْرَفِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْمُنَافِقُ وَمَا يَنْبَغُ

سورة الزخرف من السور المكية ، التي تهتم ببناء العقيدة الصافية ، وتكوين الشخصية الإسلامية ، وتعني بأصول الإيمان « الإيمان بالله تعالى ، وبالرسل ، وبالبعث والجزاء » سميت السورة الكريمة « سورة الزخرف » لما فيها من المثل الرائع تشبيه الحياة الدنيا - ذات المتاع الزائل ، والبريق الخادع - بالزخرف اللامع الذي ينخدع به كثير من الناس ، ويعترون بالمظاهر الخلافة من زينة الدنيا وبهرجها ، وهي لا تساوي عند الله جناح بعوضة ، ولهذا يعطي الله الدنيا للابرار والفجار ، وينالها الصالحون والطالحون ، أما الآخرة فلا يمنحها الله إلا لعباده المتقين .

تبتدىء السورة الكريمة بإثبات صدق الرسالة ، وصدق هذا القرآن ، الذي كابر فيه المعاندون من أهل مكة ، فلم يؤمنوا به مع سطوع حجته ، ووضوح آياته ، ومع عجزهم عن محاكاته ومجاراته بعد ذلك التحدي السافر الذي جابههم به خاتم الرسل عليه أفضل الصلاة والتسليم ﴿ حم ﴾ . والكتاب المبين . إنا جعلناه قرآناً عربياً لعلكم تعقلون . وإنه في أم الكتاب لدينا لعليّ حكيم . أفنضرب عنكم الذكر صفحاً أن كنتم قوماً مسرفين ؟ ﴿ ١ ٩ ﴾ .

وتعرض السورة إلى دلائل قدرة الله جل وعلا ووحدانيته ، منبثة في هذا الكون الفسيح ، في سمائه وأرضه ، وفي جباله ووهاده وفي ،

بحاره وانهاره وفي الماء الهاطل من السماء والفلك التي تسير على سطح الماء ، والانعام التي سخرها الله للبشر ، وكل هذه من الآيات الباهرة التي تدل على وحدانية الله ﴿ ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولنَّ خلقهنَّ العزيزُ العليم . الذي جعل لكم الأرض مهدياً ، وجعل لكم فيها سُبُلًا لعلكم تهتدون . والذي نزل من السماء ماءً بقدر فأنشربنا به بلدةً ميثاً كذلك تخرجون . والذي خلق الأزواج كلها وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون . لتستووا على ظهوره ثم تذكروا نعمة ربكم إذا استويتم عليه وتقولوا سبحان الذي سخر لنا هذا وما كنا له مقرنين . وإنا إلى ربنا المنقلبون ﴾ وتعرض السورة جانباً مما كانت الدعوة الإسلامية تلاقيه من مصاعب ومتاعب ، ومن جدال واعتراضات ، في مجتمع فشت فيه الخرافات والوثنيات ، والقيم الجاهلية الزائفة ، فقد كان الاعتقاد السائد عند أهل الجاهلية أن الملائكة بنات الله ، ولهذا عبدوهم من دون الله ، ومع أنهم يكرهون البنات إلا أنهم كانوا يختارون لله البنات سفهاً وجهلاً ، ولهذا جاءت السورة الكريمة لتصحيح الانحرافات الاعتقادية ، وردّ النفوس إلى الفطرة وإلى الحقائق الأولى ﴿ وجعلوا له من عباده جزءاً إن الإنسان لكفورٌ مبين . أم اتخذ اتخذ مما يخلق بناتٍ وأصفاكم بالبنيين ؟ وإذا بُشِّرَ أحدهم بما ضربَ للرحمن مثلاً ظلَّ وجهه مسوداً وهو كظيم . أو من ينشأ في الحلية وهو في الخصام غير مبين ؟ وجعلوا الملائكة الذين هم عبادُ الرحمن إناثاً ، أشهدوا خلقهم ؟ سكتبُ شهادتهم ويُسألون . وقالوا لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علمٍ إن هم إلا بخرصون ﴾ .

وعرضت السورة لقصة إبراهيم الخليل ، الذي زعم المشركون أنهم على ملته ، وأنهم في عبادتهم للملائكة والأصنام ، لم يخرجوا عن التوحيد ، ولم يخالفوا دين إبراهيم لأنهم ما عبدوهم إلا ليكونوا شفعاء

لهم عند الله ، فبينت الآيات الكريمة أن إبراهيم كان على دين التوحيد الصافي ، الذي لا يشوبه شرك ولا ضلال ، وأن محمداً عليه السلام جاء بملة إبراهيم الذي كان أول من سقاه الشرك وتبرأ من عبادة الأوثان ﴿ وإذ قال إبراهيم لأبيه وقومه إنني براء مما تعبدون . إلا الذي فطرني فإنه سيهدين . وجعلها كلمة باقية في عقبه لعلهم يرجعون . بل تمتعت هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق ورسول مبين . ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون ﴾ . ولقد استبعد المشركون أن تنزل الرسالة على محمد ، وهو يتيم فقير لا يملك من حطام الدنيا ما يؤهله للرسالة على زعمهم ، ورغبوا أن تنزل على رجل يكون زعيم قبيلة ورئيس عشيرة في مكة أو الطائف ، وأن يكون صاحب جاه وثراء ، فجاء القرآن ليحمل لهم الحق والنور ، وليرد عليهم هذه القيم الأرضية الزائفة التي اعتادوا أن يقيسوا بها الرجال ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أ هم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ وكأن الآيات تقول : إذا كان أمر المعاش في الدنيا - وهو أمر نافة حقير بالنسبة للآخرة - لم يتركه الله لخلقه بل توكل على قسمته بنفسه ، فكيف يترك أمر النبوة والرسالة إلى أهواء الناس ومشتبهاتهم ؟ ثم يقرر القرآن الحقيقة الخالدة ، وهي أن الدنيا ليست ميزاناً لمحبة الله للعبد ، وأنها من الزهادة والرخص بحيث لو شاء لأغدقها إغداقاً على الكافرين ، ومنعها وحرمها المؤمنين ، ولكن الله تعالى يعلم افتتان الناس بذلك لضعفهم وتأثير عرض الدنيا على قلوبهم ، ولولا هذه الفتنة لجعل للكافرين بيوتاً وقصوراً من الذهب والفضة ، وسراً يتكئون عليها وفيها الزخرف والمتاع ، وكل ذلك متاع زائل والعاقبة للمتقين ﴿ ولولا أن يكون الناس

أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سُقُفًا من فضةٍ ومعارجٍ عليها يظهرون . وليبيوتهم أبواباً وسُرُراً عليها يتكئون . وزخرفاً وإن كل ذلك لَمَّا متاعُ الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين ﴿١٠﴾ . وتذكر السورة الكريمة قصة موسى مع فرعون ، وقد وردت في سياق تسليية الرسول ﷺ عما يعترض به المعارضون من كبراء قومه على اختياره للرسالة ، واعتزازهم بالقيم الباطلة لعرض الحياة الدنيا ، فيها هو فرعون يعتز بملكه وسلطانه كما يعتز الجاهلون من رؤساء قريش ، ويستهن بموسى كما فعل الكافرون من أهل مكة ، ثم تكون نتيجة الغرق والدمار ﴿١١﴾ ونادى فرعون في قومه قال يا قوم أليس لي مَلِكُ مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي !! أفلا تبصرون ؟ أم أنا خيرٌ من هذا الذي هو مهينٌ ولا يكادُ يبين . فلولا ألقي عليه أسورة من ذهب أو جاء معه الملائكة مقترنين . فاستخفَّ قومه فأطاعوه إنهم كانوا قومًا فاسقين . فلما آسفونا انتقمنا منهم فأغرقناهم أجمعين . فجعلناهم سلفاً ومثلاً للآخرين ﴿١٢﴾

وتتحدث السورة الكريمة عن الأشقياء المجرمين ، وهم في غمرات جهنم يستغيثون ويستصرخون ، فلا يجابون لأنهم كانوا في الدنيا يسخرون ويهزعون ﴿١٣﴾ إن المجرمين في عذاب جهنم خالدون . لا يُفتر عنهم وهم فيه مبلسون . وما ظلمناهم ولكن كانوا هم الظالمين . ونادوا يا مالِكُ ليقضِ علينا ربُّك قال إنكم ماكثون . لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون ﴿١٤﴾ وتختتم السورة الكريمة ببيان عظمة الله وجلاله ، وأنه هو الخالق الذي لا سلطان ولا شفاعة لأحدٍ إلا بإذنه ﴿١٥﴾ وتبارك الذي له ملك السموات والأرض وما بينهما وعنده علم الساعة وإليه تُرجعون . ولا يملك الذين يدعون من دونه الشفاعة إلا من شهد بالحق وهم يعلمون . ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يُؤفكون .

وقيله يا رب إن هؤلاء قوم لا يؤمنون . فاصفح عنهم وقل سلامٌ فسوف يعلمون ﴿١٨٠﴾ . وهكذا تختتم السورة بالتوحيد والإيمان كما بدأت به ، ويتناسق البدء مع الختام .

(٤٤) سُورَةُ الدُّخَانِ مَكِّيَّةٌ
وَأَسْيَأُهَا تَنْتَعِ وَخَشُونَتُ

سورة الدخان من السور المكية التي تتناول أهداف السور المكية « التوحيد ، الرسالة ، البعث » لتركيز العقيدة ، وتنشيت دعائم الإيمان بالله الواحد الديان . سميت السورة الكريمة « سورة الدخان » لأن الله تعالى ذكر فيها علامة من علامات الساعة ، وآية عظيمة من آياتها الباهرة ، وهي الدخان الذي يظهر في العالم في آخر الزمان ، يملأ ما بين المشرق والمغرب ، وما بين السماء والأرض ، وهو علامة على قرب الساعة كما جاء في الحديث الذي رواه مسلم « لا تقوم الساعة حتى ترؤا عشر آيات : طلوع الشمس من مغربها ، والدخان ، والدابة ، وخروج يأجوج ومأجوج ، وخروج عيسى بن مريم ، والدجال ، وثلاثة خسوف : خسف بالمشرق ، وخسف بالمغرب ، وحسف بحزيرة العرب ، ونار تخرج من قعر عدن ، تسوق الناس ، تبيت معهم حيث باتوا ، وتقبل معهم حيث قالوا » . أخرجه مسلم .

● ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم - معجزة محمد الخالدة - الباقي إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وإليه يرجعون ، فهو الكتاب المجيد ، الذي أنزله رب العزة جل وعلا إلى السماء الدنيا في ليلة مباركة ، هي ليلة القدر - والتي هي أفضل الليالي - كان فيها ابتداء نزول القرآن ، ولا عجب أن يكون ابتداء نزول القرآن في ليلة القدر ، وهي من ليالي شهر رمضان المبارك ، لأنه خاتمة الكتب

السماوية ، وأشرف الكتب الإلهية ، وقد نزل على أفضل الرسل ، في أفضل الشهور وهو شهر رمضان ، وفي أفضل الليالي وهي ليلة القدر ، فكان له شرف الزمان والمكان ، كما كان له فضل السبق في الفخر والشرف على سائر الكتب السماوية ﴿ حمّ . والكتاب المبين . إنا أنزلناه في ليلة مباركة إنا كنا منذرين . فيها يفرق كل أمر حكيم . أمراً من عندنا إنا كنا مرسلين . رحمة من ربك إنه هو السميع العليم ﴾ وتحدثت الآيات عن الخالق المدبر الحكيم ، المشرف على هذا الكون بالحفظ والحماية والرعاية ، وعرفت الناس هذه الحقيقة وهي أن الإله الواحد الأحد ، الذي يملك لموت والحياة ، هو رب الأولين والآخرين ، وهو رب العالمين لا شريك له في ملكه وحكمه وسلطانه « رب السموات والأرض وما بينهما إن كنتم موقنين . لا إله إلا هو يحيي ويميت ، ربكم وب آبائكم الأولين » ومع الوضوح في العقيدة ، والصفاء في دعوة الإيمان يكابر المشركون من أهل مكة في موضوع القدرة والوحدانية ، ويشكّون في قدرة الله العلي الكبير ، فيتوعدّهم القرآن بارتقاب ذلك اليوم المرهوب ، يوم يغشى الناس دخانٌ كثيف يأخذ عليهم أنفاسهم ، فيتضرعون بالدعاء إلى الله أن يكشف عنهم ذلك العذاب ، ولكن هيات لأنه قد فات أوان التوبة والإنابة ﴿ بل هم في شك يلعبون . فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين . يغشى الناس هذا عذاب أليم . ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . أتئى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين . ثم تولّوا عنه وقالوا معلّم مجنون ﴾ وتنتقل الآيات للحديث عن مصارع المكذبين ، تخويفاً لكفار قريش ، وتحذيراً لهم أن ينالهم ما نال من سبقهم ممن كفروا بآيات الله وعصوا رسله ، وتضرب لهم المثل بقوم فرعون وما حلّ بهم من الهلاك والدمار ، نتيجة الطغيان والإجرام ﴿ ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون وجاءهم رسول كريم .

أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبَادَةَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ . وَأَلَّا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . وَإِنِّي عَذْتُُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُون . وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي
فَاعْتَرِلُونُ ﴿١﴾ وَلَكِنْ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُ كَانُوا بَدْرَجَةٍ مِنَ الْعُلُوِّ وَالطُّغْيَانِ ،
تَأْتِي عَلَيْهِمْ أَنْ يَسْتَجِيبُوا لِدَعْوَةِ الرَّحْمَنِ ، وَلِذَلِكَ دَعَا عَلَيْهِمْ نَبِيُّهُمْ
مُوسَى أَنْ يَهْلِكَهُمُ اللَّهُ قَاطِبَةً فَاسْتَجَابَ اللَّهُ دَعَاءَهُ ﴿٢﴾ فَدَعَا رَبَّهُ أَنْ هُوَ لَا
قَوْمَ يُجْرِمُونَ . فَأَسْرَعَ بِعِبَادِي لِيْلًا إِنَّكُمْ مُتَّبِعُونَ . وَاتْرَكْتُ الْبَحْرَ رَهْوًا إِنَّهُمْ
جُنْدٌ مَغْرُقُونَ ﴿٣﴾ .

● وتخصي الآيات تتحدث عن النعم الذي خلقوه بعد هلاكهم ، وعن
الآثار التي تركوها من بعدهم ، من قصور ودور ، وحدائق وبساتين ،
وأنهار وعيون ، وما كانوا عليه من النعم الدائم ، في ظل الملك الواسع ،
فلما جاء أمر الله بإهلاكهم ، تركوا كل شيء في الدنيا ميراثاً ورثه الله
تعالى لبني إسرائيل ، وذهبوا مودعين باللعنة والدمار إلى عذاب النار
﴿١﴾ كم تركوا من جنات وعيون . وزروع ومقام كريم . ونعمة
كانوا فيها فاكهين . كذلك وأورثناها قوماً آخرين . فما بكت عليهم
السماء والأرض وما كانوا منظرين ﴿٢﴾ . وتذكر الآيات بني إسرائيل
بنعمة الله العظمى عليهم حيث أنقذهم من استعباد فرعون وطيغياته ،
واختارهم على سائر الناس في زمانهم ، ليشكروا ربهم على تلك النعم
الجليلة ﴿٣﴾ ولقد نجينا بني إسرائيل من العذاب المهين . من فرعون إنه
كان عالياً من المفسرين . ولقد اخترناهم على علم على العالمين . وآتيناهم
من الآيات ما فيه بلاء مبين ﴿٤﴾ ثم تنتقل الآيات الكريمة لتتحدث عن
مشركي قريش ، وإنكارهم للبعث والنشور ، واستبعادهم للحياة مرة
أخرى بعد فناء الأجساد ، وتذكر الآيات أن هؤلاء المكذبين ليسوا
بأكرم على الله ممن سبقهم من الأمم الطاغية الذين أهلكهم الله ، فسنة
الله لا تتخلف في إهلاك الطغاة المجرمين ﴿٥﴾ إن هؤلاء يقولون إن هي إلا

موتئنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآياتنا إن كنتم صادقين . أهم
 خيرٌ أم قومٌ تُعِّعِ والذين من قبلهم أهلكتناهم إنهم كانوا مجرمين ﴿ .
 ● وتحدث السورة عن ارتباط هذا الكون بالحكمة الأزلية في خلق
 السموات والأرض ، وأن الله لم يخلقهما عبثاً ولا سدى ، بل لحكمة
 بليغة ، وتلفت الأنظار إلى المناسبة الدقيقة بين خلقهما وبين البعث والنشور
 ﴿ وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما لاعين . ما خلقناهما إلا بالحقِ
 ولكن أكثرهم لا يعلمون . إن يوم الفصل ميقاتهم أجمعين . يوم لا
 يغني مولى عن مولى شيئاً ولا هم يُنصرون . إلا من رحم الله إنه هو
 العزيز الرحيم ﴾ وبعد بيان مصير الفجار ومصير الأبرار تختم السورة
 الكريمة بالتذكير بنعمة الرسالة ، والتخويف من عاقبة التكذيب ﴿ فإنما
 يسرناه بلسانك لعلهم يتذكرون . فارتقبْ إنهم مرتقبون ﴾ وهكذا
 يتناسق بدء السورة مع الختام



سورة الجاثية من السور المكية التي تناولت أسس العقيدة الإسلامية « التوحيد ، البعث ، الرسالة » والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو إثبات دلائل القدرة والوحدانية ، وإثبات البعث والجزاء ، يوم يلقي المحسن جزاء إحسانه ، والمسيء جزاء إساءته . سميت السورة الكريمة « سورة الجاثية » لأنَّ الله تعالى ذكر فيها أحوال الناس يوم القيامة ، وما يكونون عليه من الفرع ، فيجثون على الركب من شدة ما يصيبهم من الدهول والدهشة ، شأن الخائف الذليل « وترى كلَّ أمةٍ جاثية ، كلُّ أمةٍ تُدعى إلى كتابها ، اليوم تُجزون ما كنتم تعملون .

● **تبتدىء السورة الكريمة ببيان دلائل القدرة والوحدانية ، في خلق السموات والأرض ، وفي إحياء البشر ، ونزول المطر ، وتعاقب الليل والنهار ، عبرة وعظة لأولي الأبصار ، وكل هذه المخلوقات شاهدة بعظمة ذي الجلال ، ناطقةٌ بوحدانية الكبير المتعال ﴿ حم . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . إنَّ في السموات والأرض آياتٍ للمؤمنين . وفي خلقكم وما يُبثُّ من دابةٍ آياتٍ لقوم يوقنون . واختلاف الليل والنهار ، وما أنزل الله من السماء من رزقٍ فأحيا به الأرض بعد موتها ، وتصريف الرياح آياتٍ لقوم يعقلون ﴾ .**

● **وتتحدث السورة الكريمة عن المكابرين المعاندين ، المكذبين لآيات الله مع كل تلك الدلائل الباهرة ، والحجج الساطعة ، الدالة على عظمة**

الله وجلاله ، ووحدانيته وكما له ﴿ تلك آياتُ الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديثٍ بعد الله وآياته يؤمنون ؟ ويلٌ لكل أفاك أثيم . يسمع آياتِ الله تتلى عليه ثم يُصرُّ مستكبراً كأنَّ لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم . وإذا علم من آياتنا شيئاً اتخذها هُزُواً ، أولئك لهم عذابٌ مهين ﴾ .

● وتنتقل السورة لتذكير الناس بنعم الله الجليلة التي أعدها عليهم ، لينتبهوا إلى شكر المنعم ، وتوحيد الخالق الذي هيا لهم كل أسباب الراحة والسعادة فوق ظهر المعمورة ، وعلى سطح البحار ، ينتقلون بمراكبهم فوقها في الأسفار من أجل التجارة وابتغاء الرزق ﴿ الله الذي سخر لكم البحر لتجري الفُلُك فيه بأمره ، ولتبتغوا من فضله ، ولعلكم تشكرون . وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه ، إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون ﴾ .

وتتحدث السورة عن نعمة الله على بني إسرائيل ، حيث خصَّهم الله بالفضل العظيم على سائر الأمم ، وأكرمهم بالكتاب المنير ، والهداية الربانية ، فجحدوا النعمة ، وعصوا أوامر الله ، وكذبوا برسالة خاتم المرسلين ﴿ ولقد آتينا بني إسرائيل الكتاب ، والحُكْمَ ، والنبوة ، وورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بيناتٍ من الأمر ، فما اختلفوا إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم ، إن ربك يقضي بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون ﴾ .

● وتحدث السورة عن القرآن العظيم ، الهادي إلى الصراط المستقيم ، وعن انقسام الناس أمام هدايته إلى فريقين : مسلمين ومجرمين ، فمن صدَّق به فقد اهتدى ، ومن كذَّب به فقد ضلَّ وغوى ، والجزء هناك عند الله ﴿ هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يوقنون . أم حسب الذين اجترحوا السيئات أن نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات ، سواء محياهم ومماتهم ؟ ساء ما يحكمون . وخلق الله السموات والأرضَ

بالحق ، ولتجرى كل نفس بما كسبت وهم لا يظلمون ﴿١﴾ . وإذا كان المؤمن يعبد الله وحده ، فإن الكافر إنما يعبد في الحقيقة هواه ، وشتان بين من يعبد الله ومن يعبد هواه ﴿٢﴾ أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم ، وختم على سمعه وقلبه ، وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله ؟ أفلا تذكرون ﴿٣﴾ ؟

● وتتحدث السورة الكريمة عن الدهريين والطبيعيين ، الذين أنكروا وجود الخالق العظيم وأنكروا البعث بعد الموت ، وزعموا أن الدهر هو الذي يُقني العباد ، ولا حشر ولا نشر ، ولا حساب ولا جزاء ﴿٤﴾ وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا إلا الدهر وما هم بذلك من علم إن هم إلا يظنون ﴿٥﴾ ولقد كان من شبهة منكري البعث تلك الحجة الضعيفة السقيمة ، التي تدل على منتهى البلادة والغباء وهي : إذا كان البعث حقاً فلماذا لا يرجع إلينا آباؤنا الأوائل ؟ ولماذا لا يحيون مرة ثانية في هذه الدنيا فيخبرونا عما حصل لهم ؟ ﴿٦﴾ وإذا تُتلى عليهم آياتنا بيناتٍ ما كان حجتهم إلا أن قالوا ائتوا بآياتنا إن كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴿٧﴾ وتعرض السورة الكريمة مشهداً من مشاهد الآخرة ، تلتقي فيه البشرية كلها على صعيد واحد ، ليواجهوا الحساب المرهوب ، وقد جثوا على الركب متميزين أمةً أمةً ، يغمرهم في ذلك الموقف الهيب والجلال ، وتحيط بهم الملائكة من كل جانب ، وتخضع الأصوات ، وتُحبس الأنفاس ، في ارتقاب الجزاء الموعود ، وتنقسم الجموع الحاشدة إلى فريقين : فريق المحسنين ، وفريق المجرمين ، وينال الأبرار جزاءهم بالخلود في جنات النعيم ، وينال الفجار جزاءهم بالتقلب في غمرات الجحيم ، ويُقضى بين الخلائق بالحق والعدل ﴿٨﴾ والله مُلِكُ السموات والأرض ويوم تقوم الساعة يومئذٍ ينحسر المبطلون . وترى

كلُّ أمةٍ جاثية ، كلُّ أمةٍ تُدعى إلى كتابها ، اليومَ تُجزون ما كنتم تعملون .
هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق ، إنا كنا نستنسخ ما كنتم تعملون . فأما
الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيدخلهم ربهم في رحمته ، ذلك هو
الفوز العظيم . وأما الذين كفروا أفلم تكن آياتي تُتلى عليكم فاستكبرتم
وكنتم قوماً مجرمين ﴿ وتختتم السورة الكريمة بحمد الله وتمجيده ، وتعظيمه
وتقديسه ، فهو الربُّ المعبود ، لا شريك له في ملكه ولا معقَّب لحكمه ، ذو
العظمة والجلال ، والكبرياء والكمال في الدنيا والآخرة ﴾ ﴿ فله الحمدُ
ربِّ السموات وربِّ الأرض ، ربِّ العالمين . وله الكبرياء في
السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم ﴾ .

(٤١) سُورَةُ الْأَحْقَافِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأْنَا هَاجِئِينَ وَكَائِلَاتِنَا

سورة الأحقاف تعالج قضية العقيدة شأن سائر السور المكية ، وقد جاء الحديث فيها مفصلاً عن قضية الإيمان بوحداية الله ، والإيمان بالوحي والرسالة ، والإيمان بالبعث وما وراءه من حساب وجزاء . سميت السورة الكريمة « سورة الأحقاف » لأن الله تعالى ذكر فيها مصرع عاد ، الذين بعث الله إليهم « هوداً » عليه السلام فكذبوه ، فأخذهم بالعذاب المدمر الذي لم يُبق لهم ذكراً ولا أنثراً ، وكانوا أقوى الأمم أجساداً ، وأغناهم مالاً ، وأكثرهم بنين وأولاداً ، وكانت منازلهم بالمرتفعات الجبلية في جنوب الجزيرة العربية ، قريباً من بلاد حضر موت ، فلما تكبروا وتجبروا واغترخوا بقوتهم أهلكتهم الله بالريح العاتية التي ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم ، وقد ذكر تعالى قصتهم في هذه السورة ومنازلهم التي كانوا يسكنونها في أعالي الجبال والمرتفعات في قوله جل ثناؤه ﴿ واذكر أخا عادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَّتِ النَّذْرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ ﴾ . ولذلك سميت سورة الأحقاف .

تبتدىء السورة الكريمة بالحديث عن كتاب الكون المنظور ، بعد الحديث عن كتاب الوحي المسطور ، فالكون كله ناطقٌ بعظمة الله ، شاهدٌ بوحدايته وجلاله ، ومع ذلك تجد من يُعرض عن النظر في صفحاته ، ويحدد قدرة الله ويكذب بوحدايته ﴿ حمّ . تنزيل الكتاب من الله العزيز الحكيم . ما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا

بالحقِّ وأجلِّ مُسمًى ، والذين كفروا عمَّا أُنذِروا معرضون ﴿١٠﴾ .
 ومن الحديث عن الكون العظيم وما فيه من الآيات الباهرة ، إلى الحديث
 عن الآلهة المزعومة التي عبدها المشركون ، وهي لا تسمع الدعاء ولا
 تستجيب النداء ، وبالأسلوب التهكمي اللاذع مع التبيكيت والتوبيخ ،
 يناقشهم القرآن الكريم ليكشف لهم عن خطئهم وضلالهم ، مقروناً
 بقوة الحجّة ونصّاعة الحقِّ المبين ﴿١١﴾ قل أرأيتم ما تدعون من دون الله ؟
 أروني ما ذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شركٌ في السمواتِ اثبوني بكتابٍ
 من قبل هذا أو أثارة من علمٍ إن كنتم صادقين ؟ ومن أضلُّ ممن يدعو من
 دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة ، وهم عن دعائهم غافلون ؟
 وإذا حُشِرَ الناسُ كانوا لهم أعداءً ، وكانوا بعبادتهم كافرين ﴿١٢﴾ .
 وتنتقل الآيات الكريمة لتتحدث عن موقف المشركين - من أهل مكة -
 من الوحي والرسالة ، فقد زعموا أن القرآن سحرٌ مبين ، بعد أن
 عجزوا عن معارضته ، ونسبوا الرسول إلى الكذب والاختلاق على
 الله ، وأن هذا القرآن من افترائه واختلاقه - مع يقينهم بأنه أميٌّ لا يقرأ
 ولا يكتبُ - ولكنها المكابرة والعناد ﴿١٣﴾ وإذا تلى عليهم آياتنا بيناتٍ قالَ
 الذين كفروا للحقِّ لما جاءهم : هذا سحرٌ مبينٌ . أم يقولون افتراه ،
 قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه ،
 كفى به شهيداً بيني وبينكم ، وهو الغفور الرحيم . قل ما كنتُ بدعاً
 من الرسل ، وما أدري ما يُفعل بي ولا بكم ، إن اتبعُ إلا ما يوحى إليَّ ،
 وما أنا إلا نذيرٌ مبينٌ ﴿١٤﴾ . وتستطرد الآيات في توبيخ المشركين ، وتنددُ
 بظلمهم بالإصرار على التكذيب ، بينما يؤمن بهذا القرآن فريقٌ من أهل
 الكتاب لأنهم رأوا فيه الحقَّ القاطع ، والضياء الساطع ﴿١٥﴾ قل أرأيتم
 إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهدٌ من بني إسرائيل على مثله
 فآمن واستكبرتم ؟ إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿١٦﴾ .

وتعرض السورة الكريمة لنموذجين من نماذج البشرية ، في هدايتها أو ضلالها ، وفي سعادتها أو شقاوتها ، فتذكر الفطرة الإنسانية السليمة التي سارت منذ نشأتها الأولى على درب الإيمان ، والتقت فيها آصرة الإيمان بآصرة النسب ، وهو مثلٌ للمؤمن المهتدي ، الذي عرف حق ربه وحق والديه ، فأمن بالله حق الإيمان ، وشكر لوالديه تربيتهما وبرهما وإحسانهما إليه ، وكان مصيره الجنة دار الأبرار ﴿ووصينا الإنسان بوالديه إحساناً﴾ حملته أمه كُرهاً ووضعته كُرهاً ، وخمّله وفصاله ثلاثون شهراً ، حتى إذا بلغ أشده وبلغ أربعين سنة ، قال رب أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ ، وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ ، وأُصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتي إِنِّي تَبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ . أولئك الذين نتقبل عنهم أحسن ما عملوا ونتجاوز عن سيئاتهم في أصحاب الجنة ، وعدَّ الصِّدْق الذي كانوا يوعدون ﴿

أما النموذج الآخر فهو نموذج الانحراف والفسوق والضلال ، نموذج الانحراف عن الفطرة ، والزيف عن طريق الإيمان وهو مثلٌ للعاجد الكافر ، الذي جحد حق الله وحق والديه ، وكان مصيره المشيئة الخسران المبين ، والخلود الأبدي في دار الجحيم ﴿والذي قال لوالديه أفٍ لكما أتعدانني أن أخرجَ وقد خلت القرون من قبلي﴾ وهما يستغيثان الله ويُنَالِك آمَنَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ ، فيقول ما هذا إلا أساطيرُ الأولين . أولئك الذين حق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس ، إنهم كانوا خاسرين ﴿

وتعرض السورة لمشهدٍ سريعٍ من مشاهد القيامة ، مشهد الذل والهوان للكفرة المجرمين ، يُعرض فيه مصير هذا الفريق من المكذبين بآيات الله ، الذين تمتعوا بالدنيا ونسوا الآخرة ، بل لم يؤمنوا بها لأنها لم تكن في تفكيرهم وحسابهم ﴿ويوم يُعرض الذين كفروا على النارِ أذهبتم

طبيباتكم في حياتكم الدنيا واستمعتم بها ، فالיום تُجزون عذاب الهون ،
 بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون ﴿١﴾ .
 وتحدث السورة عن مصرع قوم هود ، أولئك العتاة الطغاة الذين
 تكبروا وتجبروا في الأرض ، وكذبوا النذير « هوداً » عليه السلام ،
 تذكيراً لكفار مكة وتحذيراً لهم من ذلك المصير المشؤم ، الذي ينتظر
 كل متكبر على الله ، متعالٍ على الإيمان برسله ، فقد كانت عادٌ أقوى
 وأعتى من أهل مكة ، وكانوا أشدَّ منهم قوةً وأكثر أموالاً وأولاداً ،
 وكانوا إذا مشوا تهتز الأرض تحت أقدامهم من شدتهم ، فاغتروا بما هم
 عليه من القوة وضخامة الأجسام حتى تجرءوا فقالوا « من أشدُّ منا قوة » ؟
 وكانت النتيجة أن أهلكهم الله بأيسر الأسباب ، بالريح العاصف
 المدمر ، وتذكر الروايات المعتمدة أن القوم أصابهم حر شديد ،
 واحتبس عنهم المطر ، وأظلم الجو حولهم من الحر والجفاف حتى
 كادت أنفاسهم تُخنق ، ثم ساق الله إليهم سحابة ، ففرحوا بها فرحاً
 شديداً ، وخرجوا يستقبلونها في الأودية وهم يحسبون فيها الحياة
 والماء ، بينما فيها الموتُ والفتاء ﴿٢﴾ فلما رأوه عارضاً مستقبلاً أوديتهم
 قالوا : هذا عارضٌ ممطرنا ، بل هو ما استعجلتم به ، ريحٌ فيها عذابٌ
 أليمٌ . تدمر كلُّ شيءٍ بأمر ربها ، فأصبحوا لا يرى إلا مساكنهم ، كذلك
 نجزي القوم المجرمين ﴿٣﴾ . وعلى مشهد الدمار والخراب يلتفت القرآن
 إلى أمثالهم الحاضرين ، ممن كذبوا المرسلين ، فيلمس قلوبهم بما ترتعش
 له القلوب ﴿٤﴾ ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم
 يرجعون . فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة ! بل
 ضلُّوا عنهم ، وذلك إفكهم وما كانوا يفترون ﴿٥﴾ .
 وتحدث السورة عن قصة النفر من الجن ، الذين استمعوا القرآن
 فخشعت له قلوبهم ، وتأثروا به فآمنوا ثم انصرفوا إلى قومهم سذنين ،

يدعونهم إلى الإيمان ويبشرونهم بالرحمة والغفران ، بينما الكفار من
أهل مكة يكابرون ويعاندون ﴿ وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون
القرآن ، فلما حضروه قالوا أنصتوا ، فلما قُضِيَ وَلَّوْا إلى قومهم منذرين .
قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى ، مصداقاً لما بين يديه ،
يهدي إلى الحق وإلى طريق مستقيم . يا قومنا أجبوا داعي الله وآمنوا به
يغفر لكم ذنوبكم ويمحركم ويحركهم من عذاب أليم ﴾ وتختتم السورة الكريمة
بتوجيه الرسول ﷺ إلى الصبر وعدم الاستعجال لهم بالعذاب ، فإن
ما ينتظرهم قريب ﴿ فاصبر كما صبر أو لو العزم من الرسل ، ولا
تستعجل لهم ، كأنهم يوم يرون ما يوعدون لم يلبثوا إلا ساعة من نهار ،
بلاغ فهل يُهلك إلا القوم الفاسقون ﴾ ؟

(٤٧) سُورَةُ مُحَمَّدٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأَ لَهَا سِتًّا وَثَلَاثِينَ

سورة محمد من السور المدنية ، التي تُعنى بجانب التشريع ، وتهتم بالأحكام التشريعية التي يقوم عليها نظام الإسلام ، في العبادات ، والآداب ، والأخلاق ، والمعاملات ، وسائر النواحي التشريعية . سميت السورة الكريمة « سورة محمد » لأن فيها تحليداً لذكر اسمه الشريف ﷺ ، وإعلاناً بأن هذا الرسول الذي ختم الله به الرسالات السماوية وختم به النبوة ، هو النبي الصادق ، الهادي الأمين ، وأنه هو وأتباعه على المحجة البيضاء والصراط المستقيم ، وأنهم على نور وهداية من الله ﷻ والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم ، كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﷻ ولذلك سميت سورة محمد ﷻ ، وهذه السورة اسم آخر ، اسمها « سورة القتال » وهو اسم حقيقي لها مناسب لموضوعاتها وأهدافها ، فالقتال لأعداء الله هو موضوعها الأساسي ، والقتال هو العنصر البارز فيها ، وهو المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة .

تبتدىء السورة الكريمة ببيان حقيقة الإيمان والكفر ، وتعريف الناس بصفات المؤمنين الأبرار ، وصفات الكافرين الفجار ﷻ الذين كفروا وصدوا عن سبيل الله أضل أعمالهم . والذين آمنوا وعملوا الصالحات وآمنوا بما نزل على محمد وهو الحق من ربهم كفر عنهم سيئاتهم وأصلح بالهم ﷻ ذلك بأن الذين كفروا اتبعوا الباطل ، وأن الذين آمنوا اتبعوا الحق من

رَبِّهِمْ ، كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۖ

وتحدثت السورة عن الجهاد والقتال لإعلاء كلمة الله ، وتطهير الأرض من رجس المشركين ، والله قادرٌ على الانتقام منهم دون أن يكلف المؤمنين بجهادهم وقاتلهم ، ولكنه الابتلاء والاختبار ۖ فَإِذَا الْقِيَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضْرَبَ الرِّقَابَ ، حتى إذا أُنْخَسِمُوهُمْ فَشَدُّوا الْوَتَاقَ ، فَإِمَّا مِنْهُ بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءٌ حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ، ذلك ولو يشاء الله لا نتصر منهم ، ولكن لِيُبَلِّغَ بَعْضُكُمْ بَعْضًا ، وَالَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ ، سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ ۖ

وتحدثت السورة عن واجب المؤمنين في نصره دين الله ، وردّ كيد الأعداء عنه ، وقد وعد الله المؤمنين بنصرهم على أعدائهم ، وثبتت أقدامهم في المعركة ، إن هم نصروا دينه وأعزوا شرعه ۖ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعَسَا لَهُمْ وَأُضِلَّ أَعْمَالُهُمْ ۖ

وتنتقل السورة للحديث عن المكذبين وبيان عاقبتهم الوخيمة ، وفيها إنذار وإعذار لأهل مكة حيث يرون الآيات فلا يعتبرون ، ويشاهدون مصارع من سبقهم من الأمم الباغية ، كيف دمر الله عليهم كل ما حولهم لما تمالأوا في الطغيان والعناد والتكذيب لرسول الله ۖ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ؟ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا . ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ، وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَى لَهُمْ ۖ

وتوازن السورة بين المؤمنين والكافرين ، في أهدافهم وأغراضهم ، وحالهم ومآلهم ، فالمؤمنون يعبدون الله ، وهدفهم رضوان الله ، ليفوزوا بالجوار الكريم في جنات النعيم ، ولذلك أنالهم الله ما يبتغون ، والكافرون على النقيض يجرون وراء الأهواء والشهوات ، كالبهائم السارحة التي لا

تفقه معنى للحياة إلا أن تملأ بطونها وتنال شهواتها البهيمية ، ولذلك كان مآلهم في دركات الجحيم ، لأنهم لم يكرّموا أنفسهم بل أهانوها فاستحقوا الذلّ والهوان ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَسْتَمْتِعُونَ بِأَكْلُونِ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ ، وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ .

وتأكيداً للبون الشاسع بين الفريقين : المؤمنين والكافرين ، تقارن السورة بين نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ، وهو المصير المحتّم لكل من الفريقين ، فتصف نعيم أهل الجنة بما لا مزيد عليه من التشويق إلى نيله مع التكريم ، وتوازن بينه وبين مصير أهل النار ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ ، فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ ، وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى ، وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ ، كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ ، وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ ؟

ثم تنتقل السورة للحديث عن المنافقين ، وهم الخطر الداهم على الإسلام والمسلمين ، وقد كانوا بالمدينة المنورة يعيشون مع المسلمين ، ويتظاهرون بالإسلام على كرهٍ وهم يضمرون الحقد والبغضاء ، ويتربصون بالرسول وأصحابه الدوائر ، وعلى رأسهم «عبد الله بن أبي بن سلول» رأس النفاق ، وقد تكرر ذكر المنافقين ووصف دسائسهم ، والتنديد بمؤامراتهم وأخلاقهم في السورة المدنية ، كما تكرر ذكر اتصالهم باليهود ، وهذه السورة إحدى المواضع التي وردت فيها الإشارة إلى المنافقين وإلى اليهود ﴿إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدَوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى ، الشَّيْطَانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَى لَهُمْ . ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرَهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ، فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ .

ذلك بأنهم اتبعوا ما أسخط الله وكرهوا رضوانه فأحبط أعمالهم ﴿١﴾ .
وتدعو السورة الكريمة المؤمنين إلى الجهاد في سبيل الله ، ومواصلة
الجهاد بالنفس والمال ، وتصور قيمة الحياة الفانية ، وما أعدَّ الله
للمؤمنين الأبرار في دار القرار ﴿٢﴾ فلا تَهْنُوا وتَدْعُوا إلى السَّلم وأنتم
الأعلون ، والله معكم ولن يتركم أعمالكم . إنما الحياة الدنيا لعبٌ وهوٌ
وإن تؤمنوا وتتقوا يؤتكم أجوركم ولا يسألكم أموالكم ﴿٣﴾ ومُخْتَم السورة
الكريمة بالدعوة إلى البذل والتضحية لإعلاء كلمة الله ، وتعقب على ذلك
بالإنذار والوعيد لمن يبخلُ عن بذل ماله شحاً وبخلاً ﴿٤﴾ ها أنتم هؤلاء
تُدْعُونَ لتنفقوا في سبيل الله ، فمنكم من يبخلُ ، ومن يبخلُ فإنما
يبخلُ عن نفسه ، والله الغني وأنتم الفقراء ، وإن تتولَّوا يستبدل قوماً
غيركم ثم لا يكونوا أمثالكم ﴿٥﴾ .

(٤٨) - سُورَةُ الْفَتْحِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْمُنَافِقُونَ وَغَيْرُكُمْ

سورة الفتح : مدنية بإجماع . وهي تسع وعشرون آية . نزلت
ليلاً بين مكة المكرمة والمدينة المنورة حين عودة رسول الله ﷺ من
الحديبية إلى المدينة المنورة بعد صلح الحديبية .

أخرج ابن أبي شيبة وأحمد وأبو داود والنسائي عن ابن مسعود
رضي الله تعالى عنه قال [أقبلنا من الحديبية مع رسول الله ﷺ عام
ست بعد الهجرة ، وكان قد خرج إليها عليه الصلاة والسلام يوم الاثنين
هلال ذي العقدة فأقام بها بضعة عشر يوماً ، وقيل عشرين يوماً
ثم قفل عليه الصلاة والسلام ، فبينما نحن نسير إذ أتاه الوحي ، وكان
إذا أتاه اشتد عليه ، فسرّى عنه وبه من السرور ما شاء الله تعالى ،
فأخبرنا أنه أنزل عليه (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ..) .

فالسورة إذن مدنية ، لذا نجد لها معنية : كسائر الآيات المدنية :
بالاحكام والتشريع . لقد تضمنت هذه السورة احكاماً جليلة نافعة .

تضمنت الكلام على الجهاد في سبيل الله تعالى ، ونصر الله تعالى
لرسوله ﷺ وتأييده له . وذكر المنافقين وتذبذبهم وجبنهم ،
وذكر المؤمنين وجميل صفاتهم ، والإشارة إلى لطف الله تعالى بهم
واكرامهم ، والإشارة إلى العمرة ، وذكر صفات أصحاب رسول
الله ﷺ في الكتب السابقة ، وأخيراً وعد الله تعالى لهم وللصالحين من
عباده الكرامة الكبرى في الآخرة .

● - اعتراف الشركين بالدولة الإسلامية بعد جهادها في الله حق الجهاد . كان مشركو مكة وغيرهم يقاتلون رسول الله ﷺ والمسلمين قتالاً مريباً دون هوادة ، ويجابهون دعوته في كل ميدان وجبهة ، فلما كان صلح الحديبية كان من آثاره اعتراف المشركين بكيان الدولة الإسلامية ورعاياها ، وحرية المسلمين في التنقل بالدعوة حيث شاءوا ، ففتحت أبواب مكة للدعوة الحرة إلى الإسلام وأمن المسلمون أينما كانوا . لقد عدَّ الله تعالى صلح الحديبية فتحاً ، إذ كان حقاً فتحاً ونصراً في حياة المسلمين وكان الفاتحة لفتح مكة بعد قليل . قال موسى ابن عقبة : قال رجل عند منصرفهم من الحديبية ما هذا بفتح ، لقد صدونا عن البيت ، فقال النبي ﷺ : بل هو اعظم الفتح ، لقد رضي المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ، ويسالوكم القضية ويرغبوا اليكم في الأمان وقد رعو منكم ما كرهوا .

ولقد أقرَّ الله تعالى عين نبيه فجمع له ما به تقرُّ عينه في الدنيا والآخرة ، قال تعالى (إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً) . وليس للرسول ﷺ ذنب كذنوب الناس ، فإنه سيد ولد آدم ، والرسول : وهو أكرمهم على الله تعالى : معصومون ، أن الأمر أن ﷺ يرتقي في معارج البر والقرب من الله كل حين ، فإذا نظر في حاله الحاضرة إلى ما كان عليه في حاله السابقة عدَّ ذلك كالزلة ، قال ﷺ (أنه ليغان على قلبي وإني استغفر الله في اليوم أكثر من سبعين مرة .) أو هو علي قال الحسن رضي الله عنه [حسنات الابرار سيئات المقربين] .

قال الزمخشري : فإن قلت جعل فتح مكة علة للمغفرة ؟ قلت لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لإجتماع ما عد من الأمور الأربعة ، وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قال :

قد يسرنا لك فتح مكة ونصرناك على عدوك ليجمع الله لك عز الدارين وأعراض العاجل والآجل : وأقر الله سبحانه ، عين رسوله ﷺ بمغفرة ذنوب المؤمنين عامة ومن كان معه في الحديبية خاصة فقال (ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها إلى قوله (فوزاً عظيماً) .

● - حقيقة النصر من عند الله تعالى ، فهو الذي يثبت قلوب المؤمنين الصادقين ويقوي عزائمهم ، ويرغبهم في الجهاد في سبيله لينالوا الأجر والجنة ، ويخذل الكافرين ويلقي الرعب في قلوبهم ، لأنهم يريدون الحياة الدنيا وزينتها فيخافون القتال لخوفهم من القتل . قال تعالى « هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم والله جنود السموات والأرض وكان الله عليماً حكيماً » ليدخل المؤمنين والمؤمنات جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ويكفر عنهم سيئاتهم وكان ذلك عند الله فوزاً عظيماً . ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء وغضب الله عليهم ولعنهم وأعد لهم جهنم وساءت مصيراً .

● - المنافقون الذين يعيشون مذبحين بين المؤمنين والكافرين ، يقولون للمؤمنين إن كان لهم الفتح والنصر الم نكن معكم ، ويقولون للكافرين إن كان لهم نصيب يسير من النصر الم نخطط بكم ونخذل المسلمين عن الوصول اليكم ، هؤلاء المنافقون جبنة ، يحسبون كل صيحة عليهم ، لقد خافوا من الخروج مع رسول الله ﷺ إلى مكة للعمرة ، وقالوا سيقتل الرسول وأصحابه ﷺ ولن يعود منهم إلى المدينة أحد ، فخبى الله ظنهم وكذب قائلهم ، فرد الرسول والمؤمنين إلى المدينة وقد أكرمهم بالفتح ووعدهم النصر القريب على يهود خيبر . قال سبحانه (سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلنا أموالنا

واهلونا فاستغفر لنا ...) فيجيئهم سبحانه بقوله (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهلهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بوراً) .

وحين أظهروا الندم على ما فاتهم من ذلك الخروج قال سبحانه لهم (.. ستدعون إلى قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجراً حسناً وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذ بكم عذاباً أليماً) .

● - صدق المؤمنون الله فصدقهم الله . لقد خرج مع رسول الله ﷺ إلى الحديبية ١٤٠٠ / رجل ليس معهم إلا السيوف في قريها ، وحين دُعوا إلى الجهاد ثمة على قلة السلاح وغربة الميدان والبعد عن الأهل والمدد بادروا فبايعوه ﷺ على القتال والموت في سبيل الله ... فحفظ الله تعالى حياتهم ، وأثبت لهم رضوانه ، وكتب لهم نصراً وغنائم يصلون إليها من قريب ، وأن الله أحق من أدى ووفى . قال سبحانه (لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً) . وذلك فتح خيبر ، وهزيمة يهود فيها . والحمد لله .

لقد حفظ الله تعالى المؤمنين الذين خرجوا إلى الحديبية فلم يسلط عليهم كفار مكة وما حو لها من العرب فضلاً من الله على الذين خرجوا في سبيله ، فقال سبحانه (وهو الذي كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكان الله بما تعلمون بصيراً) . فلقد أرسلت قريش سبعين أو ثمانين فارساً (حين كان السفراء يمشون بالصلح بين الرسول والمشركين) أيام الحديبية للإيقاع بالمسلمين وإنتهاز الفرصة في أطرافهم ، ففطن لهم المسلمون قاسروهم ، واطلقهم رسول الله ﷺ .

● - لطف الله تعالى بعباده . لقد وقف المشركون بعنادهم في طريق الرسول وأصحابه ﷺ الذين قصدوا مكة المكرمة لاداء العمرة وقد ساقوا معهم الهدى ولبسوا ثياب الأحرار ، مع أن البيت بيت الله تعالى ، وما كانوا الآسذنته والمثشرفين . بخدمه عماره .. ولولا أن كان في مكة المكرمة ذلك الوقت مستضعفون مخالطين للمشركين في مساكنهم وظواهر احوالهم لأذن الله للمسلمين بقتال المشركين فيها ، لكنه لم يأذن حفظاً لأولئك المستضعفين . قال سبحانه (هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفاً أن يبلغ محله ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات لم تعلموهم أن تطوؤهم فتصيبكم منهم معرة بغير علم لو تزيلوا لعذبنا الذين كفروا منهم عذاباً أليماً .)

● - رؤيا الأنبياء وحى : لقد رأى ابراهيم عليه السلام في المنام أنه يؤمر بذبح ولده اسماعيل فقام لينفذ ما أمر به في الرؤيا فقاده الله بذبح عظيم ، ورأى رسول الله ﷺ في المنام أنه يدخل مكة المكرمة معتمراً فدعا أصحابه إلى الخروج إلى مكة للعمرة ، فخرج معه من خرج .. ولقد حقق الله تعالى رؤياه فدخل مكة المكرمة بعد عام معتمراً . وما لبث بعد يسيراً ، حتى دخلها فاتحاً . قال سبحانه (لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام ان شاء الله آمنين محلقين رؤوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً) .

● - أصحاب رسول الله ﷺ رحماء بينهم ، اذلة بعضهم لبعض وأحبة ، وهم على الكفار أشداء لا يجبنون عن قتالهم ومحاربتهم في سبيل الله تعالى ، وهم موصوفون في التوراة الصحيحة بالاقبال على عبادة الله تعالى وطاعته مما يظهر ذلك على قسماآ وجوهم نوراً ،

وفي ابدانهم سلوكاً قاضياً ، وهم موصوفون في الإنجيل الصحيح بالزراع الذي يبدو صغيراً نحيلاً ، ثم ما يزال ينمو ويربو حتى يكبر ويعطي ما يعطي مما يعجب الزراع من صالح الثمار ، لكنه يغيب الكفار الذين لا يريدون لدين الله ظهوراً ، ولا للمسلمين إيماناً ، كما قال سبحانه في وصفهم (ودوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء) . قال سبحانه (محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار ... ذلك مثلهم في التوراة ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى على سوقه يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ..) .

● - وعد الله لمن آمن به واتبع ما جاء من عنده ، هو إكرام وإكرام ، جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين ، فطوبى لمن آمن وعمل صالحاً ، فإن الله يصدق معه وعده ، لقد ختم الله تعالى سورة الفتح بقوله (وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً) .

فأكرم بفاتحة سورة الفتح واعظم بنهايتها .

(٤٩) سُورَةُ الْحَجَرَاتِ ثَلَاثِينَ
وَأَيَّاتُهَا ثَمَانِي عَشْرَةٌ

سورة الحجرات مدنية ، وهي على وجازتها وقلة آياتها - حيث لا تتجاوز ثمان عشرة آية - سورة جليلة ضخمة ، تتضمن حقائق كبيرة من أمور العقيدة والشريعة ، ومن حقائق الوجود البشري ، وتشمل مناهج التكوين والتنظيم ، وقواعد التربية والتهديب ، وأصول التشريع والتوجيه ، وأسس المدنية والأخلاق ، حتى لقد سمّاها بعضهم « سورة الأخلاق » سميت السورة الكريمة « سورة الحجرات » لأن الله تعالى ذكر فيها حجرات النبي ﷺ وهي منازل الكريمة التي كان فيها أزواجه الطاهرات ، وقد أشارت إلى حادث وقع من وفد بني تميم حين قدموا على رسول الله ﷺ في « عام الوفود » وكانوا أعراباً جفاةً فنادوا من وراء حجرات أزواج النبي ﷺ المطلة على المسجد النبوي الشريف ، نادوا : يا محمد أخرج إلينا ، فكره النبي ﷺ هذه الغلظة والجفوة ، ونزل القرآن بتعليم الناس محاسن الآداب تنبيهاً على قدر الرسول ﷺ القائد المربي ، والمرشد العظيم ﴿ إِنَّ الَّذِينَ ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون . ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم لكان خيراً لهم ، والله غفورٌ رحيم ﴾ ولذلك سميت سورة الحجرات . وقد جاء في السورة الكريمة خمس نداءات بلفظ الإيمان « يا أيها الذين آمنوا » وجاء فيها نداء واحد بلفظ « يا أيها الناس » لأن الخطاب كان عاماً للمؤمنين والكافرين وذلك في قوله جل ثناؤه « يا أيها الناس

إنا خلقناكم من ذكرٍ وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، إن الله عليمٌ خبيرٌ .

ابتدأت السورة الكريمة بتوجيه المؤمنين إلى احترام أوامر الله ، وأوامر رسوله ، وألاً يبدوا رأياً ، أو يَقضوا حكماً ، أو يُبرموا أمراً قبل أمر الله وأمر رسوله ، فإن ذلك من مستلزمات الإيمان ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تُقدّموا بين يديّ الله ورسوله ، واتقوا الله إن الله سميعٌ عليمٌ ﴾ وكذلك تأدب المؤمنون مع ربهم ومع رسولهم ، فما عاد أحدٌ منهم يقضي برأيه في أمرٍ أو حكمٍ إلا أن يرجع قبل ذلك إلى قول الله وقول الرسول . ثم تناولت أدباً آخر مع الرسول ﷺ خاصة وهو ألا يرفعوا أصواتهم في حضرته ، تعظيماً لمقامه الشريف ، وتوقيراً لجلالة قدره ، فهو رسول الله الرحمة المهداة إلى العالمين ، وإذا كان من سوء الأدب أن يرفع الإنسان صوته أمام رئيسٍ أو وزيرٍ أو أميرٍ ، فسيد الرسل أحقُّ بالإجلال والاحترام ، والتعظيم والتوقير من عظماء الدنيا بأسرهم ، ولهذا دعاهم الله بذلك النداء الحبيب نداء الإيمان ، ثم حذرهم بذلك التحذير الرهيب « يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون . إن الذين يغضون أصواتهم عند رسول الله أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى ، لهم مغفرةٌ وأجرٌ عظيمٌ .

ومن الأدب الخاص مع الرسول ، إلى الأدب العام مع المؤمنين ، تنتقل السورة لتوجيه الأنظار إلى وجوب الثبوت من الأخبار ، وألاً يتلقفوا الأنباء على أنها حقائق مؤكدة ، فكم من كلمةٍ قالها رجلٌ فاسقٌ ، أو نقلها شخصٌ كاذبٌ ، فسببت كارثةً من الكوارث ، وكم من خبرٍ لم يثبت منه سامعه جرّ وبالاً ، وأحدث انقساماً بين طوائف المسلمين ، لذلك جاءت الآيات تأمر بالثبوت من مصدر الأنباء والأخبار لا سيما

إذا كانت من فاسقٍ أو فاجرٍ « يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسقٌ بنبأٍ فبيِّنوا - أي تحقّقوا وثبتوا - أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . واعلموا أن فيكم رسولٌ الله لو يطيعكم في كثيرٍ من الأمر لعنّتُمْ ولكنَّ الله حَبَّبَ إليكم الإيمانَ وزَيَّنَهُ في قلوبكم ، وكرَّهَ إليكم الكفرَ والفُسوقَ والعصيانَ أولئك هم الراشدون » . وصيانة للمجتمع الإسلامي من عوامل التفكك والخصام ، ودرءاً للشُرور والآثام ، وإقراراً للحق والعدل والسلام ، تأمر الآيات الكريمة بالإصلاح بين الفئات المتخاصمة ، ثم برَدع الظالم وكفه عن ظلمه حتى ولو أدى ذلك إلى قتال الباغي ﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأُخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون ﴾ ثم تنتقل السورة لتقيم دعائم المجتمع الفاضل على أسس مثينة من الحب والخير والوئام ، فتأمر بصيانة كرامة الفرد ، وتنبه عن السخرية والهمز واللمز بأحدٍ من المؤمنين ، لأنهم يجب أن يكونوا وحدة متماسكة كأعضاء في جسم الإنسان ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قومٌ من قوم عسى أن يكونوا خيراً منهم ، ولا نساءٌ من نساء عسى أن يكنَّ خيراً منهن ، ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ، ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون ﴾ .

وتطهيراً للضمير من أن يتلوَّث بالظن السيء فيقع في الإثم ، تأمر السورة باجتناب الظن السيء بالآخرين ، ليظل المجتمع نقياً بريئاً من الهواجس والشكوك ، وتنبه عن التجسس لكشف العورات ، وتتبع الهفوات ، وتحذّر من الغيبة التي تهدم بنيان المجتمع ، يحییء النبي في تعبير عجيب ، يُبدعه القرآن إبداعاً ، ويصوّره بشكل تنفر منه

النفوس ، حتى ولو كانت ضعيفة الشعور والإحساس ، منظر الأخ
 يأكل لحم أخيه وهو ميتٌ ، ويا له من تنفير عجيب ﴿ يا أيها الذين
 آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن ، إن بعض الظن إثم ، ولا تجسسوا ،
 ولا يعتب بعضكم بعضاً ، أياحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتاً
 فكرهتموه ، واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ وتنتقل السورة للحديث
 عن الأعراب الذين ظنوا الإيمان كلمة تقال باللسان ، ثم جاءوا يمينون
 على النبي ﷺ إيمانهم ، ونسوا أن الإيمان قول وفعل وعمل ، وجهاد
 في سبيل الله ، وتضحية بالنفس والنفيس ، وليس مجرد دعوى
 يدعيها الإنسان ﴿ قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا
 ولما يدخل الإيمان في قلوبكم . إلى قوله تعالى .. يمينون عليك أن أسلموا
 قل لا تمنوا علي إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان إن كنتم
 صادقين . إن الله يعلم غيب السموات والأرض والله بصير بما تعملون ﴾
 وهو ختام السورة الكريمة .

(٥٠) سُورَةُ قَاتِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَاُهَا خَيْرٌ وَأَرْجَاؤُهَا خَيْرٌ

هذه السورة كسائر السور المكية تعالج قضية الايمان بالله تعالى ،
والبعث بعد الموت ، وفيما بين ذلك تعرض مظاهر محسنة من قدرة
الله تعالى ، وحكمته ، ومراقبته عباده لمحاسبتهم ﴿ يوم تشقق الارض
عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير . ﴾

تناولت هذه السورة العظيمة قضايا رئيسية خمسة : قضية البعث
وانكار المشركين له ، لفت الانظار الى كتاب الكون المفتوح ، الرقابة
المباشرة للخلق من الميلاد ومرورا بالموت تنتهي بالبعث والجزاء ، قدرة
الله تعالى على فعل ما يشاء ، ووظيفة الرسول ﷺ .

● ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح القضية الاولى فذكرت ان الله
تعالى الذي بدأ الخلق أول مرة لا يصعب عليه ان يعيده وهو العليم
القادر المريد الذي لا يغرب عن علمه شيء ، ولا يتد عن مقدوره
مراد ، فعلام يعمون ويعجبون من اعادته سبحانه الخلق ؟ قال الله سبحانه
﴿ ق والقرآن المجيد بل عجبوا أن جاءهم منذرٌ منهم فقال الكافرون
هذا شيء عَجِيبٌ إِذَا مِنَّا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ
الارض منهم وعندنا كتاب حفيظ بل كذبوا بالحق كما جاءهم فهم في
أمر مَرِيج . ﴾

● ثم تحدثت عن كتاب الكون الذي يقرأ فيه العامي والعالم

والساذج والذكي كل بحسب استعداده وأهليته ، فكل يرى السماء المرفوعة بغير عمد يرونها ، والارض ممدودة محفوظة بالجبال من أن تميد والرياض والبساتين رزقا للعباد ، فليكن بذلك الاعتبار والتذكر ، قال تعالى ﴿ افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج ﴾ الى قوله ﴿ كذلك الخروج ﴾ .

● ثم تحدثت السورة عن رقابة الله تعالى للخلق ، وهي رقابة رافقت الاجيال السالفة حتى اسلمت منكربها الى العذاب ، وهي تراقب الخلق أفراداً وجماعات حتى ينتقل كل الى جزاء عمله عند الله تعالى ، بصورة يرتعش لها القلب ويمتلئ بها الحس روعة ورهبة . قال سبحانه ﴿ ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل الوريد ﴾ الى قوله ﴿ لا تختصموا لديّ وقد قدمت اليكم بالوعيد ما يبدّل القول لديّ وما انا بظلام للعباد يوم نقول لجهنم هل امتلأت وتقول هل من مزيد وأزلفت الجنة للمتقين غير بعيد هذا ما توعدون لكل آوابٍ حفيظ من خشى الرحمن بالغيب وجاء بقلب منيب . ﴾

● وتحدثت السورة كذلك عن قدرة الله تعالى في بناء السموات والارض في ستة ايام دون أن يناله سبحانه تعب ولا نصب .. وفي بعث الناس من قبورهم ليحاسبوا على ما اسلفوا من خيرا وشر ، على صورة من البيان القوي بهلغ له القلب ويكاد من شدة ظهوره يلمحه البصر ، قال سبحانه ﴿ ولقد خلقنا السموات والارض وما بينهما في ستة ايام وما مسنا من لغوب فاصبر على ما يقولون .. ﴾ الى قوله تعالى ﴿ يوم يسمعون الصيحة بالحق ذلك يوم الخروج إنا نحن نحيي ونميت وإلينا المصير يوم تشقق الارض عنهم سراعا ذلك حشر علينا يسير .) . وختمت السورة بالحديث عن وظيفة رسول الله ﷺ ، فاذا هي وظيفة

الإرشاد والدلالة على الخير دون قسر وإكراه ، ودعوة الناس الى القرآن الكريم وتذكيرهم به فيما أودع الله تعالى فيه من عظات وعبر ونماذج من حجاج وبراهين لمن شاء ان يستقيم ، قال سبحانه ﴿ نحن اعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ﴾ .

فضلها : عن أبي واقد الليثي رضي الله تعالى عنه انه صلى الله عليه وسلم ﴿ كان يقرأ في العيد بقاف ﴾ . رواه أحمد ومسلم .

وعن أم هشام ابنة حارثة رضي الله تعالى عنها قالت ﴿ ما أخذت ﴿ ق والقرآن المجيد ﴾ الا من في رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقرأ بها في كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس ﴾ . رواه ابو داود وابن ماجه والبيهقي وابن أبي شيبة .

(٥١) سُورَةُ الذَّارِيَّاتِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّاتُهَا سِتُّونَ آيَةً

سورة الذاريات مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وتهتم ببناء صرح الإيمان على أسس متينة من اليقين والتصديق بوحداية الله ، والإيمان بالوحي والرسالة ، والحساب والجزاء . ومحور السورة الكريمة يدور حول الاعتقاد بوحداية الله ، وأنه هو الخالق الرازق ، المحيي المميت ، المتصرف في الكون بما يشاء ، وجميع الخلق عبيده ، خاضعون لجلاله ، محتاجون إليه ، وهو الغني الحميد ، وقد حشدت السورة الكريمة بعض الآيات الكونية الدالة على قدرته تعالى وعظيم سلطانه للإشارة إلى أنه الواحد المعبود ، كما ذكرت قصص الأنبياء « إبراهيم ، ولوط ، وموسى ، ونوح ، وهود ، وصالح » بشي من الإيجاز للتنبيه على أن دعوة الرسل واحدة ، وهي تعريف الخلق بالإله الخالق ، الواحد الأحد ، وتجريد القلب لعبادته جل وعلا ، ووصله بالسما بالإيمان واليقين .

تبتدىء السورة الكريمة بالقسم بأنواع من المخلوقات - تبدو للعيان وكأنها خفيفة يسيرة ، وهي عظيمة جليلة لآثارها الكبيرة - بالرياح التي تذر الغبار وهي تحمل معها الحياة وتحمل الدمار ، وبالسحب الموقرة بالأمطار يسوقها الله إلى حيث شاء ، وبالسفن الجاريات في يسر على سطح الماء بقدرته جل وعلا الذي سخّر لها



الأنهار والبحار ، وبالملائكة التي تحمل أوامر الله لتبليغها لرسل الله الأبرار ، أقسم تعالى بهذه الأشياء الأربعة « الرياح ، السحب ، السفن ، الملائكة » على وقوع المعاد والحساب والجزاء ﴿ والذاريات ذروا . فالحاملات وقراً . فالجاريات يسراً . فالمقسمات أمراً . إن ما توعدون لصادق . وإن الدين لواقع ﴾ وهو قسم يتجلى فيه أهمية الحساب والجزاء ، وعظمة شأن الآخرة .

ثم انتقلت السورة إلى قسم آخر ﴿ والسماء ذات الحُبك . إنكم لفي قول مختلف . يؤفك عنه من أفك ﴾ أقسم تعالى بالسماء المنسقة المحكمة التركيب ، كتسبيق الزرد المتشابك المتداخل الحلقات ، على أنهم في قول مختلف مضطرب ، لا قوام له ولا قرار ، ولا ثبات ولا استقرار ، فهم يعيشون في أوهام وظنون في أمر الآخرة ، لا يستندون على حق ويقين ، ولذلك يخطون خبط عشواء ، وهم مغمورون بالأباطيل والأوهام لا يفيقون ولا يستيقظون كأنهم سُكاري مذهبولون ، ولذلك دعا عليهم بالقتل ، ويا للذهول ! ﴿ قتل الخراصون . الذين هم في غمرة ساهون . يسألون أيان يوم الدين ؟ يوم هم على النار يُقْتنون . ذوقوا فنتنكم هذا الذي كنتم به تستعجلون ﴾ .

وبعد الحديث عن المكذبين الفجار ، تتحدث السورة الكريمة عن المؤمنين الأبرار ، وهم يُكْرَمُونَ في دار النعيم لأنهم كانوا في الدنيا محسنين ﴿ إن المتقين في جنات وعيون . آخذين ما آتاهم ربهم إنهم كانوا قبل ذلك محسنين . كانوا قليلاً من الليل ما يهجعون . وبالأسحار هم يستغفرون . وفي أموالهم حق للسائل والمحروم ﴾ ثم تلتفت السورة إلى آيات الله في الأرض ، وفي الأنفس ، وتوجه الأنظار إلى مصدر الرزق ، وتختتم بقسم عظيم أَنَّ الرزق مضمون ، مثل ما أنهم ينطقون ﴿ وفي الأرض آيات للموقنين . وفي أنفسكم أفلا تبصرون ؟ وفي

السماء رزقكم وما توعدون . فارب السماء والأرض إنه لحق مثل ما أنكم تنطقون ﴿١٠﴾ ثم تنتقل السورة الكريمة إلى الحديث عن الملائكة الذين بعثهم الله لإهلاك المكذبين من قوم لوط ، وقد مروا بطريقهم على إبراهيم الخليل ، ليبشروه بغلام عليم من زوجه العقيم ، ودخلوا عليه وهم في صورة بشر ولذلك لم يعرفهم ، وأسرع إلى تقديم الطعام لهم ظناً منه أنهم ضيوف . قدموا عليه ، ومن حق الضيف أن يُكرم ، وبأسلوب مشوق يجذب الأسماع إلى الانتباه للحديث ، يأتي التعبير عن قصة الخليل وضيوفه ﴿١١﴾ هل أتاك حديث ضيف إبراهيم المكرمين ؟ إذ دخلوا عليه فقالوا سلاماً قال سلامٌ قوم منكرون . فراغ إلى أهله فجاء بعجل سمين . فقرَّبَه إليهم قال ألا تأكلون ؟ فأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف وبشروه بغلام عليم . فأقبلت امرأته في صرة فصكت وجهها وقالت عجوز عقيم . قالوا كذلك قال ربك إنه هو الحكيم العليم ﴿١٢﴾ ثم تمضي الآيات تتحدث عن الغاية التي جاءوا من أجلها وهي إهلاك المجرمين من قوم لوط ، بياناً لسنة الله في إهلاك الظالمين ، وإنذاراً وإعذاراً للمشركين أن يصيبهم ما أصاب من سبقهم من الأمم ﴿١٣﴾ قال فما خطبكم أيها المرسلون ؟ قالوا إنا أرسلنا إلى قوم مجرمين . لَنرسل عليهم حجارة من طين . مسومة عند ربك للمسرفين . فأخرجنا من كان فيها من المؤمنين . فما وجدنا فيها غير بيتٍ من المسلمين . وتركنا فيها آيةً للذين يخافون العذاب الأليم ﴿١٤﴾ .

وتتعاقب النُّذُر والعظات ، تتحدث عن الأمم الطاغية الذين كذبوا رسل الله فأهلكهم الله ، وأخذهم بأنواعٍ من العذاب والدمار ، بالغرق أو بالريح أو بالصيحة أو الصاعقة ، وتذكر منهم فرعون وعاداً وثمود وقوم نوح ﴿١٥﴾ وفي موسى إذ أرسلناه إلى فرعون بسلاطين مبين . فتولى بركته وقال ساحر أو مجنون . فأخذناه وجنوده فنبذناهم في اليم

وهو مُلِم . وفي عادٍ إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم . ما تذر من شيءٍ أتت عليه إلا جعلته كالرميم . وفي ثمود إذ قيل لهم تمتعوا حتى حين . فاعتوا عن أمر ربهم فأخذتهم الصاعقة وهم ينظرون . فما استطاعوا من قيامٍ وما كانوا منتصرين ﴿ وبعد أن تذكر السورة آثار قدرة الله الباهرة تعقب بهذا التعقيب ﴾ كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون ﴾ .

وتختتم السورة الكريمة ببيان الغاية من خلق الإنس والجن ، وبيان عاقبة المكذبين ﴿ وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون . ما أريد منهم من رزقٍ وما أريد أن يطعمون . إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين . فإن للذين ظلموا ذنوباً مثل ذنوب أصحابهم فلا يستعجلون . فويل للذين كفروا من يومهم الذي يوعدون ﴾ .

(٥٧) سُورَةُ الطُّورِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأْنَاهَا نِسْءٌ وَارْبَعُونَ

سورة الطور من السور المكية التي تُعنى بأصول الإيمان «الوحدانية ، الرسالة ، البعث» ومحور هذه السورة يدور حول الآخرة وما فيها من نعيم وجحيم ، وعن مآل السعداء والأشقياء ، وعن الحق والباطل ، والشبهات التي أثارها المشركون حول الرسالة والرسول .

تبتدىء السورة الكريمة بحملةٍ عنيفة على الباطل ، وعلى الشبهات والأباطيل التي تساور نفوس المشركين ، حيث استبعدوا الآخرة وأنكروا البعث والجزاء ، واستهزؤوا بالعذاب الذي كان يخوفهم به الرسول ﷺ فجاءت الآيات تقسم بمقدّسات في الأرض والسماء ، بعضها مكشوف معلوم ، وبعضها مغيب مجهول بأن الآخرة حق ، وأن العذاب واقع لا محالة لا يُردُّ عن القوم المجرمين ، وقد بدأ بالقسم بمخلوقاته الدالة على قدرته العظيمة ، وذكر منها خمساً : جبل الطور الذي كلم الله عليه موسى ، واللوح المحفوظ الذي سُجِّلَتْ فيه الأقدار ، والبيت المعمور الذي هو مطاف الملائكة وهو لأهل السماء كالبيت العتيق لأهل الأرض ، وأقسم بالسماء في ارتفاعها ، وبالبحر المملوء في عمقه وسعته ، أقسم على أمرٍ عظيم رهيب ، يرجُّ القلب رجاً ، ويملأ النفس رعباً ، أن العذاب الذي يسخرون منه نازلٌ لا محالة ، في ذلك اليوم العصيب الذي تنخلع له القلوب ﴿والطور﴾ . وكتابٍ مسطور . في رَقٍّ منشور . والبيت المعمور . والسقف المرفوع . والبحر المسجور . إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ . ماله من دافع . يومَ تَمُورُ السماءُ مُوراً . وتسيرُ الجبالُ سيراً ﴿ثم يأتي الوعيدُ المفزعُ المرعب ، في مشهد سوق

المجرمين إلى الجحيم ، ومعه ما يزلزل ويرعب من ويل وهول ،
وتفريع وتفزع ﴿ فَوَيْلٌ لِلْمُكَذِّبِينَ الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ
يَلْعَبُونَ . يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعَاً - أَيُدْفَعُونَ إِلَيْهَا دَفْعاً بَشَدَةً
وعنف - هذه النار التي كنتم بها تكذبون . أفسحروا هذا أم أنتم لا تبصرون .
إِصْلَوْهَا فَاصْبِرُوا أَوْ لَا تَصْبِرُوا سَوَاءٌ عَلَيْكُمْ ، إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾
وفي مقابلة ألوان العذاب التي أعدها الله للمجرمين ، يأتي الحديث عن ألوان
النعم وصفوف التكريم التي أعدها الله للمؤمنين ، للمقارنة بين حال
السعداء والأشقياء ، والأبرار والفجار ، على طريقة القرآن في الجمع
بين الترغيب والترهيب ﴿ إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ . فَكِهِينَ بِمَا
آتَاهُمْ رَبُّهُمْ ، وَوَقَاهُمْ رَبُّهُمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ . كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا
كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ . متكئين على سرر مصفوفة ، وزوجناهم بحور عين .
والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمانٍ ألحقنا بهم ذريتهم ، وما آلتناهم
- أي أنقصناهم - من عملهم من شيء ، كلٌ امرئ بما كسب رهين .
وأمددناهم بفاكهة ولحم مما يشتهون . يتنازعون فيها كأساً لا لغو فيها
ولا تأثيم .. إلى قوله إنا كنا من قبل ندعوه إنه هو البر الرحيم ﴾ .

ثم يأتي الشوط الثالث يلاحق الباطل ويطارده - في الشبهات
والأباطيل التي أثارها المشركون حول القرآن والرسول - يأتيهم بأسئلة
متلاحقة متتابعة ، أشبه ما تكون بالقذائف الصاعقة ، التي تنسف الباطل
نسفاً ، وتخرس كل معاند مكابر ، يزيغ عن الحق أو يجادل فيه
﴿ فَذَكَّرْ . فَمَا أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ . أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ
تربص به ريب المنون المنون قل تربصوا فإني معكم من المتربصين ﴾
وفي أسلوب تهكمي لاذع يتساءل عن موقفهم النابي من القرآن والرسول
فقد كان شيوخ قريش يلقبون بذوي الاحلام اشارة الى رجاحة عقولهم
وحكمتهم في تصريف الامور فهو يتهم بهم وباحلامهم ويتساءل : هل

كان رأيهم في القرآن والرسول من وحي احلامهم أم هم طغاة ظالمون
 ﴿ أم تأمرهم احلامهم بهذا أم هم قوم طاغون أم يقولون تقوله بل لا
 يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ ؟ ويتكرر التهمك بعرض
 أسئلة ثلاث لا تحتاج إلى جدل كثير ، لأنها بمنطق الفطرة واضحة كل
 الوضوح : هل هم خلَقوا أنفسهم ؟ أم هم خلَقوا من غير خالق ؟ أم هم الذين
 خلَقوا السموات والأرض ؟ والجواب عن ذلك كله واضح لا يحتاج إلى
 مكابرة أو عناد ﴿ أم خلَقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون ؟ أم خلَقوا
 السموات والأرض ؟ بل يوقنون ﴾ فإن أحداً منهم لا يستطيع أن يقول إنه خلق
 نفسه ، ولا إنه مخلوق من غير شيء ، ولا إنه خلق السموات والأرض ، فثبت
 أن الخالق هو الله العلي الكبير رب العالمين ، وبهذه الحجة الدامغة
 قصم القرآن ظهر الباطل . وانتقلت السورة - بعد ذكر الخلق والإبداع
 لأنفسهم أو للسموات والأرض - لتسألهم مع السخرية والتهمك : هل
 يملكون خزائن الله ؟ أم هم يستطيعون الاستماع إلى وحي الله . حتى
 يمنعوا تنزل الرسالة على محمد ﷺ ؟ ﴿ أم عندهم خزائن رحمة ربك أم
 هم المسيطرون ؟ أم لهم سلم يستمعون فيه ؟ فليأت مستمعهم بسلطان
 مبين ﴾ وبعد تلك الاسئلة المتلاحقة تصور السورة تعنتهم وعنادهم
 صورة الذي يكابر في الأمر المحسوس ، فلو رأوا العذاب نازلاً
 عليهم كأنه قطعة من جبل لقالوا هذا سحاب وما هو عذاب ﴿ وإن
 يروا كِسْفاً من السماء ساقطاً يقولوا سحاب مركوم ﴾ وتختتم السورة
 الكريمة بذلك الإنذار الرهيب ﴿ فذرهم حتى يلاقوا يومهم الذي
 فيه يُصْعَقون . يوم لا يغني عنهم كيدهم شيئاً ولا هم يُنصرون . وإن
 للذين ظلموا عذاباً دون ذلك ولكن أكثرهم لا يعلمون . واصبر لحكم
 ربك فإنك بأعيننا وسبح بحمد ربك حين تقوم ؟ ومن الليل فسبحه
 وإدبار النجوم . ﴾

(or) سُورَةُ النُّجُومِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا ثَنَانٌ وَسُبُحَتُ

سورة النجم مكية وهي تتناول أهداف السور المكية ، العقيدة بموضوعاتها الرئيسية «الوحدانية ، الرسالة ، البعث والنشور» وتسير السورة في مقاطع أربعة تعرض فيها ظلال السورة الكريمة ، ومقاصدها السامية بأوضح بيان ، وأجلى برهان .

تبتدئ السورة الكريمة بالحديث عن «الوحي» في المقطع الأول ، تستهدف به بيان حقيقة الوحي الذي كذب به المشركون ، وأنكروا على الرسول ﷺ أن يكون الله قد أوحى له أو أرسله ، وتصف مشهدين من مشاهد الوحي التقى فيها أمين السماء بأمين الأرض ، وأوحى إليه عن ربه ما أوحى ، وتؤكد الآيات الكريمة أن الرسول ﷺ تلقى عن جبريل ما تلقى ، عن رؤية وتمكن ودقة ، وأنه رآه رأي العين مرتين : مرة في الأرض حيث تطلع الشمس في الأفق الأعلى ، ومرة أخرى عند سدره المنتهى ، في السموات العلى ، في ليلة الإسراء والمعراج ، وقدرآه في المرتين في صورته الحقيقية كما قال ابن مسعود : إن رسول الله ﷺ لم ير جبريل في صورته إلا مرتين : أما الأولى فإنه سأله أن يراه فهبط عليه جبريل عليه السلام وتدلّى إليه فاقترب منه وهو على الصورة التي خلقه الله عليها له ستمائة جناح سدّ بها الأفق ، وأما الثانية فحين صعد معه إلى السموات العلى .. وقد ذكرت السورة الكريمة هاتين المرتين ، وبدأ تعالى السورة بالقسم بالنجم الساطع اللامع

على أن محمداً رسوله وأن جبريل قد أوحى إليه بأمره تعالى ﴿ والنجم إذا هوى ما ضل صاحبكم وما غوى . وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى . علمه شديد القوى . ذو مرة - أي ذو قوة - فاستوى . وهو بالأفق الأعلى . ثم دنا فتدلى . فكان قاب قوسين أو أدنى . فأوحى إلى عبده ما أوحى . ما كذب الفؤاد ما رأى . أفتمارونه على ما يرى . ولقد رآه نزلة أخرى . عند سدرة المنتهى . عندها جنة المأوى . إذ يعشى السدرة ما يغشى . ما زاع البصر وما طغى . لقد رأى من آيات ربه الكبرى ﴾ .

وتنتقل السورة لتتحدث في المقطع الثاني عن آلهتهم المزعومة ، وأوهامهم عن الملائكة ، وأساطيرهم في شفاعة الأصنام وشفاعة الملائكة الكرام ، واعتمادهم في هذا كله على الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً ، بينما الرسول ﷺ يدعوهم إلى الإيمان والتوحيد عن تثبت وصدق ويقين ﴿ أفرأيتم اللات والعزى . ومناة الثالثة الأخرى . ألكم الذكر وله الأنثى ؟ تلك إذن قسمة ضيزى . إن هي إلا أسماء سميتوها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان ، إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس ، ولقد جاءهم من ربهم الهدى . أم للإنسان ما تمنى ؟ فله الآخرة والأولى . وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئاً إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى . إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى . وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ﴾ . وفي المقطع الثالث يلقن الرسول ﷺ الإعراض عمن يتولى عن ذكر الله ، ويشغل نفسه بالدنيا وحدها ، ويقف عند هذا الحد لا يعلم وراءه شيئاً ، ويشير إلى الآخرة وما فيها من جزاء عادل يقوم على عمل الخلق ، وعلى علم الله بهم سند أنشأهم من الأرض ، وسند أن كانوا أجنة في

بطون أمهاتهم ، فهو أعلم بهم من أنفسهم ، وعلى أساس هذا العلم
 اليقيني - لا على الظن والوهم - يكون حسابهم وجزاؤهم ، وبصير
 أمرهم في نهاية المطاف ﴿ فَأَعْرَضَ عَمَّنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنَا وَلَمْ يُرِدْ
 إِلَّا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا . ذَلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ ، إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ
 عَنْ سَبِيلِهِ ، وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اهْتَدَى . وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ
 لِيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِيَ الَّذِينَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحَسَنِ
 الَّذِينَ يَحْتَسِبُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّئِمَ ، إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ
 الْمَغْفِرَةِ ، هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ ، وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْنَةُ فِي
 بَطُونِ أُمَمَاتِكُمْ ، فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى ﴿ وَفِي الْمَقْطَعِ
 الْأَخِيرِ تَسْتَعْرِضُ السُّورَةَ الْكَرِيمَةَ أَصُولَ الْعَقِيدَةِ - كَمَا هِيَ ثَابِتَةٌ مِنْذُ
 أَقْدَمِ الرِّسَالَاتِ ، مِنْ عَهْدِ إِبْرَاهِيمَ صَاحِبِ الْحَنِيفِيَّةِ الْأُولَى - مِنْ
 فَرْدِيَّةِ النَّبِيِّ ، وَدَقَّةِ الْحِسَابِ ، وَعَدَالَةِ الْجَزَاءِ ، وَمِنْ انْتِهَاءِ الْخَلْقِ إِلَى
 رَبِّهِمُ الْمُتَصَرِّفِ فِي أَمْرِهِمْ كُلِّهِ تَصَرَّفَ الْمَشِيئَةُ الْمَطْلُوقَةُ ﴿ أَفَرَأَيْتَ الَّذِي
 تَوَلَّى . وَأَعْطَى قَلِيلًا وَأَكْدَى . أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرَى ؟ أَمْ لَمْ
 يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى . وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى . أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ
 وِزْرَ أُخْرَى . وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى . وَأَنْ سَعِيهِ سَوْفَ يَرَى ثُمَّ
 يُجْزَاهُ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى ﴿ ؟ وَبَعْدَ أَنْ تَذَكَّرَ السُّورَةَ آثَارَ قُدْرَةِ اللَّهِ
 وَوَحْدَانِيَّتِهِ ، وَدَلَائِلِ عَظَمَتِهِ وَجَلَالِهِ ، وَتَلَفَتْ أَنْظَارَ الْمُشْرِكِينَ إِلَى
 مَصَارِعِ الْغَابِرِينَ ، تَحْتَمُّ بِهَذَا الْإِنْذَارِ الرَّهيبِ ، الَّذِي يَتَنَاسَقُ مَعَ
 جَوِّ السُّورَةِ وَمَوْضُوعِهَا ﴿ هَذَا نَذِيرٌ مِنَ النَّذْرِ الْأُولَى . أَزَفَتْ الْآزِفَةُ .
 لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ . أَفَنُ هَذَا الْحَدِيثُ تَعْجِبُونَ . وَتَضْحَكُونَ
 وَلَا تَبْكُونَ . وَأَنْتُمْ سَامِدُونَ ؟ فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ﴿ وَيَا لَهُ مِنْ
 إِنْذَارٍ رَهيبٍ ، تَقْطَعُ لَهُ الْقُلُوبُ ، وَتَنْخَلَعُ لَهُ الْأَفْئِدَةُ ! !

(٥٤) سُورَةُ الْقَمَرِ الْمَكِّيَّةُ
وَأَيُّهَا الْخَشِيُّ فَقَنِينَ

سورة القمر إحدى السورة المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وهي ذات طابع خاص ، فيه التهديد والوعيد ، والإعذار والإنذار ، وهي من بدئها إلى نهايتها حملة عنيفة مفزعة على المكذبين بآيات القرآن المبين ، من السابقين واللاحقين ، مع مشاهد العذاب والدمار . سُميت السورة الكريمة « سورة القمر » لأن الله تعالى ذكر فيها تلك المعجزة الكونية الهائلة ، معجزة « انشقاق القمر » بناءً على طلب المشركين أن يرهم رسول الله ﷺ معجزة تدل على صدقه ، وأعطوه العهود والمواثيق أن يؤمنوا إن أجابهم إلى طلبهم ، وطلبوا منه أن يشق لهم القمر ، فدعا رسول الله ﷺ ربّه فاستجاب الله دعاءه وشق القمر ، روى الإمام البخاري عن أنس بن مالك « أن أهل مكة سألوا رسول الله ﷺ أن يرهم آية ، فأراهم القمر شقين ، حتى رأوا حراء بينهما » وأخرج الإمام أحمد عن « جبير بن مطعم » أنه قال : « انشق القمر على عهد رسول الله ﷺ فصار فرقتين : فرقة على هذا الجبل ، وفرقة على هذا الجبل ، فقال المشركون : سحرنا محمد ، ثم قالوا : إن كان سحرنا فإنه لا يستطيع أن يسحر الناس كلهم .. فانتظروا حتى يأتي السُّقَار - أي المسافرون - فلما حضروا وسألوهم أجابوهم بأنهم رأوا إنشقاق القمر ، فقال المشركون : سحر محمد الناس جميعاً فأنزل الله ﴿ اقتربت الساعة ﴾

وانشقَّ القمرُ . وإنَّ يروا آيةً يُعرضوا ويقولوا سحرٌ مستمرٌ ، وكذبوا
واتبعوا أهواءهم وكلُّ أمرٍ مستقرٌ ﴿٢٠﴾ .

وبعد الحديث عن القيامة والقمر ، تأتي النُّذُرُ والعِبَرُ لهؤلاء
المكذِّبين من كفار مكة ﴿٢١﴾ ولقد جاءهم من الأنبياء ما فيه مزدجر .
حكمةٌ بالغةٌ فما تغني النُّذُرُ ؟ ﴿٢٢﴾ ثم تتوالى الآيات وفيها الإنذارات
العديدة تهزُّ المشاعر هزاً ، وتحرك الضمير الحيَّ تحريكاً عنيفاً
وهي تتحدث عن أهوال ذلك اليوم العصيب ، حين يخرج الناس من
القبور كأنهم جرادٌ منتشر في الآفاق ، يسرعون الخطى استجابةً لنداء
الداعي «إسرافيل» عليه السلام ، حين ينادي : أيتها العظام البالية ،
واللحوم المتمزقة ، والأوصال المتفرقة إن الله يأمرُكُنَّ أن تجتمعن ليوم
الفصل والجزاء ، ثم ينفخ في الصور النفخة الثانية ، فيخرج الناس
من القبور مسرعين نحو صوت المنادي ، خاشعة أبصارهم من الذل
والهول ﴿٢٣﴾ فتولَّ عنهم يومَ يدعوا للداع إلى شيء نُكِّر . خُشَعاً أبصارُهُمْ
يخرجون من الأحداث كأنهم جرادٌ منتشر . مهطعين إلى الداع يقول
الكافرون هذا يوم عسر ﴿٢٤﴾ ومن مشاهد القيامة إلى مصارع المكذِّبين ،
تنتقل الآيات الكريمة لتتحدث عن مشاهد التنكيل والتعذيب التي
حلَّت بالطغاة المتجبرين ، الذين تمردوا على الله ورسله ، بدءاً من قوم
نوح ﴿٢٥﴾ كذبت قبلهم قومُ نوحٍ فكذبوا عبدنا وقالوا : مجنونٌ وازدجر .
فدعا ربُّه أني مغلوبٌ فانتصر . ففتحنا أبواب السماء بماءٍ منهمر . وفجرنا
الأرض عيوناً فالتقى الماء على أمرٍ قد قُدر . وحملناه على ذات ألواحٍ
ودُسُر . بحري بأعيننا جزاءً لمن كان كُفراً . ولقد تركناها آيةً فهل من
مدَّكر ؟ فكيف كان عذابي ونذر ؟ ﴿٢٦﴾ . وبعد كل قصةٍ من قصص الأمم
الغابرة ، وما نالها من العذاب والدمار ، يتكرر التعقيب بدعوة الإنسان
إلى التذكر والإعتبار ، دعوة هادئة لطيفة إلى التبصر في هذا القرآن

﴿ولقد يسرنا القرآن للذكر ، فهل من مدكر﴾ ؟ أي هل من متعظم ومعتبر ؟ ثم يبدأ المشهد الثاني من مشاهد التعذيب العنيف ، الذي حل بعاد قوم هود ، وقد كانوا أقوى الأمم وأعتاها ، ولكن الله أهلكتهم بأسير الأسباب بالريح الصرصر العاتية ، التي لا تدع شيئاً إلا أهلكته ودمرته ﴿كذبت عاد فكيف كان عذابي ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم ريحاً صرّصراً - أي باردة شديدة الصوت - في يوم نحس مستمر . تنزع الناس كأنهم أعجاز نخل منقعر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر﴾ ؟ ثم تمضي السورة الكريمة تتحدث عن مصارع الطغاة المكذبين - في المشهد الثالث - وهم قبيلة ثمود قوم صالح عليه السلام ، الذين خلفوا عاداً في القوة والتمكين في جزيرة العرب ، فقد كانت عاد في الجنوب ، وكانت ثمود في الشمال ، وكذبت ثمود رسولها كما كذبت عاد من قبل ، غير معتبرة بمصرعها ، حتى جاءت صيحة العذاب المدمر ، فكانوا كالهشيم المتحطم ، والعشب اليابس الذي تذروه الرياح ﴿كذبت ثمود بالنذر . فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه ؟ إنا إذا لفي ضلال وسعر . أللقى الذكر عليه من بيننا ، بل هو كذاب أشر . سيعلمون غداً من الكذاب الأشر . إنا مرسلو الناقة فتنة لهم فارتقبهم واصطبر . ونبئهم أن الماء قسمة بينهم كل شرب محتضر . فنادوا صاحبهم فتعاطى فعقر . فكيف كان عذابي ونذر ؟ إنا أرسلنا عليهم صيحة واحدة فكانوا كهشيم المحتظر﴾ . وفي المشهد الرابع تتحدث الآيات عن قوم لوط ﴿كذبت قوم لوط بالنذر . إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر . نعمة من عندنا كذلك نجزي من شكر﴾ ثم يتلوها الحديث في استعراض سريع عن آل فرعون ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر . كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾ وبعد عرض هذه المشاهد الأليمة

- مشاهد العذاب والنكال - الذي حلّ بالمكذّبين لرسّل الله ، يتوجه القرآن الكريم إلى مخاطبة قريش ، يحذّرهم مصرعاً كهذه المصارع بل ما هو أدهى وأشدّ ﴿ أكفّاركم خير من أولئكم أم لكم براءة في الزُّبر ؟ أم يقولون نحن جميعٌ منتصرون ؟ سيهزم الجميع ويولون الدبر . بل الساعة موعدهم والساعة أدهى وأمر . إن المجرمين في ضلال وسُعُر . يوم يسحبون في النار على وجوههم ذو قوامسٍ سقر ﴾ وتختتم السورة الكريمة ببيان مآل السعداء المتقين ، بعد أن ذكرت مآل الأشقياء المجرمين ، على طريقة القرآن في الترغيب والترهيب للمقارنة بين الأبرار والفجار ﴿ إن المتقين في جناتٍ ونهَر . في مقعد صدقٍ عند مليك مقتدر ﴾

(٥٥) سُورَةُ الرَّحْمَنِ
وَأَيُّهَا ثَمَانٌ وَسِتُّعُونَ

سورة الرحمن من السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وهي كالعروس بين سائر السور الكريمة ، ولهذا ورد في الحديث الشريف « لكل شيء عروس » وعروس القرآن سورة الرحمن » وذلك لأن لها طابعاً خاصاً يميزها عن سائر السور ، في أدائها ، وتعبيرها ، وأسلوبها ، وطريقة عرضها للمواضيع المتنوعة التي تربط بين مظاهر الكون وبين الإنسان ، والتي تعرض الوجود كله وما فيه من دقائق وأسرار ، على الثقلين - الإنس والجان - في ساحة الوجود ، على مشهد من كل موجود ، مع التحدي السافر للمخاطبين بهذه السورة وهم « الإنس والجن » تحدياً يتكرر عقب بيان كل نعمة من نعم الله ، التي عددها وفصلها في هذه السورة بأوضح بيان وأظهر برهان .

تبتدىء السورة الكريمة بتعديد آلاء الله الباهرة الظاهرة ، في جميل صنعه ، وإبداع خلقه ، وفيض نعمائه ، وفي تدبيره للوجود وما فيه ، وتوجه الخلائق كلها إلى وجهه الكريم ، وكل هذه النعم أثر من آثار رحمة الله التي أفاض بها على عباده ، تذكيراً لهم بواجب الشكر والامتنان ، وتبتدىء - في مطلعها - بتعليم القرآن بوصفه المنّة الكبرى على الإنسان ، تسبق في الذكر خلق الإنسان ذاته وتعليمه البيان ﴿ الرحمن . علّم القرآن . خلق الإنسان . علّمه البيان ﴾ .

ثم يفتح صحائف الوجود الناطقة بآلاء الله ، الشمس والقمر ،
والنجم والشجر ، والسماء المرفوعة بقدرة الله وما فيها من عجائب
وغرائب ، والأرض الموضوعة للأنام وما فيها من فاكهة ونخيل وحب
وريحان ﴿ الشمس والقمر بحسبان - أي بحساب دقيق منتظم في
غاية الدقة - والنجم والشجر يسجدان . والسماء رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ .
أَلَّا تَطْغَوْا فِي الْمِيزَانِ . وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الميزان .
والأرض وضعها للأنام . فيها فاكهة والنخل ذات الأكمام . والحب
ذو العصف والريحان ﴾ ثم يأتي التعقيب المباشر ﴿ فبأي آلاء ربكما
تكذبان ﴾ ؟ ومن خلق الإنسان تنتقل السورة الكريمة إلى خلق الأكوان ،
لتشير إلى دلائل القدرة الباهرة ، في تسير الأفلاك الدائرة ، في
الشروق والغروب ، فللشمس مشرق في الصيف ، ومشرق في الشتاء ومغرب
في الصيف ومغرب في الشتاء ، وهكذا القمر وسائر الكواكب ، وكما تسير
الكواكب في أفلاكها كذلك تسير أفلاك الأرض - وهي السفن - في
بحارها ، فوق سطح الماء وكأنها الجبال الشاهقة ، تحمل الأرزاق
والأقوات والأثقال والأنام ، لا يحفظها في خضم البحر وبين أمواجه
العاتية إلا الله الرحمن ، ولهذا يذكرهم تعالى بين الآية والآية بهذه النعم
الجليلة في هذه الفاصلة الجميلة « فبأي آلاء ربكما تكذبان » أي فبأي
نعم الله التي لا تعد ولا تحصى تكذبان يا معشر الإنس والجان ؟
﴿ ربُّ المشرقين وربُّ المغربين فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ
يَلْتَقِيَانِ . بينهما برزخ لا يبغيان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ يخرج منهما
اللؤلؤ والمرجان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ وله الجواري المنشآت
في البحر كالأعلام . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴾ ومعنى الآية
الكريمة أنه تعالى جعل في الأرض البحار والأنهار ، وجعلهما يختلطان
ويلتقيان ، فالأنهار تصب في البحار ، ويختلط ماؤها بمائه ، ولكل منهما

لا يبغيان ولا يتجاوز كل منهما حدّه المقدّر ، ولو طغت البحار على الأنهار لأفسدتها ، ولكن الله بقدرته جعل بينهما حاجزاً ، إذ مستوى سطح الأنهار أعلى من مستوى سطح البحار ، ولذلك يصب النهر بالبحر ولا يغمر مجاريه بمائه المالح ، وكل ذلك بصنع الله الواحد كما أنه تعالى سخر السفن الكبيرة تُمخر عُباب البحر ، وكأنها الجبال عظمة وضخامة وهي تسير فوق سطح الماء وهو جسم شفاف خفيف لطيف ، فسبحان اللطيف القدير !! وبعد أن ينتهي الاستعراض السريع في صفحة هذا الكون المنظور ، تُطوى صفحات الوجود ، وتتلشى الخلائق بأسرها ، فيطويها الفناء ويلفّها شبح الموت الرهيب ، ولا يبقى إلا الحي القيوم ، متفرداً بالبقاء ، متفرداً بالجلال ، والكل بعد إلى الزوال ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ .

وفي ظل الفناء المطلق ، والبقاء المطلق ، يجيء الوعيد والتهديد للجن والإنس تمهيداً لهول يوم القيامة الذي لا تقف له الجبال الرواسي ولا النجوم ولا الأفلاك ، لأنه يوم عَصِيبٌ رهيب ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والأرض فانفذوا ، لا تنفذون إلا بسلطان . فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ يُرسل عليكم شواظٌ من نارٍ ونحاسٌ فلا تتصران﴾ ومن ثمَّ يعرض لمشهد النهاية - مشهد القيامة - يرسم فيها مشهد السماء حمراء سائلة كالدهان ، ومشهد العذاب للمجرمين ، ومشهد النعم للمتقين ، في شيء من الإسهاب والتفصيل ﴿فاذا انشقت السماء فكانت وردة كالدهان . فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ فيومئذٍ لا يُسأل عن ذنبه إنسٌ ولا جان . فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام . فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ هذه جهنم التي يكذب بها

المجرمون يطوفون بينها وبين حميمٍ آن ﴿ ومن حال الأشقياء إلى حال
 السعداء تتحدث بعد ذلك الآيات الكريمة عن مآل المتقين وهم في
 الجنان مع الحور والولدان ﴿ ولمن خاف مقام ربه جنتان . فبأي آلاء
 ربكما تكذبان ؟ ذواتا أفنان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيهما عينان
 تجريان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ فيهما من كل فاكهة زوجان .
 فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟ ﴿ وتختتم السورة الكريمة بتعظيم الله وتمجيده
 - بعد ذكر الإنعام والإحسان - وهو أنسب ختام لسورة الرحمن
 ﴿ متكئين على رفرفٍ خضرٍ وعبقري حسان . فبأي آلاء ربكما تكذبان ؟
 تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام ﴿ وهكذا يتناسق البدء مع الختام .

(٥١) سُورَةُ الْوَاقِعَةِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا سَبَّحْتَ وَقَسَّيْتَ عِزَّتَكَ

سورة الواقعة من السور المكية ، وقد اشتملت هذه السورة الكريمة على تفصيل أحوال الناس يوم القيامة ، وما يكون بين يدي الساعة من أهوال وشدائد ، وما يلقاه المؤمنون والمجرمون من نعيم أو شقاء يوم ينقسم الناس إلى ثلاث طوائف « أصحاب اليمين ، وأصحاب الشمال ، وأهل الدرجات العالية وهم المقربون » وقد تحدثت السورة عن مآل كل فريق ، وما أعدّه الله تعالى لهم من الجزاء العادل يوم الدين .

سميت السورة الكريمة « سورة الواقعة » لأن الله تعالى فصل فيها أمور القيامة وأحوالها وما يكون بين يدي الساعة من شدائد وأهوال ، وانقسام الناس في الآخرة إلى طوائف ، وذكر فيها الأدلة والبراهين على الحشر والنشر والحساب والجزاء ، والواقعة اسم من أسماء القيامة كالصاخة والطامة والحاقة ، سميت بالواقعة لأنه واقعة لا محالة وقد ذكرت السورة الدلائل على وجود الله ووحدانيته ، وكمال قدرته في بديع صنعه ، في خلق الإنسان ، وإخراج النبات ، وإنزال المطر ، وما أودعه الباري جل وعلا في الشجر من النار الموقدة ، وغير ذلك من دلائل القدرة الباهرة ، ثم نوهت بذكر القرآن العظيم وأنه تنزيل الحكيم العليم ، ثم ذكرت ما يلقاه المرء عند الاحتضار من الأهوال ، ثم ختمت السورة الكريمة بذكر الطوائف الثلاثة « أهل

السعادة ، وأهل الشقاوة ، والسابقين إلى الخيرات » فكان ذلك كالنصفيل لما ورد في بداية السورة من الإجمال ، والإشادة بذكر مآثر المتقين والمقربين في البدء والختام .

وقد ورد في فضائل هذه السورة أحاديث عديدة تدل على فضل تلاوتها فعن ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « من قرأ سورة الواقعة في كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » أخرجه الحافظ أبو يعلى ، ويعني بالفاقة الحاجة والفقر وأخرج الحافظ ابن عساكر في ترجمة « عبد الله بن مسعود » بسنده عن أبي ظبية قال : « مرض عبد الله بن مسعود مرضه الذي توفي فيه ، فعاده عثمان بن عفان فقال : ما تشتكي ؟ قال : ذنوبي ، قال : فما تشتي ؟ قال : رحمة ربي ، قال : ألا أمر لك بطبيب ؟ قال : الطبيب أمرضني ، قال : الا أمر لك بعطاء ؟ قال : لا حاجة لي فيه ، قال : يكون لبناتك من بعدك ، قال : أنخشي على بناتي الفقر ؟ ! إنَّ عندي خمس بنات ، وقد أمرتهن أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة ، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول : « من قرأ سورة الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبداً » .

تبتدىء السورة الكريمة بوصف القيامة ، وما يجري فيها من أحداثٍ وأهوال ، حيث تتطير الجبال ، وتهتز الأرض اهتزازاً عنيفاً ، يندك كل ما فوق سطحها من بيوت وقصور ، وحصون رفيعة وسدود منيعة ، وتبديل أوضاع الأرض كما تبدل أقدار الناس ، فترفع أولياء الله وتخفض أعداء الله ﴿ إذا وقعت الواقعة . ليس لوقعتها كاذبة . خافضة رافعة . إذا رجَّت الأرض رجاً . وبُست الجبال بساً . فكانت هباءً منبثاً . وكنتم أزواجاً ثلاثة ﴾ ثم تفصل السورة مصائر هذه الفرق الثلاثة أو في تفصيل ، وتصف ما يلقون من نعم وعذاب في ذلك اليوم الرهيب ، مبتدئة بذكر السابقين وهم الذين سبقوا بالإيمان والعمل

الصالح فنالوا أعلى الدرجات وأرفع المنازل ﴿والسابقون السابقون أولئك المقربون﴾ في جنات النعيم . ثلثة من الأولين . وقليل من الآخرين . على سرر موضونة . متكئين عليها متقابلين ﴿

ثم تثنى بذكر السعداء «أصحاب اليمين» وهم الذين يأخذون كتبهم بأيمانهم ، وهم عامة أهل الجنة ولكنهم دون مرتبة السابقين في الأجر والفضل ﴿وأصحاب اليمين ما أصحاب اليمين﴾ في سدر مخضود . وطلح منضود . وظل ممدود . وماء مسكوب . وفاكهة كثيرة . لا مقطوعة ولا ممنوعة . وفرش مرفوعة ﴿ثم تذكر السورة الكريمة الأشقياء المجرمين ، وهم أهل المشئمة الذين يأخذون كتبهم بشمالهم ، وتتحدث عما أعد الله لهم من العذاب المقيم في دركات الجحيم﴾ ﴿وأصحاب الشمال ما أصحاب الشمال ؟ في سُمومٍ وحميم . وظلٍ من يحموم . لا باردٍ ولا كريم . إنهم كانوا قبل ذلك مترفين . وكانوا يصرون على الحنث العظيم . وكانوا يقولون : إئذ امتنا وكنا تراباً وعظاماً أئنا المبعوثون . أو آباؤنا الأولون ؟﴾ ثم يأتي الجواب مؤكداً بأنهم لا بد أن يجمعوا هم وآباؤهم في الآخرة للحساب والجزاء ، وأنهم بسبب كفرهم سيأكلون من الزقوم ، ويشربون من الماء الحار الذي تناهى حره وهو الحميم (قل إن الأولين والآخرين لمجموعون إلى ميقات يوم معلوم . ثم إنكم أيها الضالون المكذبون . لاأكلون من شجرٍ من زقوم . فثالثون منها البطون . فشاربون عليه من الحميم . فشاربون شرب الهيم . هذا نزلهم يوم الدين ﴾ .

ثم تتحدث الآيات عن دلائل القدرة والوحدانية ، فيما خلق الله تعالى وبث في هذا الكون ، من آثار القدرة الفائقة ، والصنعة الباهرة ، في الإنسان ، والنبات ، والماء ، والنار ، وتذكر هذه الأمور الأربعة كبرهان على قدرة الله ، وإمكان البعث والنشور ﴿أفأنتم

ما تمنون ؟ أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ نحن قدّرنا بينكم الموت
 وما نحن بمسبوقين . على أن نبذل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون
 ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكرون ؟ ﴿ وتأتي الإشارة إلى آثار
 القدرة الإلهية بصيغة الاستفهام الذي يخاطبهم مباشرة بلا وساطة ،
 تعجيزاً لهم . ليعترفوا بقدرة الله ووجوده ﴾ أفرايتم ما يحرثون ؟
 أنتم تزرعونه أم نحن الزارعون ؟ ﴿ أفرايتم الماء الذي تشربون ؟
 أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾ ؟ ﴿ أفرايتم النار التي
 تورون ؟ أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون ﴾ ؟ وفي كل هذه
 الاسئلة تعجيز للبشر عن مضاهاة خلق الله . وبعد هذا البيان الواضح
 تتحدث السورة عن القرآن الكريم معجزة محمد الخالدة ، الباقية
 أبد الدهر ، ثم تختتم السورة بذكر الطوائف الثلاث مع بيان مآل كل
 فريق منهم في الجنة أو في السعير ﴿ فأما إن كان من المقربين . فرؤح
 وريحان وجنة نعيم . وأما إن كان من أصحاب اليمين . فسلام لك من
 أصحاب اليمين . وأما إن كان من المكذبين الضالين فتزل من حميم
 وتصلية جحيم . إن هذا هو حق اليقين . فسيح باسم ربك العظيم ﴾ .

(٥٧) سُورَةُ الْحَدِيدِ مَلِكِيَّةٌ
وَأَنبِيَاءُهَا سِتْعٌ وَعَشْرُونَ

سورة الحديد من السور المدنية ، التي تُعنى بجانب التشريع ،
والتربية ، والتوجيه للجماعة الإسلامية ، وتهتم ببناء الشخصية المسلمة
بناءً قائماً على أساس العقيدة الصافية ، والخلق الكريم ، والتشريع
الحكيم ، بما يحقق الأهداف المنشودة لتعاليم الإسلام ، ونظمه الحكيمة .
سميت السورة الكريمة « سورة الحديد » لأن الله تعالى ذكر فيها
الحديد وهو قوة الإنسان في الحرب والسلام ، وهو عدته في البناء
والتعمير ، وتكاد حضارة البشر اليوم تقوم على الحديد « وأنزلنا الحديد
فيه بأس شديد ، وسنافع للناس » فمن الحديد تُصنع الدروع والرماح
والسيوف ، والدبابات ، والغواصات ، والمدافع الثقيلة ، وبالحديد
تشاد العماثر الضخمة ، وتبنى الجسور الكبيرة ، وهو فوق ذلك عدة
المحارب والمجاهد في سبيل الله ، فلا عجب أن تسمى السورة الكريمة
باسم « سورة الحديد » ! .

وقد تناولت السورة الكريمة ثلاثة مواضيع رئيسية :

الأول : أن الكون كله لله جل وعلا ، هو خالقه وهو مبدعه ،
وهو المتصرف بالأكوان كما يشاء .

الثاني : ضرورة التضحية بالمال والنفس لإعزاز دين الله ، والتفريق
بين المؤمن الصادق والمنافق .

الثالث : تصوير حقيقة الدنيا وما فيها من بهرج خادع ، ونعيم

زائل حتى لا يغتر بها الإنسان ، ودعوة المؤمنين إلى التنافس والتسابق نحو الدار الآخرة ، ونيل رضوان الله .

تبتدىء السورة الكريمة بالحديث عن عظمة الله ، الذي سُبِّح له كل ما في الكون من إنسان وجماد ، وشجر ومدر ، ثم تذكر صفات الله الحسنى وأسماءه القدسية التي اختص بها جلّ وعلا دون أحد من مخلوقاته ، فهو الأول بلا بداية ، والآخر بلا نهاية ، والظاهر بآثار قدرته ، والباطن عن الإحاطة بكنه حقيقته ، وهو الخالق للإنسان والمدير للأكوان ﴿سُبِّحَ لَهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ . له ملك السموات والأرض يُحيي ويميت وهو على كل شيء قدير . هو الأول والآخر ، والظاهر والباطن ، وهو بكل شيء عليم . هو الذي خلق السموات والأرض في ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، يعلم ما يلج في الأرض وما يخرج منها ، وما ينزل من السماء وما يعرج فيها ، وهو معكم أينما كنتم والله بما تعملون بصير ﴿ثُمَّ تَتْلُوهَا الْآيَاتُ وَهِيَ تَدْعُو الْمُؤْمِنِينَ إِلَى الْبَذْلِ وَالسَّخَاءِ ، وَالتَّضَحِّيَةِ بِالنَّفْسِ وَالْمَالِ ، لِإِعْلَاءِ كَلِمَةِ اللَّهِ وَإِعْزَازِ دِينِهِ ، وَهَذَا هُوَ وَاجِبُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَعْتَقِدُ أَنَّ الْمَالَ مَالُ اللَّهِ ، وَأَنَّهُ وَدِيعَةٌ فِي يَدِ الْإِنْسَانِ اسْتَخْلَفَهُ عَلَيْهِ لِيُؤَدِيَ مَا عَلَيْهِ مِنْ حَقُوقٍ وَوَاجِبَاتٍ ﴿آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ، فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وَبِأَسْلُوبِ التَّعْجِيبِ يُسَائِلُ الْمُؤْمِنِينَ عَنِ السَّبَبِ الَّذِي يَعْقِبُهُمْ عَنِ تَحْقِيقِ الْإِيمَانِ الْكَامِلِ ، وَالْإِنْفَاقِ التَّامِ الَّذِي يَزِيدُ فِي دَرَجَاتِ الْمُؤْمِنِ عِنْدَ اللَّهِ ، وَيَحَقِّقُ لَهُ الْأَمَلَ الْمُنْشُودَ فِي نَيْلِ رِضْوَانِ اللَّهِ ﴿وَمَا لَكُمْ أَلَّا تُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ؟ لَا يَسْتَوِي مِنْكُمْ مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتِلَ ، أُولَئِكَ أَكْثَرُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدِ وَقَاتِلُوا ، وَكَلاَّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى ،

والله بما تعملون خبير ﴿ وتَصَوِّرُ الآياتِ الإنفاقِ في سبيلِ اللهِ قرَضاً لله ، يستحقُّ عليه الوفاءُ مع الجزاءِ في دارِ النعيمِ ﴾ مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَنًا فيضاعِفَه له ؟ ولهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴿

ثم تقارن السورة الكريمة بين أهل الإيمان ، وأهل النفاق ، فالمؤمنون يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم ، والمنافقون يتخبطون في الظلمات كما كانوا في الدنيا يعيشون في ظلمات الشك والضلال ، وقد ضرب بين الفريقين بحاجز حال بين أهل الإيمان وأهل النفاق ﴿ يوم تَرَى المؤمنينَ والمؤمناتِ يسعى نورهم بين أيديهم وبأيمانهم بشراكم اليوم جناتٌ تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ، ذلك هو الفوز العظيم . يوم يقول المنافقون والمنافقات للذين آمنوا انظرونا نقتبس من نوركم ، قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نوراً فضُربَ بينهم بسور له بابٌ ، باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب ، ينادونهم ألم نكن معكم ؟ قالوا بلى ، ولكنكم فتنتم أنفسكم وتربصتم وارتبتم وغرتكم الأُماني حتى جاء أمر الله ، وغركم بالله الغرور ﴾ وتنتقل الآيات الكريمة بعد ذلك لتتحدث عن الغرض الثالث ، فتصور حقيقة الدنيا وحقيقة الآخرة أدقَّ تصوير ، فالدنيا زائلة فانية كمثل الزرع الخصب الذي ينبت بتزول الغيث المدرار . عليه ، ثم يَصْفَرُ وَيَذْبُلُ فيصير هشيماً وحُطاماً تذروه الرياح ، كذلك الدنيا ، والآخرة هي دار الخلود والبقاء ، فعلى الإنسان أن يسارع إلى نيل مرضاة الله ، وأن يجعل الآخرة همَّه وغايته وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴿ إعلموا أنما الحياة الدنيا لعبٌ ولهوٌ وزينةٌ وتفاخرٌ بينكم وتكاثرٌ في الأموال والأولاد ، كمثل غيثٍ أعجب الكفار نباته ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حُطاماً ، وفي الآخرة عذاب شديدٌ ومغفرة من الله ورضوان ، وما الحياة الدنيا إلا متاع الغرور . سابقوا إلى مغفرةٍ من ربكم وجنةٍ

عرضها كعرض السماء والأرض أعدت للذين آمنوا بالله ورسوله ،
 ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴿ وتتناول
 السورة الكريمة الغاية من بعثة الرسل الكرام ، وهي إحقاق الحق ،
 وإقامة العدل بين الناس ، بعد الدعوة إلى الإيمان بالله ﴿ لقد أرسلنا
 رسلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ،
 وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد ومنافع للناس ، وليعلم الله من ينصره
 ورسوله بالغيب إن الله قوي عزيز ﴿ وتختتم السورة الكريمة بالدعوة إلى
 تقوى الله والإيمان برسوله ، حتى يزداد المؤمن قرباً من الله ، ويرزقه
 الله ذلك النور الوضاء الذي يفرق فيه بين الحق والباطل ، ويميز به
 بين الهدى والضلال ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله
 يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به ويغفر لكم ،
 والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من
 فضل الله ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم ﴿
 صدق الله العظيم .

(٥٨) سُورَةُ الْمَجَادِلَةِ مِائَتَانِ
وَأَيُّهَا ثَمَانُونَ وَعَشْرُونَ

- سورة المجادلة مدنية وقد تناولت أحكاماً تشريعية كثيرة كاحكام الظهار والكفارة التي تجب على المظاهر وحكم التناجي وآداب المجالس وتقديم الصدقة عند مناجاة الرسول ﷺ وعدم مودة أعداء الله ، الى غير ذلك كما تحدثت عن المنافقين وعن اليهود .
- ابتدأت السورة الكريمة ببيان قصة المجادلة « خولة بنت ثعلبة » التي ظاهر منها زوجها على عادة أهل الجاهلية في تحريم الزوجة بالظهار وقد جاءت تلك المرأة رسول الله ﷺ تشكو ظلم زوجها لها وقالت يا رسول الله : « أكل مالي ، وأفنى شبابي ، ونثرت له بطني حتى إذا كبرت سني وانقطع ولدي ظاهر مني » ورسول الله ﷺ يقول لها : ما أراك إلا قد حرمت عليه ، فكانت تجادله وتقول يا رسول الله : ما طلقني ولكنه ظاهر ، فيرد عليها قوله السابق ، ثم قالت : اللهم اني أشكو إليك ، فاستجاب الله دعاءها ، وفرّج كربتها وشكواها ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله .. ﴾ الآيات .
- ثم تناولت حكم كفارة الظهار ﴿ الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم ، وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً ، وإن الله لعفو غفور .. ﴾ الآيات .
- ثم تحدثت عن موضوع التناجي ، وهو الكلام سرّاً بين اثنين

فأكثر ، وقد كان هذا من دأب اليهود والمنافقين لإيذاء المؤمنين ،
فبينت حكمه وحذرت المؤمنين من عواقبه ﴿ ألم تر أن الله يعلم ما في
السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ..
إلى قوله : إنما النجوى من الشيطان ليحزن الذين آمنوا .. ﴾ الآيات .

● وتحدثت السورة عن اليهود اللعناء الذين كانوا يحضرون مجلس
الرسول ﷺ فيحيونه بتهية ملغوزة ، ظاهرها التحية والسلام
وباطنها الشتيمة والمسبة كقولهم : السام عليك يا محمد يعنون الموت
﴿ وإذا جاءوك حيوك بما لم يحيك به الله .. ﴾

● وتناولت السورة الحديث عن المنافقين بشيء من الإسهاب ،
فقد اتخذوا اليهود بخاصة أصدقاء ، يحبونهم ويوالونهم وينقلون إليهم
أسرار المؤمنين ، فكشفت الستار عن هؤلاء المذبذبين وفضحتهم
﴿ ألم تر إلى الذين تولوا قوماً غضب الله عليهم .. ﴾ الآيات .

● وختمت السورة الكريمة ببيان حقيقة الحب في الله ، والبغض
في الله ، الذي هو أصل الإيمان وأوثق عرى الدين ، ولا بد في اكتمال
الإيمان من معاداة أعداء الله ﴿ لا تجد قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر
يوادون من حادَّ الله ورسوله ولو كانوا آباءهم ، أو أبناءهم ، أو
إخوانهم ، أو عشيرتهم ، أولئك كتب في قلوبهم الإيمان .. ﴾ إلى
آخر السورة الكريمة .

(٥٩) سُورَةُ الْحَشْرِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا اللَّهَ

سورة الحشر مدنية وهي تعني بجانب التشريع شأن سائر السور المدنية ، والمحور الرئيسي الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن « غزوة بني النضير » وهم اليهود الذين نقضوا العهد مع الرسول ﷺ فأجلاهم عن المدينة المنورة ، ولهذا كان ابن عباس يسمي هذه السورة « سورة بني النضير » وفي هذه السورة الحديث عن المنافقين الذين تحالفوا مع اليهود ، ويأجواز هي سورة الغزوات والجهاد والغنائم .

● ابتدأت السورة الكريمة بتتزيه الله وتمجيده ، فالكون بما فيه من إنسان وحيوان ، ونبات ، وجماد ، شاهد بوحدانية الله وقدرته وجلاله ، ناطق بعظمته وسلطانه ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ .

● ثم ذكرت السورة بعض آثار قدرته ، ومظاهر عزته ، بإجلاء اليهود من ديارهم وأوطانهم ، مع ما كانوا فيه من الحصون والقلاع ، وكانوا يعتقدون أنهم في عزة ومنعة لا يستطيع أحد عليهم ، فجاءهم بأس الله وعذابه من حيث لم يكن في حسابهم ﴿ هُوَ الَّذِي أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لِأَوَّلِ الْحَشْرِ ﴾ . الآيات .

● ثم تناولت السورة موضوع الفئ والغنيمة ، فبينت شروطه وأحكامه ، ووضحت الحكمة عن تخصيص الفئ بالفقراء لثلاث

يستأثر به الاغنياء ، وليكون هناك بعض التعادل بين طبقات المجتمع ، بما فيه خير الفريقين ، وبما يحقق المصلحة العامة ﴿ ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين .. ﴾ الآيات .

● وتناولت السورة أصحاب رسول الله ﷺ بالثناء العاطر ، فنوّعت بفصائل المهاجرين ومآثر الأنصار . فالمهاجرون هجروا الديار والأوطان حباً في الله والانصار نصروا دين الله ، وآثروا إخوانهم المهاجرين - بالأموال والديار على أنفسهم مع فقرهم وحاجتهم للفقراء الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً .. الآيات .

● وفي مقابلة ذكر المهاجرين والأنصار ، ذكرت السورة المنافقين الأشرار ، الذين تحالفوا مع اليهود ضد الإسلام وضربت لهم أسوأ الأمثال بالشیطان الذي يغري الإنسان بالكفر والضلال ثم يتخلى عنه ويخذله ، وهكذا كان شأن المنافقين مع إخوانهم اليهود ﴿ ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم - ﴾ الآيات .

● ووعظت السورة المؤمنين بتذكر ذلك اليوم الرهيب ، الذي لا ينفع فيه حسب ولا نسب ولا يفيد فيه جاه ولا مال وبينت الفارق الهائل بين أهل الجنة وأهل النار ومصير السعداء ومصير الأشقياء في دار العدل والجزاء ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لغد ... ﴾ الآيات وختمت السورة بذكر أسماء الله الحُسنى وصفاته العليا وبتنزيهه عن صفات النقص ﴿ هو الله الذي لا آله الا هو .. ﴾ الآيات . وهكذا يتناسق البدء والختام .

(٦٠) سُورَةُ الْمُتَجَنِّدِينَ
وَأَيَّاهَا ثَلَاثَ عَشْرَةَ

● هذه السورة الكريمة من السور المدنية التي تهتم بجانب التشريع ومحور السورة يدور حول فكرة « الحب والبغض في الله » الذي هو أوثق عرى الإيمان وقد نزل صدر السورة عتاباً لحاطب بن أبي بلتعة حين كتب كتاباً لأهل مكة يخبرهم أن رسول ﷺ قد تجهز لغزوهم ، كما ذكر تعالى حكم موالة أعداء الله وضرب الأمثال في إبراهيم والمؤمنين في تبرؤهم من المشركين .

● ابتدأت السورة الكريمة بالتحذير من موالة أعداء الله الذين أذوا المؤمنين حتى اضطروهم إلى الهجرة وترك الديار والأوطان ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ .. ﴾ الآيات .

● ثم بينت السورة أن القرابة والنسب والصدقة في هذه الحياة لن تنفع الإنسان أبداً يوم القيامة حيث لا ينفع الإنسان إلا الإيمان والعمل الصالح ﴿ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ .. ﴾ الآيات

● ثم ضربت المثل في إيمان إبراهيم عليه السلام وأتباعه المؤمنين ، حين تبرءوا من قومهم المشركين ، ليكون ذلك حافزاً لكل مؤمن على الاقتداء بأبي الأنبياء إبراهيم خليل الرحمن ﴿ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَاءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ ، كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا ... ﴾ الآيات .

● وتحدثت السورة عن حكم الذين لم يعادوا المؤمنين ولم يقاتلوهم ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم .. ﴾ وحكم الذين قاتلوا المؤمنين وآذوهم ﴿ إنما ينهاكم الله عن الذين قاتلوكم في الدين .. ﴾ الآيات .

● وبينت السورة وجوب امتحان المؤمنات عند الهجرة ، وعدم ردهن إلى الكفار إذا ثبت إيمانهن ، وقررت عدم الاعتداد بعصمة الكافر ، ثم حكم مبايعة النساء للرسول ﷺ وشروط هذه البيعة ﴿ يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتنحنهن .. ﴾ الآيات وقوله ﴿ يا أيها النبي إذا جاءك المؤمنات يبایعنك على ألا يشركن بالله شيئاً .. ﴾ الآيات .

● وختمت السورة بتحذير المؤمنين من موالات أعداء الله الكافرين ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتولوا قوماً غضب الله عليهم ، قد يئسوا من الآخرة كما يئس الكفار من أصحاب القبور ﴾ وهكذا ختمت السورة بمثل ما بدأت به من التحذير من موالات أعداء الله ، ليتناسق الكلام في البدء والختام .

(١١) سُورَةُ الصَّفِّ كَرِيمَةٍ
وَأَمَّا أَنَا أَنَا نَجِّسُكَ

● سورة الصف هي إحدى السور المدنية التي تُعنى بالأحكام التشريعية ، وهذه السورة تتحدث عن موضوع « القتال » وجهاد أعداء الله ، والتضحية في سبيل الله لإعزاز دينه وإعلاء كلمته. وعن التجارة الربحية التي بها سعادة المؤمن في الدنيا والآخرة ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو القتال ، ولهذا سميت سورة الصف .

● ابتدأت السورة الكريمة بعد تسبيح الله وتحميده بتحذير المؤمنين من إخلاف الوعد وعدم الوفاء بما التزموا به ﴿ سَبِّحْ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَمْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴾

● ثم تحدثت عن قتال أعداء الله بشجاعة المؤمن وبسالته لأنه يقاتل من أجل غرض نبيل وهو رفع منار الحق وإعلاء كلمة الله ﴿ إِنْ اللَّهُ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَانَهُمْ بَنِيَانٌ مَرْصُوصٌ ﴾

● وتناولت السورة بعد ذلك موقف اليهود من دعوة موسى وعيسى عليهما السلام وما أصابهما من أذى في سبيل الله وذلك تسلياً لرسول الله ﷺ فيما ناله من كفار مكة ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تَقُولُونَ ... ﴾

● وتحدثت السورة عن سنة الله في نصر دينه وأنبيائه وأوليائه

وضربت المثل للمشركين في عزمهم على محاربة دين الله بمن يريد إطفاء نور الشمس بفمه الحقير ﴿يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله مُنْتُمْ نوره ولو كره الكافرون﴾ .

● ودعت السورة المؤمنين إلى التجارة الرابعة وحرصتهم على الجهاد في سبيل الله بالنفس والتنفيس لينالوا السعادة الدائمة الكبيرة مع النصر العاجلة في الدنيا ، وخاطبتهم بأسلوب الترغيب والتشويق ﴿يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارةٍ تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله ...﴾ الآيات .

● وختمت السورة بدعوة أهل الايمان إلى نصره دين الرحمن ، كما فعل الحواريون أصحاب عيسى حين دعاهم إلى نصره الله فاستجابوا ونصروا الحق والرسول ﴿يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله ؟ قال الحواريون نحن أنصار الله ..﴾ وهكذا يتناسق البدء مع الختام في أبدع بيان وإحكام .

(١١) سُورَةُ الْجُمُعَةِ مَدَنِيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْخَلْفَى عَشْرَةٌ

هذه السورة الكريمة مدنية وهي تناول جانب التشريع ، والمحور الذي تدور عليه السورة بيان أحكام « صلاة الجمعة » التي فرضها الله على المؤمنين .

● تناولت السورة الكريمة بعثة خاتم الرسل محمد بن عبد الله ﷺ وبيّنت أنه الرحمة المهداة ، أنقذ الله به العرب من ظلام الشرك والضلال ، وأكرم به الإنسانية ، فكانت رسالته بلسماً لأمراض المجتمع البشري ، بعد أن كان يتخبط في الظلام .

● ثم تحدثت السورة عن اليهود ، وانحرافهم عن شريعة الله حيث كلفوا بالعمل بأحكام التوراة ولكنهم أعرضوا عنها ونبذوها وراء ظهورهم ، وضربت مثلاً لهم بالحنار الذي يحمل على ظهره الكتب الكبيرة النافعة ولكنه لا يناله منها إلا العناء ، والتعب ، وذلك نهاية الشقاء والتعاسة .

● ثم تناولت أحكام « صلاة الجمعة » فدعت المؤمنين إلى المسارعة لاداء الصلاة ، وحرمت عليهم البيع وقت الأذان ووقت النداء لها ، وختمت بالتحذير من الانشغال عن الصلاة بالتجارة واللهو كحال المنافقين .

(٦٣) سُورَةُ الْمُنَافِقِينَ مَدَنِيَّةٌ
وَأَيَّاتُهَا إِخْدَعِي عَشْرَةٌ

● سورة « المنافقون » مدنية . شأنها شأن سائر السور المدنية . التي تعالج « التشريعات والاحكام » وتتحدث عن الاسلام من زاويته العملية وهي القضايا التشريعية .

● والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث بإسهاب عن النفاق والمنافقين . حتى سميت السورة بهذا الاسم الفاضح ، الكاشف لإستار النفاق « سورة المنافقون » .

● تناولت السورة الكريمة في البدء أخلاق المنافقين . وصفاتهم الذميمة التي من أظهرها الكذب ، ومخالفة الظاهر للباطن ، فإنهم يقولون بألسنتهم ما لا تعتقده قلوبهم ، ثم تأمرهم على الرسول ﷺ وعلى المسلمين ، وقد فضحتهم السورة وكشفت عن مخازيهم وإجرامهم ، فهم بتظاهريهم بالإسلام يصدون الناس من دين الله وينالون من دعوة الإسلام ما لا يناله المعلن لكفره . ولذلك كان خطرهم أعظم وضررهم أكبر وأجسم « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيراً » .

● كما تحدثت السورة الكريمة عن مقالاتهم الشنيعة في حق الرسول ﷺ واعتقادهم بأن دعوته ستضمحل وتلاشى ، وأنهم بعد عودته من « غزوة بني المصطلق » سيطردون الرسول والمؤمنين من المدينة

المنورة ، إلى غير ما هنالك من أقوال شنيعة .

● **وختمت** السورة الكريمة بتحذير المؤمنين من أن يشغلوا بزينة الدنيا ولهوها ومتاعها عن طاعة الله وعبادته شأن المنافقين ، وبينت أن ذلك طريق الخسران ، وأمرت بالانفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاة الله قبل أن يفوت الأوان بانتهاء الأجل فيتحسر الإنسان ويندم حيث لا تنفع الحسرة والندم

(٦٤) سُورَةُ النَّجْمِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَمَانِي عَشْرَةٌ

سورة النجمن من السور المدنية التي تُعنى بالتشريع ، ولكنَّ جوَّها جو السور المكية التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية .

● تحدثت السورة الكريمة عن جلال الله وعظمته وآثار قدرته ، ثم تناولت موضوع الانسان المعترف بربه والى انسان الكافر الجاحد بآلاء الله .

● وضربت الأمثال بالقرون الماضية والأمم الخالية ، التي كذبت رسل الله وما حلَّ بهم من العذاب والدمار نتيجةً لكفرهم وعنادهم وضلالهم .

● وأقسمت السورة على أن البعث حقٌ لا بدَّ منه ، أقرَّ به المشركون أو أنكروه .

● وأمرت بطاعة الله وطاعة رسوله وحذرت من الاعراض عن دعوة الله .

● كما حذرت من عداوة بعض الزوجات والأولاد ، فإنهم كثيراً ما يمنعون الإنسان عن الجهاد والهجرة .

● وختمت السورة بالأمر بالإتفاق في سبيل الله لإعلاء دينه ، وحذرت من الشح والبخل ، فإن من صفات المؤمن الإتفاق في سبيل الله ابتغاء مرضاته ، وهو شرط الجهاد في سبيل الله .

(١٥) سُورَةُ الطَّلَاقِ مَدَنِيَّةٌ وَأَنبَأَهَا أَنْتَ بِعَشْرَةِ

سورة الطلاق مدنية وقد تناولت بعض الأحكام التشريعية المتعلقة بأحوال الزوجين ، كبيان أحكام الطلاق . السني وكيفيته ، وما يترتب على الطلاق من العدة ، والنفقة ، والسكن ، وأجر الموضع إلى غير ما هنالك من أحكام .

● تناولت السورة الكريمة في البدء أحكام الطلاق - الطلاق السني ، والطلاق البدعي - فأمرت المؤمنين بسلوك أفضل الطرق ، عند تعذر استمرار الحياة الزوجية ، ودعت إلى تطبيق الزوجة في الوقت المناسب وعلى الوجه المشروع وهو أن يطلقها طاهراً من غير جماع ، ثم يتركها إلى انقضاء عدتها .

● وفي هذا التوجيه الإلهي دعوة للرجال أن يتمهلوا ولا يسرعوا في فصل عرى الزوجية ، فإن الطلاق أبغض الحلال إلى الله ، ولولا الضرورات القسرية لكان الطلاق محرماً .

● ودعت السورة إلى إحصاء العدة لضبط انتهائها لئلا تختلط الأنساب ، ولئلا يطول الأمد على المطلقة فيلحقها الضرر ، ودعت إلى الوقوف عند حدود الله وعدم عصيان أوامره .

● وتناولت السورة أحكام العدة ، فبينت عدة اليائس التي انقطع عنها دم الحيض بكبر أو مرض ، وكذلك عدة الصغيرة ، وعدة الحامل

فبينته أوضح بيان مع التوجيه والإرشاد .

● وفي خلال تلك الأحكام التشريعية تكررت الدعوة إلى « تقوى الله » بالترغيب تارة ، وبالترهيب أخرى لئلا يقع حيف أو ظلم من أحد الزوجين ، كما وضحت أحكام السن والنفقة .

وختمت السورة بالتحذير من تعدي حدود الله ، وضربت المثل للذين كفروا بالآيات التي أنزلت عليهم ، وما ذاقوا من العذاب .

ثم أشارت إلى قدرة الله في خلق سبع سموات طباق وكلها براهين على وحدانية رب العالمين .

(٣) سُوْرَةُ الْخُزُمِیَّةِ
وَأَيُّهَا اثْنَانَا عَشْرَةَ

سورة التحريم من السور المدنية التي تتناول الشؤون التشريعية وهي هنا تعالج قضايا وأحكاماً تتعلق « ببيت النبوة » وبأمهات المؤمنين أزواج رسول الله ﷺ الطاهرات ، وذلك في إطار تهية البيت المسلم والنموذج الأكمل للأسرة السعيدة .

● تناولت السورة الكريمة في بدء الحديث تحريم الرسول ﷺ لجاريته ومملوكته « مارية القبطية » على نفسه وامتناعه عن معاشرتها ارضاء لرغبة بعض زوجاته الطاهرات وجاء العتاب له لطيفاً رقيقاً يشف عن عناية الله بعبده ورسوله محمد ﷺ أن يضيق على نفسه ما وسَّعه الله له ﴿ يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك تبتغي مرضاة أزواجك .. ﴾ الآيات .

● ثم تناولت السورة أمراً على جانب كبير من الخطورة ألا وهو « إفشاء السر » الذي يكون بين الزوجين والذي يهدد الحياة الزوجية ، وضربت المثل على ذلك برسول الله ﷺ حين أسر الى حفصة بسر واستكتمها إياه فأفشته إلى عائشة حتى شاع الأمر وذاع ، مما أغضب الرسول حتى همّ بتطليق أزواجه ﴿ وإذ أسر النبي إلى بعض أزواجه حديثاً .. ﴾ الآية .

● وحملت السورة الكريمة حملة شديدة عنيفة على أزواج النبي

ﷺ حين حدث ما حدث بينهن من التنافس وغيره بعضهن من بعض
لأمر يسيره وتوعدنهن بإبدال الله لرسول عليه السلام بنساء خير منهن
إنتصاراً لرسول الله ﷺ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً
منكن مسلمات مؤمنات قانتات ثابتات .. الآية .

● وختمت السورة بضرب مثلين ، مثل للزوجة الكافرة في عصمة
الرجل الصالح المؤمن ومثل للزوجة المؤمنة في عصمة الرجل الفاجر
الكافر تنبيهاً للعباد على أنه لا يغني في الآخرة أحد عن أحد ولا ينفع
حسب ولا نسب إذا لم يكن عمل الإنسان صالحاً ﷻ ضرب الله مثلاً
للذين كفروا امرأة نوح وامرأة لوط كانتا تحت عبدين من عبادنا
صالحين فخانتاهما - أي كفرتا بالله ولم تؤمنا - فلم يغنيا عنهما من الله
شيئاً وقيل ادخلا النار مع الداخلين . وضرب الله مثلاً للذين آمنوا امرأة
فرعون إذ قالت رب ابن لي عندك بيتاً في الجنة .. ﷻ الآيات وهو ختم
رائع يتناسق مع جو السورة وهدفها في ترسيخ دعائم الفضيلة والإيمان .

(١٧) سُورَةُ الْمُلْكِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّاهَا ثَلَاثُونَ آيَةً

● سورة الملّك من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السورة أهدافاً رئيسية ثلاثة وهي « إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة .. وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .. ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور » .

● ابتدأت السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول ، فذكرت أن الله جل وعلا بيده الملّك والسلطان ، وهو المهيمن على الأكوان ، الذي تخضع لعظمته الرقاب وتعنوله الجباه ، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ﴿ تبارك الذي بيده الملّك .. ﴾ الآيات .

● ثم تحدثت عن خلق السموات السبع ، وما زين الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة ، والنجوم اللامعة ، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً .. ﴾ الآيات .

● ثم تناولت الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب ، وهم يرون جهنم تتلظى وتكاد تنقطع من شدة الغضب والغيط على أعداء الله ، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿ إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور .. ﴾

● وبعد أن ساقَت بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته ،
حدّثت من عذابه وسخطه أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين ﴿ أأنتم
من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور .. ﴾ الآيات .

● وختمت السورة الكريمة بالإنذار والتحذير للمكذّبين بدعوة
الرسول من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت
الرسول ﷺ وهلاك المؤمنين ﴿ قل أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي
أو رحمتنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ ؟ الآيات ويا له من وعيد
شديد ، ترتعد له الغرائض ! !

فضلها : تسمى هذه السورة « الواقعة » و « المنجية » لأنها تقي
قارئها من عذاب القبر فقد قال ﷺ « هي المانعة وهي المنجية ، تنجي
من عذاب القبر » أخرجه الترمذي

(٦٨) سُورَةُ الْعَنْكَرِ
وَأَيْضًا تَهَانِثُنَانِ وَخَمْسُونَ

● سورة القلم من السور المكبة التي تعني بأصول العقيدة والإيمان ، وقد تناولت هذه السورة ثلاثة مواضيع أساسية وهي :

أ- موضوع الرسالة : والشبه التي أثارها كفار مكة حول دعوة محمد بن عبد الله ﷺ .

ب- قصة أصحاب الجنة « البستان » ، لبيان نتيجة الكفر بنعم الله تعالى الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وما أعدَّ الله للفريقين : المسلمين والمجرمين . ولكنَّ المحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو موضوع إثبات نبوة محمد ﷺ .

● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على رفعة قدر الرسول ﷺ وشرفه وبراءته مما ألصقه به المشركون من اتهامه - وحاشاه - بالجنون ، وبينت أخلاقه العظيمة . ومناقبه السامية ﴿ ن والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بمجنون . وإنَّ لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعلی خلقٍ عظیم ﴾ .. الآيات .

● ثم تناولت موقف المجرمين من دعوة رسول الله ﷺ وما أعدَّ الله لهم من العذاب والنكال ﴿ فلا تطع المكذبين . ودُّوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلافٍ مهين ﴾ .. الآيات .

● ثم ضربت مثلاً لكفار مكة في كفرانهم نعمة الله العظمى ببعثة

خاتم الرسل ﷺ اليهم وتكذيبهم به بقصة أصحاب الجنة « الحديقة » ذات الأشجار والزرع والثمار ، حيث جحدوا نعمة الله ومنعوا حقوق الفقراء والمساكين ، فأحرق الله حديقتهم وجعل قصتهم عبرة للمعتبرين ﴿ إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة إذ أقسموا ليصر منها مصبحين . ولا يستثنون . فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون . فأصبحت كالصريم ﴾ الآيات .

● ثم قارنت السورة بين المؤمنين والمجرمين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿ أفنجعل المسلمين كالمجرمين .. ﴾ الآيات .

● وتناولت السورة الكريمة القيامة وأحوالها وأهوالها ، وموقف المجرمين في ذلك اليوم العصيب ، الذي يكلفون فيه بالسجود الرب العالمين فلا يقدرعون ﴿ يوم يكشف عن ساقٍ ويدعون إلى السجود فلا يستطيعون ﴾ الآيات .

● وختمت السورة الكريمة بأمر الرسول ﷺ بالصبر على أذى المشركين ، وعدم التبرم والضرر بما يلقاه في سبيل تبليغ دعوة الله كما حدث من يونس عليه السلام حين ترك قومه وسارع إلى ركوب البحر ﴿ فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم ﴾ الآيات .

(٦٩) سُورَةُ الْحَاقَّةِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا ثِنْتَانِ وَخَمْسُونَ

● سورة الحاقة من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية في تثبيت العقيدة والإيمان ، وقد تناولت أموراً عديدة كالحديث عن القيامة وأهوالها ، والساعة وشدائدها ، والحديث عن المكذبين وما جرى لهم ، مثل قوم عاد ، وثمود ، وقوم لوط ، وفرعون ، وقوم نوح ، وغيرهم من الطغاة المفسدين في الأرض ، كما تناولت ذكر السعداء والأشقياء ، ولكن المحور الذي تدور عليه السورة هو إثبات صدق القرآن وأنه كلام الحكيم العليم ، وبراءة الرسول ﷺ مما اتهمه به أهل الضلال .

● ابتدأت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة والمكذبين بها ، وما عاقب تعالى به أهل الكفر والعناد ﴿الحاقة ما الحاقة . وما أدراك ما الحاقة ؟ كذبت ثمود وعاد بالقارعة . فأمّا ثمود فاهلكوا بالطاغية . وأمّا عاد فاهلكوا بريح صرصر عاتية ..﴾ الآيات .

● ثم تناولت الوقائع والفجائع التي تكون عند النفخ في الصور ، من خراب العالم ، واندكك الجبال ، وانشقاق السموات الخ ﴿فإذا نفخ في الصور نفخة واحدة . وحملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ..﴾ الآيات .

● ثم ذكرت حال السعداء والأشقياء في ذلك اليوم المفزع ،

حيث يعطي المؤمن كتابه يمينه ، ويلقي الإكرام والإنعام ، ويعطي الكافر كتابه بشماله ، ويلقي الذل والهوان ﴿ فَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ يَمِينَهُ فَيَقُولُ هَؤُلَاءِ أَقْرَبُوا كِتَابِيهِ ... وَأَمَّا مَنْ أَوْتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ .. ﴾ الآيات .

● وبعد هذا العرض لأحوال الأبرار والفجار ، جاء القسم البليغ بصدق الرسول ، وصدق ما جاء به من الله ، ورد افتراءات المشركين الذين زعموا أن القرآن سحر أو كهانة ﴿ فَلَا أَقْسَمُ بِمَا تُبْصِرُونَ وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴾ .

● ثم ذكرت البرهان القاطع على صدق القرآن ، وأمانة الرسول ﷺ في تبليغه الوحي كما نزل عليه ، بذلك التصوير الذي يهز القلب هزاً ، ويثير في النفس الخوف والفرع من هول الموضوع ﴿ وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ .. ﴾ الآيات .

● وختمت السورة بتمجيد القرآن وبيان أنه رحمة للمؤمنين وحسرة على الكافرين ﴿ وَإِنَّهُ لَتَذَكُّرَةٌ لِلْمُتَّقِينَ .. وَإِنَّهُ لَحِصْرَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ . وَإِنَّهُ لَحَقُّ الْيَقِينِ . فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ .

(٧٠) سُورَةُ الْمَعَارِجِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّاتُهَا اَلْاِنْجِ وَ اَلْاَنْجُوتُ

● سورة المعارج من السور المكية ، التي تعالج أصول العقيدة الإسلامية ، وقد تناولت الحديث عن القيامة وأهوالها ، والآخرة وما فيها من سعادة وشقاوة ، وراحة ونصب ، وعن أحوال المؤمنين والمجرمين ، في دار الجزاء والخلود ، والمحور الذي تدور عليه السورة الكريمة هو الحديث عن كفار مكة وإنكارهم للبعث والنشور ، واستهزاؤهم بدعوة الرسول ﷺ .

● ابتدأت السورة الكريمة بالحديث عن طغيان أهل مكة ، وعن تمردهم على طاعة الرسول ﷺ ، واستهزائهم بالإندار والعذاب الذي خوفوا به ، وذكرت مثلاً لطغيانهم بما طلبه بعض صناديدهم وهو « النضر بن الحارث » حين دعا أن يُنزل الله عليه وعلى قومه العذاب العاجل ، ليستمتعوا به في الدنيا قبل الآخرة ، وذلك مكابرة في الجحود والعناد ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ لِلْكَافِرِينَ لَيْسَ لَهُ دَافِعٌ مِنْ اللَّهِ فِي الْمَعَارِجِ ۖ ۞ ﴾ الآيات

● ثم تناولت الحديث عن المجرمين في ذلك اليوم الفظيع الذي تتفطر فيه السموات ، وتتطاير فيه الجبال فتصير كالصوف الملون ألواناً غريبة ﴿ يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ ۖ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ ۖ وَلَا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيمًا ۖ يَبْصُرُونَهُمْ يَوْمَئِذٍ الْمَجْرِمُ لَوْ يَفْتَدِي مِنْ عَذَابٍ يَوْمئِذٍ بَيْنِيهِ ۖ ۞ ﴾

وصاحبه وأخيه . وفصيلته التي تؤويه . ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيهم ﴿١٠﴾ .

● ثم استطردت السورة إلى ذكر طبيعة الإنسان ، فإنه يخرج عند الشدة ، ويبطر عند النعمة ، فيمنع حقَّ الفقير والمسكين ﴿ إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا . إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا . وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴾ .

● ثم تحدث عن المؤمنين وما اتصفوا به من جلائل الصفات ، وفضائل الأخلاق ، وبينت ما أعدَّ الله لهم من عظيم الأجر في جنات الخلد والنعيم ﴿ إلاَّ المصلين . الذين هم على صلاتهم دائمون . والذين في أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ الآيات .

● ثم تناولت الكفرة المستهزئين بالرسول ، الطامعين في دخول جنات النعيم ﴿فَمَا لِلَّذِينَ كَفَرُوا فَيْلًا مِّمَّا كَسَبُوا﴾ . عن اليمين وعن الشمال عزيز . أيطمع كل امرئٍ منهم أن يُدخل جنة نعيم . كلاً إنا خلقناهم مما يعلمون .

● وختمت السورة الكريمة بالقسم الجليل برب العالمين على أن البعث والجزاء حق لا ريب فيه ، وعلى أن الله تعالى قادر على أن يخلق خيراً منهم « فلا أقسم برب المشارق والمغارب إنا لقادرون على أن نبذل خيراً منهم وما نحن بمسبوقين .. إلى قوله خاشعة أبصارهم ترهقهم ذلة ذلك اليوم الذي كانوا يوعدون » .

(٧١) سُورَةُ نُوحٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَمَانِيْنَ وَعَشْرُونَ

● سورة نوح مكية ، شأنها شأن سائر السور المكية التي تعني بأصول العقيدة ، وتثبيت قواعد الإيمان ، وقد تناولت السورة تفصيلاً قصة شيخ الأنبياء « نوح » عليه السلام ، من بدء دعوته حتى نهاية حادثة الطوفان ، التي أغرق الله بها المكذبين من قومه ، ولهذا سميت « سورة نوح » ، وفي السورة بيان لسنة الله تعالى في الأمم التي انحرفت عن دعوة الله ، وبيان لعاقبة المرسلين ، وعاقبة المجرمين ، في شتى العصور والأزمان .

● ابتدأت السورة الكريمة بإرسال الله تعالى لنوح عليه السلام ، وتكليفه بتبليغ الدعوة وإنذار قومه من عذاب الله ﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ .

● ثم ذكرت السورة جهاد نوح ، وصبره ، وتضحيته في سبيل تبليغ الدعوة ، فقد دعا قومه ليلاً ونهاراً ، وسراً وجهاراً ، فلم يزددهم ذلك إلا إمعاناً في الضلال والعصيان ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ، فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴾ .

● ثم تابعت السورة تذكّرهم بإنعام الله وإفضاله على لسان نوح عليه السلام ، ليجدّوا في طاعة الله ، ويروا آثار قدرته ورحمته في هذا الكون ﴿ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ؟ وَجَعَلَ الْقَمَرَ

فبين نوراً وجعل الشمس سراجاً ! والله أنبتكم من الأرض نباتاً !
ثم يعيدكم فيها ويخرجكم إخراجاً ﴿ ١ ١ ﴾ !

● ومع كل هذا التذكير والنصح والإرشاد ، فقد تمادى قومه في الكفر والضلال والعناد ، واستخفوا بدعوة نبيهم نوح عليه السلام حتى أهلكهم الله بالطوفان ﴿ ١ ﴾ قال نوحٌ ربِّ إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تذرُنَّ آهنتكم ولا تذرُنَّ وداً ولا سُواعاً .. ﴿ ١ ﴾ الآيات .

● وختمت السورة الكريمة بدعاء نوح عليه السلام على قومه بالهلاك والدمار ، بعد أن مكث فيهم تسعمائة وخمسين سنة يدعوهم إلى الله ، فما لانت قلوبهم ، ولا انتفعت بالتذكير والإنذار ﴿ ١ ﴾ وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً . رب اغفر لي ولوالديّ ولمن دخل بيتي مؤمناً ، وللمؤمنين والمؤمنات ، ولا تزد الظالمين إلا تباراً ﴿ ١ ﴾ .

(٧٢) سُوْرَةُ الْجِنِّ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْمَلَأَتْ أَكْثَرَ الْقُرْآنِ

● سورة الجن مكية وهي تعالج أصول العقيدة الإسلامية «الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول الجن ، وما يتعلق بهم من أمور خاصة ، بدءاً من استماعهم للقرآن ، إلى دخولهم في الإيمان ، وقد تناولت السورة بعض الأنباء العجيبة الخاصة بهم ، كاستراقهم للسمع ، ورميهم بالشهب المحرقة ، وإطلاعهم على بعض الأسرار الغيبية ، إلى غير ذلك من الأخبار المثيرة .

● ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن استماع فريق من الجن للقرآن ، وتأثرهم بما فيه من روعة البيان ، حتى آمنوا به فور استماعه ودعوا قومهم إلى الإيمان ﴿ قل أوحى إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرآناً عجباً .. ﴾

● ثم انتقلت للحديث عن تمجيدهم وتنزيههم لله جل وعلا ، وإفرادهم له بالعبادة ، وتسفيهم لمن جعل لله ولداً ﴿ وأنه تعالى جدُّ بنا ما اتخذ صاحبةً ولا ولداً . وأنه كان يقول سفيهاً على الله شططاً .. ﴾ الآيات .

● ثم تحدثت السورة عن استراق الجن للسمع ، وإحاطة السماء بالحرس من الملائكة ، وإرسال الشهب على الجن بعد بعثة رسول الله ﷺ ، وتعجبهم من هذا الحدث الغريب ﴿ وأنا لمسنا السماء فوجدناها

ملئت حرصاً شديداً وشهياً. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجذله شهياً برصداً... ﴿الآيات .

● ثم تحدثت السورة عن انقسام الجن إلى فريقين : مؤمنين ، وكافرين ومآل كلي من الفريقين ﴿وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَمِنَ الْقَاسِطِينَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا . وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا﴾
● ثم انتقلت للحديث عن دعوة رسول الله ﷺ ، وعن التفاف الجن حوله حين سمعوه يتلو القرآن ﴿وَأَنَّهُ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ كَادُوا يَكُونُونَ عَلَيْهِ لِبَدًا . قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا﴾ .

● ثم أمرت الرسول عليه السلام بأن يعلن استسلامه وخضوعه لله ، ويفرده جلّ وعلا بإخلاص العمل ، وأن يتبرأ من الحول والطول ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا . قُلْ إِنِّي لَا أملك لكم ضرراً ولا رشداً . قُلْ إِنِّي لَنْ يَجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ ، وَلَنْ أَحَدٌ مِنْ دُونِهِ مُلتَحِدًا﴾
● وختمت السورة ببيان اختصاص الله جل وعلا بمعرفة الغيب ، وإحاطته بعلم جميع ما في الكائنات ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا . إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَانَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمَنْ خَلْفَهُ رَصَدًا...﴾ ﴿الآيات .

(٧٣) سُورَةُ الْمَزْمَلِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا عَشْرُونَ

● سورة المزمّل مكّية ، وهي تتناول جانباً من حياة الرسول الأعظم ﷺ ، في تبتله ، وطاعته ، وقيامه الليل ، وتلاوته لكتاب الله عز وجل ، ، ومحورُ السورة يدور حول الرسول عليه الصلاة والسلام ، ولهذا سميت « سورة المزمّل » .

● ابتدأت السورة الكريمة بنداء الرسول ﷺ نداءً شفيفاً لطيفاً ينم عن لطف الله عز وجل ورحمته بعبده ورسوله محمد ﷺ الذي كان يجهد نفسه في عبادة الله ابتغاء مرضاته ﴿ يَا أَيُّهَا الْمَزْمَلُ قُمْ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلاً . نَصْفَهُ أَوْ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلاً . أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ .

● ثم تناولت السورة موضوع ثقل الوحي الذي كلف الله به رسوله ، ليقوم بتبليغه للناس بجد ونشاط ، ويستعين على ذلك بالاستعداد الروحي بإحياء الليل في العبادة ﴿ إِنَّا سَنُلْقِي عَلَيْكَ قَوْلًا ثَقِيلًا . إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْأً وَأَقْوَمُ قِيلاً . إِنَّ لَكَ فِي النَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلًا ﴾ .

● وأمرت السورة الرسول عليه السلام بالصبر على أذى المشركين ، وهجرهم هجراً جميلاً إلى أن ينتقم الله منهم ﴿ وَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَاهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا . وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهْلَهُمْ قَلِيلًا ﴾ .

● ثم تَوَعَّد الله المشركين بالعذاب والنكال يوم القيامة ، حيث يكون فيه من الهول والفرع ما يشيب له رعوس الولدان ﴿ إِنَّ لَدِينَا

أنكالاً وجحيماً . وطعاماً ذاغصةٍ وعذاباً أليماً . يوم ترجف الأرض
والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً... ﴿ الآيات .

● وختمت السورة الكريمة بتخفيف الله عن رسوله وعن المؤمنين
من قيام الليل رحمة به وبهم ، ليتفرغ الرسول وأصحابه لبعض شئون
الحياة ﴿ إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثي الليل ونصفه وثلثه
وطائفة من الذين معك... ﴾ إلى قوله ﴿ وما تقدموا لأنفسكم من خير
تجدوه عند الله هو خيراً وأعظم أجراً واستغفروا الله إن الله غفور رحيم ﴾ .

(٧٤) سُورَةُ الْمَدِّثِ مَكِّيَّةٌ
وَأَسْمَاءُهَا السَّنْتِ وَخَمْسُونَ

● سورة المدثر مكية ، شأنها كسابقتها - سورة المزمل - تتحدث عن بعض جوانب من شخصية الرسول الأعظم ﷺ ، ولهذا سميت سورة المدثر .

● ابتدأت السورة الكريمة بتكليف الرسول بالنهوض بأعباء الدعوة ، والقيام بمهمة التبليغ بجدٍ ونشاط ، وإنذار الكفار ، والصبر على أذى الفجار ، حتى يحكم الله بينه وبين أعدائه ﴿ يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبُّكَ فَكَبِّرْ . وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ . وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ . وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرْ . وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴾ .

● ثم توالى السورة تنذر وتهدد أولئك المجرمين ، بيومٍ عصيب شديد لا راحة لهم فيه ، لما فيه من الأهوال والشدائد ﴿ فَإِذَا نَفَرْنَا فِي السَّمَاءِ فَذُنُوبُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ شُرُكُهَا هُنَّ حُمْقٌ مُحْضَرَةٌ وَسَعِيرَةٌ ﴾ .

● وبعد ذلك البيان الذي يرتعد له الإنسان ، تحدثت السورة عن قصة ذلك الشقي الفاجر « الوليد بن المغيرة » الذي سمع القرآن وعرف أنه كلام الله ، ولكنه في سبيل الزعامة وحب الرئاسة زعم أنه من قبيل السحر الذي تعارفه البشر ﴿ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فَكَّرُوا قَدَرًا .

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ .. إلى قوله تعالى : سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴿

● ثم تحدثت السورة عن النار التي أوعدها الله بها الكفار ، وعن خزنتها الأشداء ، وزبائنها الذين كلفوا بتعذيب أهلها ، وعددهم والحكمة من تخصيص ذلك العدد ﴿ وما أدراك ما سقر ؟ لا تبقي ولا تذر . لَوَاحٍ للبشر . عليها تسعة عشر . وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ، وما جعلنا عدتهم إلا فتنةً للذين كفروا .. ﴾ الآيات .

● وأقسمت السورة بالقمر وضيائه ، والصبح وبهائه على أن جهنم إحدى البليات العظام ﴿ كلا والقمر . والليل إذا أدبر . والصبح إذا أسفر . إنها لأحدى الكبر . نذيراً للبشر . لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر ﴾ .

● ثم تحدثت السورة عن الحوار الذي يجري بين المؤمنين والمجرمين عن سبب دخولهم الجحيم ﴿ إلا أصحاب اليمين . في جنات يتساءلون عن المجرمين ما سلككم في سقر ؟ قالوا لم نك من المصلين . ولم نك نطعم المسكين . وكنا نخوض مع الخائفين ﴾ الآيات .

● وختمت السورة ببيان سبب إغراض المشركين عن الإيمان ﴿ كلا بل لا يخافون الآخرة . كل إنه تذكرة . فمن شاء ذكره . وما يذكرون إلا أن يشاء الله هو أهل التقوى وأهل المغفرة ﴾ .

(٧٥) سُورَةُ الْقِيَامَةِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الرِّبُّوعُ

● سورة القيامة مكية ، وهي تعالج موضوع « البعث والجزاء » الذي هو أحد أركان الإيمان ، وتركز بوجه خاص على القيامة وأهوالها ، والساعة وشدائدها . وعن حالة الإنسان عند الاحتضار ، وما يلقاه الكافر في الآخرة من المصاعب والمتاعب ، ولذلك سميت سورة القيامة .

● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بيوم القيامة وبالنفس اللوامة ، على أن البعث حق لا ريب فيه ﴿ لَا أَقْسَمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ ، وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللّٰوَامَةِ . أَيْحَسِبَ الْإِنْسَانُ أَنْ لَّنْ نَّجْمَعُ عِظَامَهُ ؟ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نَسُوِيَ بَنَانَهُ ﴾ .

● ثم ذكرت طرفاً من علامات ذلك اليوم الم هول ، الذي يُخسف فيه القمر ، ويتحير البصر ، ويجمع فيه الخلائق والبشر للحساب والجزاء ﴿ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ . وَخَسَفَ الْقَمَرُ . وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ . يَقُولُ الْإِنْسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفْرُ ؟ كَلَّا لَا وَزَرَ . إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ ﴾ .

● وتحدثت السورة عن اهتمام الرسول بضبط القرآن عند تلاوة جبريل عليه ، فقد كان السلام يجهد نفسه في متابعة جبريل ، ويحرك لسانه معه ليسرع في حفظ ما يتلوه ، فأمره تعالى أن يستمع للتلاوة ولا يحرك لسانه به ﴿ لَا تُحْرِكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . إِنْ عَلَيْنَا جَمْعَهُ .

وقرآنه فإذا قرأناه فزتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه ﴿١﴾

● وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى فريقين : سعداء وأشقياء ، فالسعداء وجوههم مضيئة تتلأأ بالأنوار ، ينظرون إلى الرب جل وعلا ، والأشقياء وجوههم مظلمة قاتمة يعلوها الذل والقترة ﴿٢﴾ وجوه يومئذ ناضرة . إلى ربها ناظرة . ووجوه يومئذ باسرة . تظن أن يفعل بها فاقرة ﴿٣﴾ .

● ثم تحدثت السورة عن حال المرء وقت الاحتضار ، حيث تكون الأهوال والشدائد ، ويلقي الإنسان من الكرب والضيق ما لم يكن في الحسبان ﴿٤﴾ كلا إذا بلغت التراقي . وقيل من راق ؟ وظن أنه الفراق . والتفت الساق بالساق . إلى ربك يومئذ المساق . فلا صدق ولا صلى . ولكن كذب وتولى . ثم ذهب إلى أهله يتمطى .. ﴿٥﴾

● وختمت السورة الكريمة بإثبات الحشر والمعاد بالأدلة والبراهين العقلية ﴿٦﴾ أبحسب الإنسان أن يترك سدى ؟ ألم يك نطفة من مني يُمنى ؟ ثم كان علقة فخلق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيي الموتى ؟ ﴿٧﴾

(٧٦) سُورَةُ الْإِنْسَانِ مَدَنِيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا ابْدَأْتُ وَتِلَاوَتُهَا

● سورة الدهر من السور المدنية ، وهي تعالج أموراً تتعلق بالآخرة ، وبوجه خاص تتحدث عن نعم المتقين الأبرار ، في دار الخلد والإقامة في جنات النعيم ، ويكاد يكون جو السورة هو جو السور الملكية لإيجاءاتها وأسلوبها ومواضيعها المتنوعة .

● ابتدأت السورة الكريمة ببيان قدرة الله في خلق الإنسان في أطوار ، وتهيئته ليقوم بما كُلف به من أنواع العبادة ، حيث جعل الله تعالى له السمع والبصر وسائر الحواس ﴿ هل أتى على الإنسان حينٌ من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً . إنا خلقنا الإنسان من نطفةٍ أمشاجٍ نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً ﴾

● ثم تحدثت عن النعيم الذي أعده الله في الآخرة لأهل الجنة ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِنْ كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً . عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً ﴾ .

● ثم ذكرت أوصاف هؤلاء السعداء بشيء من الإسهاب ، فوصفتهم بالوفاء بالنذر ، وإطعام الفقراء ابتغاء مرضاة الله ، والخوف من عذاب الله ، وذكرت أن الله تعالى قد آمنهم من ذلك اليوم العبوس الذي تكلم فيه الوجوه ﴿ يوفون بالنذر ويخافون يوماً كان شره مستطيراً . ويطعمون الطعام على حبه مسكيناً ويتيمماً وأسيراً . إنا ما نطعمكم لوجه

الله لا نريد منكم جزاء ولا شكوراً... ﴿الآيات .

● وأشادت - بعد ذكر أوصافهم - بما لهم عند الله من الأجر والكرامة في دار الإقامة ، وبما حباهم الله من الفضل والنعم يوم الدين ﴿وجزاهم بما صبروا جنةً وحريراً . متكئين فيها على الأرائك لا يرون فيها شمساً ولا زمهرياً . ودانيةً عليهم ظلالها وذلّت قطوفها تذليلاً﴾ .

● وتابعت السورة في سرد نعم أهل الجنة في مأكلهم ، ومشربهم ، وملبسهم ، وخدمهم الذين يطوفون عليهم صباح مساء ﴿ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا . قوارير من فضة قدروها تقديرأ . ويسقون فيها كأساً كان مزاجها زنجبيلاً . عيناً فيها تسمى سلسبيلاً . ويطوف عليهم ولدانٌ مخلدون إذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤاً منثوراً﴾ .

وختمت السورة الكريمة ببيان أن هذا القرآن تذكرة لمن كان له قلبٌ يعي ، أو فكر ثاقب يستضيء بنوره ﴿إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً . وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليماً حكيماً يدخل من يشاء في رحمته والظالمين أعد لهم عذاباً أليماً﴾ .

(٧٧) سُوْرَةُ الْمُرْسَلَاتِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبَأَتْهَا جَبْرِائِيلُ

● سورة المرسلات مكية ، وهي كسائر السور المكية تعالج أمور العقيدة ، وتبحث عن شئون الآخرة ، ودلائل القدرة والوحدانية ، وسائر الأمور الغيبية .

● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بأنواع الملائكة ، المكلفين بتدبير شئون الكون ، على أن القيامة حق ، وأن العذاب والهلاك واقع على الكافرين ﴿ والمرسلات عرفاً . فالعاصفات عصفاً . والناشرات نشرأً . فالفارقات فرقا . فالملقيات ذكراً . عذراً أو نذراً . إنما توعدون لواقع ﴾ .

● ثم تحدثت عن وقت ذلك العذاب الذي وُعد به المجرمون ﴿ فإذا النجوم طمست . وإذا السماء فرجت . وإذا الجبال نسفت . وإذا الرسل أقتت . لأي يوم أُجِّلْت . ليوم الفصل . وما أدراك ما يوم الفصل ﴾ ؟

● وتناولت السورة بعد ذلك دلائل قدرة الله الباهرة على إعادة الإنسان بعد الموت ، وإحيائه بعد الفناء ﴿ ويل يومئذ للمكذبين . ألم نهلك الأولين . ثم نتبعهم الآخرين ؟ كذلك نفعل بالمجرمين . ويل يومئذ للمكذبين . ألم نخلقكم من ماء مهين . ؟ الآيات

● ثم تحدثت عن مآل المجرمين في الآخرة وما يلقون فيه من

نكال وعقاب ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ انطلقوا إلى ما كنتم به تكذبون .
انطلقوا إلى ظلٍ ذي ثلاث شعب . لا ظليل ولا يغني من اللهب . إنها
ترمي بشررٍ كالقصر . كأنه جمالتٌ صفر . ﴿الآيات

● وبعد الحديث عن المجرمين ، تحدثت السورة عن المؤمنين
المتقين ، وذكرت ما أعدّه الله تعالى لهم من أنواع الإفضال والإكرام
﴿إن المتقين في ظلال وعيون . وفواكه مما يشتهون . كلوا واشربوا
هنيئاً بما كنتم تعملون . إنا كذلك نجزي المحسنين﴾ .

● وختمت السورة الكريمة ببيان سبب امتناع الكفار ، عن عبادة
الله الواحد القهار ، وهو الطغيان والإجرام ﴿ويلٌ يومئذٍ للمكذبين﴾ .
كلوا وتمتعوا قليلاً انكم مجرمون . ويلٌ يومئذٍ للمكذبين . وإذا قيل
لهم اركعوا لا يركعون . ويلٌ يومئذٍ للمكذبين فبأي حديث بعده
يؤمنون ؟

(٧٨) سُورَةُ التَّنْبِإِ مَكِّيَّةٌ
وَأَنبِأَهَا إِبْرَاهِيمُ

● سورة عمّ مكية وتسمى «سورة النبأ» لأن فيها الخبر الهام عن القيامة والبعث والنشور، ومحور السورة يدور حول إثبات «عقيدة البعث» التي طالما أنكرها المشركون.

● ابتدأت السورة الكريمة بالإخبار عن موضوع القيامة، والبعث والجزاء، هذا الموضوع الذي شغل أذهان الكثيرين من كفار مكة، حتى صاروا فيه ما بين مصلّد ومكذب ﴿عمّ يتساءلون. عن النبأ العظيم. الذي هم فيه مختلفون. كلاً سيعلمون. ثم كلاً سيعلمون﴾ ثم أقامت الدلائل والبراهين على قدرة رب العالمين، فإن الذي يقدر على خلق العجائب والبدائع، لا يعجزه إعادة خلق الإنسان بعد فثائه ﴿ألم نجعل الأرض مهاداً. والجبال أوتاداً. وخلقناكم أزواجاً. وجعلنا نومكم سباتاً. وجعلنا الليل لباساً. وجعلنا النهار معاشاً﴾ الآيات.

● ثم أعقبت ذلك بذكر البعث، وحددت وقته وميعاده، وهو يوم الفصل بين العباد، حيث يجمع الله الأولين والآخرين للحساب ﴿إن يوم الفصل كان ميقاتاً. يوم ينفخ في الصور فتأتون أفواجا﴾ الآيات.

● ثم تحدثت عن جهنم التي أعدها الله للكافرين، وما فيها من

ألوان العذاب المهين ﴿إِنْ جَهَنَّمَ كَانَتْ مِرْصَادًا لِلطَّاغِينَ مَابًا﴾ لا يثنى فيها أحقاباً . لا يذوقون فيها برداً ولا شرباً . إلا حميماً وغساقاً .. ﴿الآيات .

● وبعد الحديث عن الكافرين ، تحدثت السورة الكريمة عن المتقين ، وما أعدَّ الله تعالى لهم من ضروب النعيم ، على طريقة القرآن في التهيب والترغيب ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ مَفَازًا﴾ حدائق وأعناباً . وكواعب أتراباً . وكأساً دهاقاً . لا يسمعون فيها لغواً ولا كذاباً . جزاءً من ربك عطاءً حساباً﴾ .

● وختمت السورة الكريمة بالحديث عن هول يوم القيامة ، حيث يتمنى الكافر أن يكون تراباً فلا يحشر ولا يحاسب ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلَائِكَةُ صَفًّا لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ . ذلك اليومُ الحقُّ فمن شاء اتخذ إلى ربه مآباً . إنا أنذرناكم عذاباً قريباً يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتني كنت تراباً﴾ .

(٧٩) سُورَةُ النَّازِعَاتِ كَثِيرَةٌ
وَأَيَّانَهَا سَنَتُ وَأَرْجُوهُ

● سورة النازعات مكية ، شأنها كشأن سائر السور المكية ، التي تُعنى بأصول العقيدة «الوحدانية ، الرسالة ، البعث والجزاء» ومحور السورة يدور حول القيامة وأحوالها ، والساعة وأحوالها ، وعن مآل المتقين ، ومآل المجرمين .

● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالملائكة الأبرار ، التي تنزع أرواح المؤمنين بلطفٍ ولين ، وتنزع أرواح المجرمين بشدة وغلظة ، تدبر شئون الخلائق بأمر الله جل وعلا ﴿ والنازعات غرقاً . والناشاطات نشطاً . والسابحات سبحاً . فالسابقات سبقاً . فالدبرات أمراً . يوم ترجف الراجفة . تتبعها الرادفة ﴾ .

● ثم تحدثت عن المشركين ، المنكرين للبعث والنشور ، فصورت حالتهم في ذلك اليوم القطيع ﴿ قلوبٌ يومئذٍ واجفة . أبصارها خاشعة . يقولون أئنا لمردودون في الحافرة ؟ أئذا كنا عظاماً نخرة . قالوا تلك إذا كرةٌ خاسرة . فإنما هي زجرةٌ واحدة . فإذا هم بالساهرة ﴾ .

● ثم تناولت السورة قصة فرعون الطاغية ، الذي ادعى الربوبية وتمادي في الجبروت والطغيان ، فقصمه الله وأهلكه بالغرق هو وقومه الأقباط ﴿ هل أتاك حديث موسى ؟ إذ ناداه ربه بالواد المقدس طوى . إذهب إلى فرعون إنه طغى . فقُلْ هَلْ لَكَ إِلَى أَنْ تَزْكَى .. ﴾ الآيات .

● وحدثت السورة عن طغيان أهل مكة وتمردهم على رسول الله ﷺ ، وذكرتهم بأنهم اضعف من كثير من مخلوقات الله ﴿أأنتم أشد خلقاً أم السماء بناها؟ رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها﴾ .. الآيات

● وختمت السورة الكريمة ببيان وقت الساعة الذي استيعده المشركون وأنكروه وكذبوا بحدوثه ﴿يسألونك عن الساعة أيان مرساها . فم أنت من ذكرها . إلى ربك منتهاها . إنما أنت منذر من يخشاها . كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا إلا عشية أو ضحاها﴾

(١٠) سُورَةُ عَبَسَ بِكَيْدِهَا
وَأَيَّانَهَا شَنَنَاتٌ وَارْتَمَحَنَ

● سورة عبس من السور المكية ، وهي تتناول شتوئاً تتعلق بالعتيدة وأمر الرسالة ، كما أنها تتحدث عن دلائل القدرة والوحدانية في خلق الإنسان ، والنبات ، والطعام ، وفيها الحديث عن القيامة وأهوالها ، وشدة ذلك اليوم العصيب .

● ابتدأت السورة الكريمة بذكر قصة الأعمى « عبد الله بن أم مكتوم » الذي جاء إلى رسول الله ﷺ يطلب منه أن يعلمه مما علمه الله ، ورسول الله ﷺ مشغول مع جماعة من كبراء قريش يدعواهم إلى الإسلام ، وكرر ذلك وهو لا يعلم أنه مشغول بالقوم ، فكره رسول الله ﷺ قطع الأعمى لكلامه ، فعبس وجهه وأعرض عنه ، فنزل القرآن يعاتب الرسول عتاباً شديداً مع توجيهه إلى الطريق الأصوب ﴿ عبس وتولى أن جاءه الأعمى . وما يدريك لعله يزكى . أو يذكر فتنفعه الذكرى . أما من استغنى فأنْتَ له تصدى .. ﴾ الآيات

● ثم تحدثت السورة عن جحود الإنسان ، وكفره الفاحش بربه مع كثرة نعم الله تعالى عليه ﴿ قُتِلَ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرَهُ ؟ من أي شيء خلقه ؟ من نطفة خلقه فقدَّره . ثم السبيل يسره .. ﴾ الآيات

● ثم تناولت السورة دلائل القدرة في هذا الكون ، حيث يسر الله للإنسان سبيل العيش فوق سطح هذه المعمورة ﴿ فلينظر الإنسان

إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبثنا فيها حباً
وعنباً وقضباً . وزيتوناً ونخلأ . وحدائق غلباً . وفاكهةً وأباً . متاعاً
لكم ولأنعامكم ﴿

● وختمت السورة الكريمة ببيان أهوال القيامة ، وفرار الإنسان
من أحبابه من شدة الهول والفرع ، وبينت في ذلك اليوم العصيب حال
المؤمنين وحال الكافرين ﴿ فإذا جاءت الصاخة . يوم يفر المرء من أخيه .
وأُمه وأبيه . وصاحبه وبنيه . لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه .
وجوه يومئذ مسفرة . ضاحكة مستبشرة . ووجوه يومئذ عليها غبرة .
ترهقها قرة . أولئك هم الكفرة الفجرة ﴾ .

(٨١) سُورَةُ التَّكْوِيْنِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا ثَلَاثُ عَشْرَةَ

● سورة التكوين من السور المكية ، وهي تعالج حقيقتين من حقائق العقيدة الإسلامية وهما : حقيقة القيامة ، وحقيقة الوحي والرسالة ، وكلاهما من لوازم الإيمان .

● ابتدأت السورة الكريمة ببيان حقيقة القيامة وما يصاحبها من انقلاب كوني هائل ، يشمل الشمس والنجوم ، والجبال والبحار ، والأرض والسماء ، والأنعام والوحوش ، كما يشمل البشر ، ويهز الكون هزاً عنيفاً طويلاً ، ينتثر فيه كل ما في الوجود ، ولا يبقى شيء إلا وقد تبدّل وتغيّر من هول ما يحدث في ذلك اليوم الرهيب ﴿ إذا الشمس كورت . وإذا النجوم انكدرت . وإذا الجبال سُيرت . وإذا العِشَارُ عُطِّلَتْ . وإذا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ . وإذا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ . وإذا النُفُوسُ زُوِّجَتْ . وإذا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ . بأيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ ؟ ﴾ .. الآيات .

● وتناولت السورة حقيقة الوحي ، وصفة الملك الذي يحمله ، وصفة النبي الذي يلقاه ، ثم شأن القوم المخاطبين بهذا الوحي الذي نزل لينقلهم من ظلمات الشرك والضلال ، إلى نور العلم والإيمان ﴿ فلا أقسم بِالْخُنَّسِ . الْجَوَارِ الْكُنَّسِ . وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ . وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ .

مطاعٍ ثُمَّ آمين . وما صاحبكم بمجنون .. ﴿ الآيات .

● وختمت السورة الكريمة ببيان بطلان مزاعم المشركين حول القرآن العظيم ، وذكرت أنه موعظةٌ من الله تعالى لعباده ﴿ فأين تذهبون ؟ إن هو إلا ذكرٌ للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم . وما تشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ﴿ .

(٨٢) سُورَةُ الْاِنْفِطَارِ مَكِّيَّةٌ
وَاَيَاتُهَا سِتْعٌ عَشْرَةٌ

● سورة الانفطار من السور المكية ، وهي تعالج - كسابقتها
سورة التكويد - الانقلاب الكوني الذي يصاحب قيام الساعة ، وما
يحدث في ذلك اليوم الخطير من أحداث جسام ، ثم بيان حال الأبرار ،
وحال الفجار يوم البعث والنشور .

● ابتدأت السورة الكريمة ببيان مشاهد الانقلاب الذي يحدث
في الكون ، من انفطار السماء ، وانتشار الكواكب ، وتفجير البحار ،
وبعثرة القبور ، وما يعقب ذلك من الحساب والجزاء ﴿ إِذَا السَّمَاءُ
انْفَطَرَتْ . وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ . وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ . وَإِذَا الْقُبُورُ
بُعْثِرَتْ . عَلِمْتَ نَفْسٌ مَا قَدَّمْتَ وَأَخَّرْتَ .

● ثم تحدثت عن جحود الإنسان وكفرانه لنعم ربه ، وهو
يتلقى فيبوض النعمة منه جل وعلا في ذاته وخلقته ، ولكنه لا يعرف
للنعمة حقها ، ولا يعرف لربه قدره ، ولا يشكره على الفضل والنعمة
والكرامة ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ . الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ
فَعَدَّلَكَ . فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ .

● ثم بينت السورة علة هذا الجحود والإنكار ، وهو التكذيب
بيوم الحساب ، مع أن الله تعالى وكل بكل إنسان ملائكة يسجلون
عليه أعماله ، ويتعقبون أفعاله ﴿ كَلَّا بَلْ تَكْذِبُونَ بِالْدِّينِ . وَإِنْ عَلَيْكُمْ

لحافظين . كراماً كاتبين . يعلمون ما يفعلون ﴿

● وذكرت السورة انقسام الناس في الآخرة إلى قسمين : أبرار ، وفجار ، وبينت مآل كل من الفريقين ﴿ إن الأبرار لفي نعيم . وإن الفجار لفي جحيم . يصلونها يوم الدين .. ﴾ الآيات .

● وختمت السورة الكريمة بتصوير ضخامة يوم القيامة وهوله ، وتجرد النفوس يومئذٍ من كل حول وقوة ، وتفرد الله جل وعلا بالحكم والسلطان ﴿ وما أدراك ما يوم الدين ؟ ثم ما أدراك ما يوم الدين ؟ يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً ، والأمر يومئذٍ لله ﴾ .

(٨٣) سُورَةُ الْمَطْفِينَ مَكِّيَّةٌ
وَلَا يَأْتِيهَا شَيْءٌ وَشَلَاكٌ

● هذه السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، تعالج أمور العقيدة وتتحدث عن الدعوة الإسلامية في مواجهة خصومها الألداء .

● ابتدأت السورة الكريمة بإعلان الحرب على المطففين في الكيل والوزن ، الذين لا يخافون الآخرة ولا يحسبون حساباً للوقفة الرهيبة بين يدي أحكم الحاكمين ﴿ ويلٌ للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون . وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم ؟ يوم يقوم الناس لرب العالمين ﴾ .

● ثم تحدثت عن الأشقياء الفجار ، وصوّرت جزاءهم يوم القيامة ، حيث يلقون إلى الجحيم مع الزجر والتهديد ، والذل والهوان ﴿ كَلَّا إِنَّ كِتَابَ الْفُجَارِ لَفِي سِجِّينٍ . وما أدراك ما سجين ؟ كتابٌ مرقوم . ويلٌ يومئذٍ للمكذبين . الذين يكذبون بيوم الدين . وما يكذب به إلا كل معتدٍ أثيم .. ﴾ الآيات

● ثم عرضت السورة الكريمة لصفحة المتقين الأبرار ، وماهم من النعم الخالد الدائم ، في دار العز والكرامة ، وذلك في مقابلة ما للأشقياء الأشرار ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترغيب والترهيب ﴿ إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . على الأرائك ينظرون . تعرف في وجوههم

نصرة النعيم . يُسْقُونَ من رحيقٍ مختوم . ختامه مسك وفي ذلك فليتنافس المتنافسون ﴿١٠﴾ .

● وختمت السورة الكريمة بمواقف أهل الشقاء والضلال ، من عباد الله الأبرار الأخيار ، حيث كانوا يهزءون بهم في الدنيا ويسخرون منهم لإيمانهم وصلاتهم ﴿١١﴾ إن الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون . وإذا انقلبوا إلى أهلهم انقلبوا فكهين . وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون . وما أرسلوا عليهم حافظين . فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون . هل ثوب الكفار ما كانوا يفعلون ﴿١٢﴾ .

(١٤) سُورَةُ الْإِنْشِقَاقِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا خَمْسُونَ وَعَشْرُونَ

- سورة الإنشقاق مكية ، وقد تناولت الحديث عن أهوال القيامة ، كشأن سائر السور المكية في معالجة أمور العقيدة والإيمان .
- ابتدأت السورة الكريمة بذكر بعض مشاهد الآخرة ، وصور الانقلاب الذي يحدث في الكون عند قيام الساعة ﴿ إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ . وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ . وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ . وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ . وَأَذْنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ ﴾ .
- ثم تحدثت عن خلق الإنسان ليعمر هذه الدنيا ، ويكدّ ويتعب في تحصيل أسباب رزقه ومعاشه ، وليقدّم لآخرفته ما يشتهي من صالح أو طالح ، ومن خير أو شر ، ثم هناك الجزاء العادل ﴿ يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فُتْلَاقِيهِ . فَأَمَّا مِنْ أَوْقِي كِتَابِهِ يَمِينُهُ فَسَوْفَ يَحَاسِبُ حَسَابًا يَسِيرًا .. ﴾ الآيات .
- ثم تناولت السورة موقف المشركين من هذا القرآن العظيم ، وأقسمت بأنهم سيلقون الأهوال والشدائد ، ويركبون الأخطار والأهوال ، في ذلك اليوم العصيب الذي لا ينفع فيه مال ولا ولد ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِالْشَفَقِ . وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقِ . وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقِ . لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَنْ طَبَقِ ﴾ .
- وختمت السورة الكريمة بتوبيخ المشركين على عدم إيمانهم بالله ،

مع وضوح آياته وسطوع براهينه ، وبشرتهم بالعذاب الأليم في دار
الجهيم ﴿فما لهم لا يؤمنون ؟ وإذا قرئ عليهم القرآن لا يسجدون ؟
بل الذين كفروا يكذبون . والله أعلم بما يوعون . فبشرهم بعذاب أليم
إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون ﴾ .

(٨٥) سُورَةُ الْبُرُوجِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّاهَا ثَنَانٌ وَعَشْرُونَ

● هذه السورة الكريمة من السور المكية ، وهي تعرض لحقائق العقيدة الإسلامية ، ولواجبات المسلم حول إيمانه وعقيدته التي ينبغي أن يضحى من أجلها بكل غالٍ ورخيص ، والمحور الذي تدور عليه السور الكريمة هو حادث « أصحاب الأخدود » وهي قصة التضحية بالنفس في سبيل العقيدة والإيمان .

● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات النجوم الهائلة ، ومداراتها الضخمة التي تدور فيها تلك الأفلاك ، وباليوم العظيم المشهود وهو يوم القيامة ، وبالرسل والخلائق التي تشهد ضخامة ذلك اليوم ، على هلاك ودمار المجرمين الذين طرحوا المؤمنين في النار المتأججة ليفتنوهم عن دينهم ﴿ والسماء ذات البروج . واليوم الموعود . وشاهد ومشهود . قُتل أصحاب الأخدود . النار ذات الوقود . إذ هم عليها قعود . وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود . وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد .. ﴾ الآيات .

● ثم تلاها الوعيد والإنذار لأولئك الفجار على فعلتهم القبيحة الشنيعة ﴿ إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ ﴾ .

● وبعد ذلك تحدثت عن قدرة الله على الانتقام من أعدائه الذين

قتنوا عباده وأوليائه ﴿١﴾ إن بطش ربك لشديد . إنه هو يبدىء ويعيد .
وهو الغفور الودود . ذو العرش المجيد ﴿٢﴾ .

● وختمت السورة الكريمة بقصة فرعون الطاغية الجبار ، وما
أصابه وقومه من الهلاك والدمار بسبب البغي والطغيان ﴿٣﴾ هل أتاك
حديث الجنود . فرعون وثمود . بل الذين كفروا في تكذيب . والله
من ورائهم محيط . بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ ﴿٤﴾ وهو ختم
رائع يناسب موضوع السورة الكريمة .

(٨١) سُورَةُ الطَّارِقِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا السَّبْعُ عَشَرَ

● هذه السورة الكريمة «سورة الطارق» من السور المكية ، وهي تعالج بعض الأمور المتعلقة بالعقيدة الإسلامية ، ومحور السورة يدور حول ترسيخ الإيمان بالبعث والنشور ، وقد أقامت البرهان الساطع والدليل القاطع على قدرة الله جل وعلا على إمكان البعث ، فإن الذي خلق الإنسان من العدم قادر على إعادته بعد موته .

● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالسماء ذات الكواكب الساطعة ، التي تطلع ليلاً لتضيء للناس سبلهم ، ويهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ، على أن كل إنسان قد وُكِّلَ به من يحرسه ويتعهد أمره من الملائكة الأبرار ﴿والسماء والطارق﴾ . وما أدراك ما الطارق ؟ النجم الثاقب . إن كل نفس لما عليها حافظ ﴿﴾ .

● ثم ساقَت الأدلة والبراهين ، على قدرة رب العالمين ، في إعادة الإنسان بعد فثائه ﴿فليَنظر الإنسان ممَّ خُلِقَ ؟ خُلِقَ من ماءٍ دافقٍ . يخرج من بين الصلب والترائب . إنه على رَجْعِهِ لَقادر﴾ .

● ثم أَخبرت عن كشف الأسرار ، وهتك الأستار عن الإنسان في الآخرة ، حيث لا معين له ولا نصير ﴿يوم تبلى السرائر﴾ . فما له من قوة ولا ناصر ﴿﴾ .

● وختمت السورة الكريمة بالحديث عن القرآن العظيم ، معجزة

محمد الخالدة ، وحجته البالغة إلى الناس أجمعين ، وبيّنت صدق
هذا القرآن ، وأوعدت الكفرة المجرمين بالعذاب الأليم ﴿والسما
ذات الرجع . والأرض ذات الصدع . إنه لقولٌ فصل . وما هو بالهزل .
إنهم يَكِيدُونَ كَيْدًا . وأَكِيدُ كَيْدًا . فَهَلْ الْكَافِرِينَ أَهْلُهُمْ رَوِيدًا﴾ .

(٨٧) سُورَةُ الْأَعْلَى مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا لَشَعْرٌ عَشْرَةٌ

● سورة الأعلى من السور المكية ، وهي تعالج باختصار بعض المواضيع المتعلقة بالعقيدة الإسلامية وهي كالتالي : ١ - الذاتِ العلية وبعض صفات الله جل وعلا ، وذكر الدلائل على القدرة والوحدانية . ٢ - الوحي والقرآن المنزل على خاتم الرسل ﷺ وبتيسير حفظه عليه ﷺ . ٣ - الموعظة الحسنة التي ينتفع بها أهل القلوب الحية ويستفيد منها أهل السعادة والإيمان .

● ابتدأت السورة الكريمة بتزويه الله جل وعلا ، الذي خلق فأبدع ، وصوّر فأحسن ، وأخرج العشب والنبات رحمة بالعباد ، فهو الرب المعبود ، المنعوت بأكمل الصفات ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . الَّذِي خَلَقَ فَسْوَى . وَالَّذِي قَدَّرَ قَهْدَى . وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى . فَجَعَلَهُ غِثَاءً أَحْوَى﴾ .

● ثم تحدثت عن الوحي والقرآن ، وآنست الرسول ﷺ بالبشارة بتحفيظه هذا الكتاب المجيد ، وتيسير حفظه عليه بحيث لا ينساه إلا ما أراد الله نسخه من الأحكام ﴿سَتَقْرَأُكَ فَلَا تَنْسَى : إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ وَمَا يَخْفَى . وَنِيسْرُكَ لِلْيَسْرَى﴾ .

● ثم أمرت بالتذكير بهذا القرآن ، الذي يستفيد من نوره وضيائه المؤمنون ، ويتعظ ويهتدي بهديه المتقون ، وميزت بينهم

وبين الأشقياء المجرمين ﴿ فذكر إن نفعت الذكرى . سيذكر من
يخشى . ويتجنبها الأشقى . الذي يصل النار الكبرى . ثم لا يموت فيها
ولا يحيى ﴾ .

وختمت السورة ببيان فوز من طهر نفسه من الذنوب والآثام ،
وزكاها بصلاح الأعمال ﴿ قد أفلح من تزكى . وذكر اسم ربه فصلى .
بل تؤثر الحياة الدنيا . والآخرة خير وأبقى . إن هذا لفي الصحف
الأولى . صحف ، إبراهيم وموسى ﴾ .

(٨٨) سُورَةُ الْغَاشِيَةِ مَكِّيَّةٌ
وَأَرْبَعٌ وَأَرْبَعُونَ آيَةً

سورة الغاشية مكية ، وقد تناولت موضوعين أساسيين وهما :
 ١ - القيامة وأحوالها وأهوالها ، وما يلقاه الكافر فيها من العناء والبلاء ،
 وما يلقاه المؤمن فيها من السعادة والهناء . ٢ - الأدلة والبراهين على
 وحدانية رب العالمين ، وقدرته الباهرة ، في خلق الإبل العجيبة ،
 والسماء البديعة ، والجبال المرتفعة ، والأرض الممتدة الواسعة ، وكلها
 شواهد على وحدانية الله وجلال سلطانه . وختمت السورة الكريمة
 بالتذكير برجوع الناس جميعاً إلى الله سبحانه للحساب والجزاء .



(٨٩) سُورَةُ الْفَجْرِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانُهَا ثَلَاثُونَ

سورة الفجر مكية ، وهي تتحدث عن أمور ثلاثة رئيسية وهي :
١ - ذكر قصص بعض الأمم المكذبين لرسول الله ، كقوم عاد ،
وثمود ، وقوم فرعون ، وبيان ما حلَّ بهم من العذاب والدمار بسبب
طغيانهم « ألم تركيف فعل ربك بعاد .. » الآيات ٢ - بيان سنة الله
تعالى في ابتلاء العباد في هذه الحياة بالخير والشر ، والغنى والفقر ،
وطبيعة الإنسان في حبه الشديد للمال ﴿ فأمّا الإنسان إذا ما ابتلاه
ربه .. ﴾ الآيات ٣ - الآخرة وأهوالها وشدائدها ، وانقسام الناس
يوم القيامة إلى سعداء وأشقياء ، وبيان مآل النفس الشريرة ، والنفس
الكريمة الخيرة ﴿ كلا إذا دُكَّتْ الأرض دُكًّا ذكًّا . وجاء ربك والملك
صفًّا صفًّا . وجيء يومئذٍ بجهنم يومئذٍ بتذكر الإنسان وأنى له الذكرى .. ﴾
إلى نهاية السورة الكريمة .

(٩٠) سُورَةُ الْبَلَدِ الْمَكِّيَّةُ وَأَيُّهَا عَشْرُونَ

● هذه السورة الكريمة مكية ، وأهدافها نفس أهداف السور المكية ، من تثبيت العقيدة والإيمان ، والتركيز على الإيمان بالحساب والجزاء ، والتمييز بين الأبرار والفجار .

● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالبلد الحرام ، الذي يسكنه النبي عليه الصلاة والسلام تعظيماً لشأنه ، وتكريماً لمقامه الرفيع عند ربه ، ولفتاً لأنظار الكفار إلى أن إيذاء الرسول في البلد الأمين من أكبر الكبائر عند الله تعالى .

● ثم تحدثت عن بعض كفار مكة ، الذين اغتروا بقوتهم ، فعاندوا الحق ، وكذبوا رسول الله ﷺ وأنفقوا أموالهم في المباهاة والمفاخرة ، ظناً منهم أن إنفاق الأموال يدفع عنهم عذاب الله ، وقد ردت عليهم الآيات بالحجة القاطعة والبرهان الساطع .

● ثم تناولت أهوال القيامة وشدائدها ، وما يكون بين يدي الإنسان في الآخرة من مصاعب ومتاعب وعقبات لا يستطيع أن يقطعها ويجتازها إلا بالإيمان والعمل الصالح .

● وختمت السورة الكريمة بالتفريق بين المؤمنين والكفار في ذلك اليوم العصيب ، وبيّنت مآل السعداء ، ومآل الأشقياء ، في دار الجزاء .

(١١) سُورَةُ الشَّمْسِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا خَمْسُ عَشْرَةَ

سورة الشمس مكية ، وقد تناولت موضوعين اثنين وهما :
١ - موضوع النفس الإنسانية ، وما جبلها الله عليه من الخير والشر ،
والهدى والضلال . ٢ - وموضوع الطغيان ممثلاً في « ثمود » الذين عقروا
الناقة فأهلكهم الله ودمرهم .

● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بسبعة أشياء من مخلوقات الله
جل وعلا ، فأقسم تعالى بالشمس وضوئها الساطع ، والقمر إذا
أعقبها وهو طالع ، ثم بالنهار إذا جلا ظلمة الليل بضياءه ، وبالليل إذا
أغطى الكائنات بظلامه ، ثم بالقادر الذي أحكم بناء السماء بلا عمد ،
وبالأرض الذي بسطها على ماء جمدٍ ، وبالنفس البشرية التي كملها الله
وزينها بالفضائل والكمالات ، أقسم بهذه الأمور على فلاح الإنسان
ونجاحه إذا اتقى الله ، وعلى شقاوته وخسرانه إذا طغى وتمرد .

● ثم ذكر تعالى قصة « ثمود » قوم صالح حين كذبوا رسوله ،
وطغوا وبغوا في الأرض ، وعقروا الناقة التي خلقها الله تعالى من صخر
أصم معجزة لرسوله صالح عليه السلام ، وما كان من أمر هلاكهم
الفظيع الذي بقي عبرة لمن يعتبر ، وهو نموذج لكل كافر فاجر مكذب
لرسل الله .

● وقد ختمت السورة الكريمة بأنه تعالى لا يخاف عاقبة إهلاكهم
وتدميرهم ، لأنه « لا يسأل عما يفعل وهم يسألون » .

(١٢) سُوْرَةُ اللَّيْلِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّاتُهَا الْخُذْلَى وَعَشْرُونَ

● سورة الليل مكية ، وهي تتحدث عن سعي الإنسان وعمله ، وعن كفاحه ونضاله في هذه الحياة ، ثم نهايته إلى النعم أو إلى الجحيم .
● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم بالليل إذا غشي الخليفة بظلامه ، وبالنهار إذا أثار الوجود بإشراقه وضياؤه ، وبالخالق العظيم الذي أوجد النوعين الذكر والأنثى ، أقسم على أن عمل الخلاق مختلف ، وطريقهم متباين ﴿والليل إذا يغشى . والنهار إذا تجلَّى . وما خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾ .

● ثم وضحت السورة سبيل السعادة ، وسبيل الشقاء ، ورسمت الخطأ البياني لطالب النجاة ، وبينت أوصاف الأبرار والفجار ، وأهل الجنة وأهل النار ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنِيَرُهُ لِلْعُسْرَى﴾
● ثم نهت إلى اغترار بعض الناس بأموالهم التي جمعوها ، واثرواتهم التي كدسوها ، وهي لا تنفعهم في القيامة شيئاً ، وذكرتهم بحكمة الله في توضيحه لعباده طريق الهداية وطريق الضلالة ﴿وَمَا يَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى ؟ إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى . وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى﴾ .

● ثم حذرت أهل مكة من عذاب الله وانتقامه ، ممن كذب بآياته ورسوله ، وأنذرهم من نار حامية تتوهج من شدة حرها ، لا يدخلها ولا يذوق سعيها إلا الكافر الشقي ، المعرض عن هداية الله ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ

ناراً تَلْظَى . لا يصلّاها إلا الأشقى . الذي كَذَّبَ وتولَّى ﴿ .
● وختمت السورة الكريمة بذكر نموذج للمؤمن الصالح ،
الذي ينفق ماله في وجوه الخير ، ليزكي نفسه ويصونها من عذاب الله ،
وضربت المثل بأبي بكر الصديق رضي الله عنه حين اشترى بلالاً
وأعتقه في سبيل الله ﴿ وسيجنبها الأتقى . الذي يؤتي ماله يتركى .
وما لأحدٍ عنده من نعمة تجزى . إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى . ولسوف
يرضى ﴿ .

(١٣) سُورَةُ الضُّحَى مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا اخْتُدِيَ عَشْرَةٌ

● سورة الضحى مكية ، وهي تتناول شخصية النبي الأعظم ﷺ ، وما حباه الله به من الفضل والإنعام في الدنيا والآخرة ، ليشكر الله على تلك النعم الجليلة :

● ابتدأت السورة الكريمة بالقسم على جلالة قدر الرسول ﷺ وأن ربه لم يهجره ولم يبغضه كما زعم المشركون ، بل هو عند الله رفيع القدر ، عظيم الشأن والمكانة ﴿ وَالضُّحَى وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلِلْآخِرَةِ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الْأُولَى .

● ثم بشرته بالعطاء الجزيل في الآخرة ، وما أعدّه الله تعالى لرسوله من أنواع الكرامات ، ومنها الشفاعة العظمى ﴿ وَلَسَوْفَ يَعْطِيكَ رَبُّكَ فَرَضَى

● ثم ذكّره بما كان عليه في الصغر ، من اليتيم ، والفقر ، والفاقة ، والضباغ ، فأواه ربه وأغناه ، وأحاطه بكلاءته وعنايته ﴿ أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى ؟ وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى ؟ وَوَجَدَكَ عَائِلًا فَأَغْنَى ؟

● وختمت السورة بتوصيته ﷺ بوصايا ثلاث ، مقابل تلك النعم الثلاث ، ليعطف على اليتيم ، ويرحم المحتاج ، ويمسح دموعه البائس المسكين ﴿ فَأَمَّا الْيَتِيمَ فَلَا تَقْهَرْ . وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ . وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴿ وهو ختم يتناسق فيه جمال اللفظ مع روعة البيان .



(١٤) سُوْرَةُ الشَّرْحِ مَكِّيَّةٌ
فَلَا يَحِلُّ لَهَا ثَلَاثُونَ آيَةً

- سورة الإنشراح مكية ، وهي تتحدث عن مكانة الرسول الجليلة ، ومقامه الرفيع عند الله تعالى ، وقد تناولت الحديث عن نعم الله العديدة على عبده ورسوله محمد ﷺ ، وذلك بشرح صدره بالإيمان ، وتنوير قلبه بالحكمة والعرفان ، وتطهيره من الذنوب والأوزار ، وكل ذلك بقصد التسلية لرسول الله عليه السلام عما يلقيه من أذى الفجار ، وتطيب خاطرهم الشريف بما منحه الله من الأنوار ﴿ ألم نشرح لك صدرك ؟ ووضعنا عنك وزرك . الذي أنقض ظهرك ﴾ .
- ثم تحدثت عن إعلاء منزلة الرسول ، ورفع مقامه في الدنيا والآخرة ، وقرن اسمه ﷺ باسم الله تعالى ﴿ ورفعنا لك ذكرك ﴾ .
- وتناولت السورة دعوة الرسول ﷺ وهو بمكة يقاسي مع المؤمنين الشدائد والأهوال من الكفرة المكذبين ، فأنسته بقرب الفرج وقرب النصر على الأعداء ﴿ فإن مع العسر يسراً . إن مع العسر يسراً ﴾ .
- وختمت بالتذكير للمصطفى ﷺ بواجب التفرغ لعبادة الله ، بعد انتهائه من تبليغ الرسالة ، شكراً لله على ما أولاه مع النعم الجليلة ﴿ فإذا فرغت فانصب . وإلى ربك فارغب ﴾ .

(١٥) سُورَةُ التِّينِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا مَنَّا لَيْتُ

● سورة التين مكية ، وهي تعالج موضوعين بارزين وهما :

الأول : تكريم الله جل وعلا للنوع البشري .

الثاني : موضوع الإيمان بالحساب والجزاء .

● أقسم بالبقاع المقدسة ، والأماكن المشرقة ، التي خصها الله تعالى بإنزال الوحي فيها على رسله وأنبيائه ، وهي « بيت المقدس » مهاجر إبراهيم ومولد عيسى ، و « جبل الطور » الذي نودي عليه موسى ، و « مكة المكرمة » التي ولد وبعث فيها خاتم الأنبياء والمرسلين ، أقسم على أنه كرم الإنسان وخلقته في أجمل صورة وأكمل شكل ، ثم إذا لم يشكر النعمة رده إلى أسفل دركات جهنم ، منكوس الخلق والصورة إلا من آمن واهتدى وقدم لآخرته العمل الصالح ﴿ والتين والزيتون . وطور سينين . وهذا البلد الأمين . لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقديم ﴾ الآيات .

● ثم وبَّخ الكافر على عدم إيمانه ، وإنكاره للبعث والجزاء ، بعد تلك الدلائل الباهرة التي تدل على قدرة الله ﴿ فَمَا يُكَذِّبُكَ بَعْدُ بِالدِّينِ ﴾ ؟

● وختم السورة الكريمة ببيان عدل الله جل وعلا بإثابة المؤمنين ، وعقاب الكافرين ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَحْكَمَ الْحَاكِمِينَ ﴾ ؟ وفيه تقرير للجزاء ، وإثبات للمعاد .



(٩٦) سُورَةُ الْعَلَقِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الشُّعْ عَشْرَةٌ

سورة العلق مكية ، وهي تعالج الأمور الآتية :
أ - موضوع الوحي وبدء نزول القرآن على خاتم الأنبياء والمرسلين .
ب - موضوع طغيان الإنسان بالمال ، وتمرده بسبب النعمة على أوامره .

ج - حادثة « أبي جهل » ونهيه للرسول عليه الصلاة والسلام عن الصلاة في المسجد الحرام وتوعده له .

● ابتدأت السورة الكريمة ببيان أول ما نزل من القرآن على رسول الله ﷺ وهو يتعبد ربه في غار حراء ، وتذكيره بأول النعماء الفائضة على قلبه الشريف عليه الصلاة والسلام ، وإظهار بديع قدرة الله في خلق هذا الإنسان ﴿ اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم ﴾
● ثم تحدثت عن تكبر الإنسان وتمرده على أوامر الله ، وطغيانه في هذه الحياة بسبب نعمة الغنى ، وكان الواجب عليه أن يشكر ربه لا أن يحمده بنعمائه ، وذكرته بالعودة إلى ربه لينال الجزاء (كلاً إن الإنسان ليطغى . أن رآه استغنى . إن إلى ربك الرجعى) .

● ثم ذكرت قصة ذلك الكافر الشقي « أبي جهل » الذي كان يتوعد الرسول ﷺ ويتهدهه إن رآه يصلي ، وكان ينهيه عن الصلاة انتصاراً لكرامة آلهته من الأوثان ﴿ أرأيت الذي ينهى عبداً إذا صلى ؟

أرأيتَ إن كان على الهدى . أو أمر بالتقوى ؟ أرأيتَ إن كذب وتولى .
ألم يعلم بأن الله يرى ؟) .

وختمت السورة الكريمة بوعيد ذلك الشقي بأشد أنواع العذاب ،
إن استمر على ضلاله وطغيانه ، وأمرت الرسول عليه السلام بالجهر
بصلاته وعبادته ، وعدم الإصغاء إلى وعيد ذلك المجرم الأثيم ﴿ كلا
لئن لم ينته لنسفعا بالناصية . ناصية كاذبة خاطئة . فليدع ناديه . سندعوا
الزبانية . كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ .

(٩٧) سُورَةُ الْقَدْرِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْمُجَنَّبُونَ

سورة القدر مكية ، وهي تتحدث عن بدء نزول القرآن العظيم ، من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة في السماء الدنيا ، وعن فضل ليلة القدر على سائر ليالي العمر ، وما فيها من الأنوار ، والتجليات القدسية ، والنفحات الربانية ، التي يفيضها الله على عباده المؤمنين ، تكريماً لنزول القرآن المبين ، كما تحدثت عن نزول الملائكة الأطهار في تلك الليلة المباركة من غروب الشمس إلى طلوع الفجر ، ويا لها من ليلة عظيمة القدر ، حافلة بالفضائل والمفاخر !! ولذلك كانت أفضل من ألف شهر ، وهي - على الأصح - في العشر الأخير من شهر رمضان المبارك ، لأن الله قال هنا « إنا أنزلناه في ليلة القدر » وقال في سورة البقرة « شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن » فدلّ على أن ليلة القدر في شهر رمضان ، والله اعلم



(٩٨) سُورَةُ الْبَيِّنَاتِ
وَأَنبَأْنَاهُنَّ كَانُوا

سورة البينة مدنية ، وهي تتحدث عن اليهود والنصارى ، وموقفهم من دعوة رسول الله ﷺ بعد أن بان لهم الحق ، وسطعت أنواره ، ومع ذلك كفروا وعاندوا .. كما تتحدث عن عنصر « الإخلاص » الذي أمر به أهل الأديان جميعاً ، وهو إخلاص العبادة لله جل وعلا ، وإفراده سبحانه بالذكر ، والقصد ، والتوجه في جميع الأقوال والأفعال والأعمال لوجهه الكريم دون سواه ، كما تتحدث عن مصير أهل الإجرام - من كفر أهل الكتاب والمشركين - إلى نار الجحيم ، وعن مصير أهل الإيمان والإخلاص إلى جنات النعيم ، ، مع الفضل ، والإحسان ، والإنعام في جوارب رحيم .

(٩٩) سُورَةُ الزَّلْزَلَةِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا ثَمَانِيَاتٌ

سورة الزلزلة مدنية ، وهي في أسلوبها تشبه السور المكية ، لما فيها من أهوال وشدائد يوم القيامة ، وهي هنا تتحدث عن الزلزال العنيف الذي يكون بين يدي الساعة ، حيث يندك كل صرحٍ شامخ ، وينهار كل جبل راسخ ، ويحصل من الأمور العجيبة الغريبة ما يندهش له الإنسان ، كإخراج الأرض ما فيها من موتى ، وإلقائها ما في بطنها من كنوز ثمينة من ذهب وفضة ، وشهادتها على كل إنسان بما عمل على ظهرها تقول : عملت يوم كذا ، كذا وكذا ، وكل هذا من عجائب ذلك اليوم الرهيب ، كما تتحدث عن انصراف الخلائق من أرض المحشر إلى الجنة أو النار ، وانقسامهم إلى أصناف ما بين شقي وسعيد .



(١٠٠) سُورَةُ الْعَادِيَاتِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا اخْتُلِفَتْ عَشْرَةٌ

سورة العاديات مكية ، وهي تتحدث عن خيل المجاهدين في سبيل الله ، حين تغير على الأعداء ، فيسمع لها عند عدوها بسرعة صوتٌ شديد ، وتقدح بحوافرها الحجارة فيتطاير منها النار ، وتثير التراب والغبار ، وقد بدأت السورة بالقسم بخيل الغزاة - إظهاراً لشرفها وفضلها عند الله - على أن الإنسان كفور لنعمة الله تعالى عليه ، جحودٌ لآلائه وفيوض نعمائه ، وهو معلنٌ لهذا الكفران والجحود بلسان حاله ومقاله ، كما تحدثت عن طبيعة الإنسان ، ووجهه الشديد للمال ، وختمت السورة الكريمة ببيان أن مرجع الخلائق إلى الله للحساب والجزاء ، ولا ينفع في الآخرة مال ولا جاه ، وإنما ينفع العمل الصالح .

(١٠) سُورَةُ الْقَارِعَةِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا إِحْدَى عَشْرَةٌ

سورة القارعة مكية ، وهي تتحدث عن القيامة وأهوالها ، والآخرة
وشدائدها ، وما يكون فيها من أحداثٍ وأهوالٍ عظام ، كخروج الناس
من القبور ، وانتشارهم في ذلك اليوم الرهيب كالفراش المتطاير ،
المنتشر هنا وهناك ، يخيئون ويذهبون على غير نظام من شدة حيرتهم
وفزعهم ، وكنسف الجبال وتطايرها حتى تصبح كالصوف المنبث
المتطاير في الهواء ، بعد أن كانت صلبة راسخة فوق الأرض ، وقد
قرنت بين الناس والجبال تنبيهاً على تأثير تلك القارعة في الجبال حتى
صارت كالصوف المندوف ، فكيف يكون حال البشر في ذلك اليوم
العصيب ؟ وختمت السورة الكريمة بذكر الموازين التي توزن بها أعمال
الناس ، وانقسام الخلق إلى سعداء وأشقياء حسب ثقل الموازين وخفتها ،
وسميت السورة الكريمة بالقارعة لأنها تفرع القلوب والأسماع بهولها .

سُورَةُ التَّكْوِيْنِ
وَآيَاتُهَا مَعَارِفٌ

سورة التكاثر مكية ، وهي تتحدث عن انشغال الناس بالدنيا وشهواتها عن طاعة الله ، وعن تكاليفه على جمع حطام الحياة ، حتى يبعثهم الموت ويقطع عليهم متعتهم ، وينقلهم من القصور إلى القبور ، وقد تكرر الزجر والتهديد في هذه السورة الكريمة « كلا سوف تعلمون . ثم كلا سوف تعلمون » لبيان خطأ الناس في اشتغالهم بالفانية عن الباقية ، ونسيانهم لما أمامهم من المخاطر والأهوال ، التي لا يحوزها ولا ينجو منها إلا من قدّم صالح الأعمال .

(١٠٣) سُورَةُ الْعَصْرِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَلَاثٌ

سورة العصر مكية ، وقد جاءت في غاية الإيجاز والبيان ، لتوضيح سبب سعادة الإنسان وخسارته ، ونجاحه في هذه الحياة أو دماره . أقسم تعالى بالعصر وهو الزمان الذي ينتهي فيه عمر الإنسان ، على أن هذا النوع البشري في خسارة وهلاك إلا من انصف بالأوصاف الأربعة وهي : الإيمان ، والعمل الصالح ، والتواصي بالحق ، والتواصي بالصبر ، فمن باع آخرته بدنياه فهو في غاية الخسران ، وأي خسران أعظم ممن خسر دنياه وآخرته !! وقد قال الإمام الشافعي رحمه الله : « لو لم يتزل الله على الناس سوى هذه السورة لكفتمهم » .



(١٠٤) سُورَةُ الْهُمَزَةِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الشَّيْخُ

سورة الهمزة مكية ، وقد تحدثت عن فريق من الناس ، يعيبون البشر ، ويأكلون أعراضهم ، ووصفتهم بذلك الخلق الذميمة « الهمز واللمز » كما يشتغلون بجمع الأموال وتكديس الثروات ، كأنهم مخلصون في هذه الحياة ، يظنون لفرط جهلهم وكثرة غفلتهم ، أن المال سيتركهم مخلصين في الدنيا لا يموتون ، وقد ذكرت السورة خلودهم في النار التي تحطم من يلقي فيها من البشر ، وهم بين أطباقها يعذبون ، وهي عليهم مغلقة مطبقة .

● ● ●

(١٠٥) سُورَةُ الْفِيلِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا خَسَنَتْ

سورة الفيل مكية ، وهي تتحدث عن « قصة أصحاب الفيل » وكيف أهلك الله الطغاة الظالمين ، لما قصدوا هدم الكعبة المشرفة ، وردّ كيدهم في نحورهم ، وحمل بيته من تسلطهم وطمعهم ، وفي ذلك أعظم العظة والعبرة لأهل مكة بدفع أعدائهم عنهم ، فكان يجب عليهم أن يعبدوا الله ويشكروه ، وفيها مع ذلك عجائب من قدرة الله تعالى ، وشدة عقابه ، حيث أرسل على « أبرهة الأشرم » وجنوده أضعف مخلوقاته ، وهي الطيور ، التي تحمل في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة ، ولكنها أشد من الرصاصات فتكاً وتدميراً ، حتى أبادهم الله وأهلكهم عن آخرهم ، وكان ذلك الحدث العظيم في عام مولد رسول الله السعيد ، من أعظم الإرهاصات الدالة على نبوته ﷺ .



(١٠١) سُورَةُ قُرَيْشٍ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا الْمَدِينَةُ

سورة قريش مكية ، وهي تتحدث عن نعم الله الجليلة على أهل مكة ، فقد كانت لهم رحلتان في كل عام للتجارة ، رحلة في الشتاء إلى اليمن ، ورحلة في الصيف إلى الشام ، وكانت قبيلة قريش متفرقين في غير الحرم ، فأكرمهم الله تعالى بجوار بيته ، وجمعهم بعد التشتت في البلاد ، ولذلك ذكّرهم الله بنعمتين عظيمتين من نعمه الكثيرة هما : نعمة الأمن والاستقرار ، ونعمة الغنى واليسار « فليعبدوا ربّ هذا البيت . الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » .

(١٠٧) سُورَةُ الْمَاعُونِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا النَّاسُ اسْتَعِذْ

سورة الماعون مكية ، وهي تتحدث بإيجاز عن فريقين من الناس هما :

أ - الكافر الجاحد لنعم الله ، المكذب بيوم الجزاء والحساب .

ب - والمنافق الذي لا يقصد بعمله وجه الله ، بل يرائي في صلاته وعبادته . أما الفريق الأول فقد ذكر تعالى من صفاتهم الذميمة ، أنهم يدفعون اليتيم دفعاً عنيفاً بغلظةٍ وشدة ، ولا يعملون الخير ولا يفعلون المعروف ، ولا يحسنون إلى عباد الله حتى ولو بالتذكير بحق الفقير والمسكين ، أو بإعارة ما ينتفع به من الأشياء ، فلا هم أحسنوا عبادة ربهم ، ولا أحسنوا إلى خلقه . وأما الفريق الثاني فهم المنافقون ، الذين يؤخرون الصلاة عن وقتها ، ويرأون في عبادتهم . وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى ، وقد دُمّت الفريقين وشنت عليهم أعظم تشنيع ، بأسلوب التعجب من ذلك الصنيع .



(١٠٨) سُورَةُ الْكَوْثِرِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا ثَلَاثٌ

سورة الكوثر مكية ، وهي تتحدث عن فضل الله العظيم على رسوله الكريم ، حيث خصه بأنواع الخيرات والفضائل ، وأعطاه ما لم يعط أحداً من المرسلين ، ومنها نهر الكوثر ، وهو كما ثبت في الصحيح « نهرٌ في الجنة ، حافتيه من ذهب ، ومجراه على الدرِّ والياقوت ، تربته أطيب من المسك ، وماؤه أحلى من العسل ، وأبيض من الثلج ، من شرب منه شربةً لم يظمأ بعدها أبداً » وغير ذلك من الخير العظيم العميم ، وقد ردَّ على أعدائه أشنع ردَّ ، ووصف مبغضه بأنه الذليل الحقير المنقطع من كل خير .



(١٠٩) سُورَةُ الْكَافِرُونَ مَكِّيَّةٌ وَأَسْمَانُهَا سِتُّ

هذه السورة الكريمة مكية ، وهي سورة التوحيد والبراءة من الشرك والضلال ، فقد دعا المشركون رسول الله ﷺ إلى المهادنة ، وطلبوا منه أن يعبد آلهتهم سنة ، ويعبدوا إلهه سنة ، فتزلت السورة تفصل النزاع بين الفريقين والطائفتين : طائفة أهل الإيمان ، وطائفة عبدة الأوثان ، وتردُّ على المشركين تلك الفكرة السخيفة في الحال والاستقبال (قل يا أيها الكافرون . لا أعبد ما تعبدون ..) الآيات . وقطعت العلاقة بين جند الرحمن وجند الشيطان ، ولهذا تسمى سورة البراءة .





سورة النصر مدنية ، وهي تتحدث عن الفتح الأعظم « فتح مكة » الذي عزَّ به دين الإسلام ، ودخل الناس في دين الله أفواجاً ، وانتشر الإسلام في أنحاء الجزيرة العربية ، وتقلعت أظافر الكفر والضلal ، وكان الإخبار بفتح مكة أو المدائن والقصور قبل وقوعه إخباراً بالغيب ، وقد حصل كما أخبر القرآن حيث فتحت مكة في السنة الثامنة من الهجرة ، وغيرها بعدها هذا من أعلام نبوته عليه أفضل الصلاة والسلام .

(١١٣) سُورَةُ الْفَالِقِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيَّانَهَا خَمْسٌ

سورة الفلق مكية ، وهي إحدى المعوذتين اللتين كان ﷺ يعود نفسه بهما ، فقد ثبت في الصحيح أنه عليه السلام « كان إذا أوى إلى فراشه ، جمع كفيه ونفث فيهما وقرأ « قل هو الله أحد » والمعوذتين ، ثم مسح بهما ما استطاع من جسده » وفي هذه السورة الكريمة تعليم للعباد أن يلجأوا إلى حمى الرحمن ، ويستعينوا بجلاله وسلطانه من شر مخلوقاته ، ليدفع عنهم شر الأشرار وكيد الفجار ، ومن شر الليل إذا أظلم وهو الغاسق ، لأن ظلمة الليل ينتشر عندها أهل الشر من الإنس والجن ، ولهذا قالوا في المثل « الليل أخفى للويل » ومن شر السحرة الذين ينفثون في العقد ، ومن شر كل حاسد يكره أن يرى نعمة الله على غيره ويحب أن تزول عنه .

● ● ●

مكتبة
الاستاذ / ابراهيم يم على صندوق
الرقم

(١١٤) سُورَةُ النَّاسِ مَكِّيَّةٌ
وَأَيُّهَا سِتُّ

سورة الناس مكية ، وهي ثاني المعوذتين ، وفيها الاستجارة برب
الأرباب من شر أعدى الأعداء إبليس اللعين ، وأعوانه من شياطين
الإنس والجن ، الذين يغوون الناس بأنواع الوسوسة والإغواء ، وقد
نختم القرآن العظيم بالمعوذتين كما بُدئ بالفاتحة ، ليجمع بين حسن
الافتتاح وحسن الاختتام ، وليكون القارئ محفوظاً بحفظ الله الذي
استعاذ به من أول أمره إلى آخره ، فإنه يبدأ التلاوة بالتعوذ ويختتم
القرآن بالمعوذتين ، وهذا غاية الحسن والجمال ، وبالله التوفيق .
« تم بعونه تعالى كتاب إيجاز البيان في مقاصد سور القرآن وصلى الله
على سيدنا محمد وآله وأصحابه أجمعين . السابع عشر من شهر ربيع
الأول ١٣٩٨ .



